

بائے خیر

إعداد وتحليل وتقديم
الدكتور رجا عكاوي

تأليف
كزافييه دو مونتبان



رياحين

www.lilas.com



دار الحرف العربی

APPROVED

بائعة الخبز



تجري أحداث الرواية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي برزت فيها الروايات الشعبية التي كانت تنشر على حلقات بهدف جذب أكبر عدد من قراء الصحيفة التي كانت تلحقها في ذيل كل عدد من أعدادها. وكانت «بائعة الخبز» الرواية الأكثر رواجاً من بين الروايات المعاصرة، بحيث عرفت طريقها بعد إقبال القراء عليها إلى المسرح والسينما والتلفزيون.

شخصيات الرواية كما رسمها دو مونتبان تتنازعها عواطف شتى، هي عواطف إنسانية تنبض بالمشاعر والأحاسيس تستحضر الماضي سعياً وراء كشف الحقيقة التي تبقى غاية الإنسان.

إنها حالة من المشاعر المتداخلة تتأرجح بين الموت والحياة، الإخلاص والإنشقاق، الحب والكراهية، واليأس والأمل، وهي تلك المشاعر التي راجت في روايات القرن التاسع عشر، والتي حفلت بها صحف تلك الحقبة من الزمان.



دار الحرف القرآني

للطباعة والنشر والتوزيع

كزافييه دومونتبان

١٨٢٣ - ١٩٠٢

وُلد كزافييه في أبرمونت بهوتساون عام ١٨٢٣ ، وتوفي في باريس عام ١٩٠٢ : كاتب فرنسي ، ومؤلف روايات متسلسلة ومآسٍ شعبية ؛ نشر عام ١٨٦٢ حلقات مسلسل روائي جديد بعنوان «طبيب الفقراء» لاقت رواجاً منقطع النظير . نال شهرة واسعة كروائي شعبي إضافة إلى أنه كان مؤلف رواية كانت الأكثر مبيعاً في القرن التاسع عشر «بائعة الخبز» صدرت عام ١٨٨٩ ، واقتُبست بالتوالي في المسرح والسينما والتلفزيون .

من أهم مؤلفاته :

- La porteuse de pain بائعة الخبز
- Les chevaliers du Lansquenet فرسان لانسكونه
- Le Fiacre n° ١٣ عربة جياد الرقم ١٣
- Les filles du saltimbanque بنات المشعوذ
- les filles de plâtre فتيات الجبس
- Le médecin des pauvres طبيب الفقراء
- Brelan de dames مقمرة السيدات
- Son altesse l'amour سمو الحب
- Le prince Totor الأمير توتور
- le vitriol كبريتيك الزواج
- Sœur Suzanne الأخت سوزان
- La perle du Palais Royal جوهرة القصر الملكي

كزافييه دومونتبان



وقد برزت الرواية «المتسلسلة» مع بدايات تطوّر الصحافة في القرن التاسع عشر، وخصوصاً أنّ الغاية منها كانت المنفعة المادية لأصحاب الصحف الذين كانوا يودّون جذب جمهور كبير مخلص. سميت بهذا الاسم لأنها كانت تظهر على حلقات في ذيل الصحيفة، حيث تشكّل رواية تاريخية أو قصة عادات وتقاليد.

وقد أصبح تطوّر الكتاب الشعبي شيئاً فشيئاً بالياً ومن الماضي. وفي جملة الروايات المتسلسلة يمكننا ذكر بلزاك، وجورج صند، وبصورة خاصة أوجين سو (أسرار باريس، ١٨٤٢ - ١٨٤٣)، وألكسندر دوما (الكونت دو مونت كريستو، ١٨٤٤)، وبول فيفال (أسرار لندن)، وبونسون دو تيراي (روكاسبول)، وزيفاكو (باردليان)، وإميل غابوريو، وغاستون لورو، وموريس لوبلان، وغوستاف لوروج.

وإذا كانت الرواية التاريخية تغطّي بحصة الأسد، فإن العرق العاطفي (دللي)، والمجرم والشرطي ستتطور جميعاً حتى الثلث الأول من القرن العشرين.



- اعترافات مُشرّد Confessions d'un bohème .
 - عميل الشرطة L'agent de police .
 - وردة في المزادات Une fleur aux enchères .
 - حورية البحر La sirène .
 - عيشة الماضي Les viveurs d'autrefois .
 - منتزه الغلييات Le parc aux biches .
 - تجارة الرقيق الأبيض La traite des blanches .
 - دمي السيدة لوديبال Les pantins de Madame Le Diable .
 - الأكسة ميلي Mamzelle Mélie .
 - بدايات نجمة Les débuts d'une étoile .
 - الوصية الحمراء Le testament rouge .
 - الصغيرة الحبة Mignonne - Marâtre .
 - الأم الشرسة ابنة المجنون La fille du fou .
 - زواج لاسكار Le mariage de Lascars .
 - قراصنة نهر السين Les pirates de la Seine .
 - ساحرة الصفصاف La fée des saules .
 - الجائزة الكبرى Le gros lot .
 - المشنوق (مأساة) Le pendu (roman dramatique) .
 - ابن عائلة Un fils de famille .
 - العرافة : فوبارون البيضاء La voyante: Blanche Vaubaron .
 - اقتناص الميداليات La chasse aux médailles .
 - آخر سلالة كورتناي Le dernier des Courtenay .
- وتجدر الإشارة إلى أنّ روايته «فتيات الحبس» أثارت فضيحة أدبيّة بسببها. وقد اقتبس عديدون رواياته مسرحيات ناجحة.

شخصيات الرواية

جان فورتية : أرملة لها ولدان ، قُتل زوجها في أثناء أدائه عمله في مصنع ، عيَّنها صاحب المصنع «بوابة» لتكسب قوتها وقوت ولديها .

جول لابرو : صاحب المصنع ، توفيت زوجته وتركت له طفلاً يدعى لوسيان .

جاك جارود : مدير مصنع لابرو ، كان صديق زوج جان ، وكان يعرض الزواج على جان بعد مقتل زوجها .

لوسي : ابنة جان ، كانت أمها قد أسلمتها إلى مريض منذ طفولتها .

جورج : ابن جان ، عُرف باسم جورج داريه (نسبة إلى عائلة المرأة التي رثته صغيراً) .

بول هرمان : الاسم الذي انتحله جاك جارود ، وهو اسم عامل في المصنع كان توفي في المستشفى .

أوليفد سوليفر : ابن خالد بول هرمان المتوفى .

ماري : ابنة بول هرمان (جاك) وحفيدة نيومي مورتيير .

إيتين : رسّام ، صديق الكاهن الذي كفل جورج فورتية .

لوسيان : ابن جول لابرو .

فريمي : مريض لوسي فورتية .

أماندا : عاملة في مشغل الخياطة أوغستين .

أوغستين : صاحبة مشغل الخياطة الذي تعمل فيه لوسي .

ليزا بيرين : الاسم الذي انتحله جان فورتية بعد فرارها .

الكونت دي ريس : اسم انتحله أوليفد سوليفر

تجري أحداث الرواية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهي الفترة التي برزت فيها الروايات الشعبية التي كانت تنشر على حلقات بهدف جذب أكبر عدد من قراء الصحيفة التي كانت تلحقها في ذيل كل عدد من أعدادها . وكانت «بائعة الخبز» الرواية الأكثر رواجاً من بين الروايات المعاصرة ، بحيث عرفت طريقها بعد إقبال القراء عليها إلى المسرح والسينما والتلفزيون .

جان فورتية سيّدة لها حظ من الجمال قضى زوجها في أثناء قيامه بعمله في مصنع المهندس الميكانيكي جول لابرو ، ما اضطر جول إلى جعلها بوابة لمصنعه إكراماً لذكرى زوجها ومساعدة لها في تربية ولديها جورج ولوسي .

أوكلت جان أمر رعاية لوسي إلى مريض كانت تجري عليها مبلغاً من المال في آخر كل شهر ، فيما راحت هي تعني بالصغير جورج ابن السنين الثلاث .

أحب جاك جارود - مدير المصنع - جان حباً جارفاً ، وطلب يدها بعد وفاة زوجها ، ولكنها رفضت وفاء لعهد قطعت على نفسها . وظن جاك أنّ المال هو العائق الذي يحول دون قبولها به زوجاً ، فأضمر في نفسه أن يحصل على ثروة كبيرة تجعلها تقبل الاقتراح به . يتوصّل صاحب المصنع إلى «اختراع» جديد يمكن أن يدرّ عليه مالاً وفيراً ، وفي خطوة منه لإنجاز هذا الاختراع يطلب إلى جاك جارود مساعدته في تطويره وإخراجه .

يجد جاك في هذا الاختراع الفرصة - الأمل التي كان ينتظرها ويمثي النفس بها . ويصادف في الوقت نفسه أنّ جول صاحب المصنع يهدّد جان بالطرد لخطأ اقترفته في أثناء قيامها بحراسة باب المصنع .

استعدّ جاك لتنفيذ الخطة التي رسمها وحدّد وقتها، وبعث برسالة إلى جان يفيدها فيها أنه سيشرى قريباً وأنه يطلب إليها موافاته في مكان حدّده لها ليتزوجا ويرحلا عن فرنسا، وتقرأ جان الرسالة ثم ترمي بها أرضاً وتقرّر عدم موافاته .

بضرب جاك ضربه فيسرق مال صاحب المصنع المودع في الخزانة ، ويحرق المصنع ، ويقتل جول ويفرّ هارباً .

تتهم جان بالجرائم الثلاث ، بفعل تهديدها لصاحب المصنع الذي كان قرّر طردها ، وتسجن فيما كان الناس يظنون أن جاك قضى ضحية شهامته في إنقاذ جول صاحب المصنع .

ينقطع المال عن مريض لوسي بعد سجن جان ، فتضطر المریض إلى إيداع لوسي الملجأ ، بينما يتولى رعاية جورج الصغير كاهن البلدة وأخته التي تعطيه اسم عائلتها بعد وفاتها .

يفرّ جاك جارود من فرنسا إلى أميركا متحلاً اسم عامل قضى في المستشفى ، كان يعمل في مصنع لابرو اسمه بول هرمان ، وعلى متن السفينة التي أقلته يتعرّف إلى أوليفر سوليفر (ابن خال بول هرمان المتوفى) .

وعلى متن السفينة أيضاً يتعرّف جاك (بول هرمان المزعوم) إلى الأميركي مورتيمر وابنته . ومورتيمر ثري كبير وصاحب مصنع للصقل . وينتهي التعارف بزواج بول من ابنة مورتيمر وينعم بشراكة تجعله من أغنى الأغنياء .

وفي فرنسا تخفي جان عقوبة السجن المؤبد - تتبعها لونة جنون تُنسبها ماضيها - ويصبح ابنها جورج محامياً مشهوراً ، بينما تصبح لوسي ابنتها خياطة في مشغل تملكه السيدة أوغستين .

تتعرّف لوسي إلى لوسيان لابرو - ابن الضحية - فيتحابان ويخططان لزواج سعيد .

ويفتح جورج (داريه) مكتب محاماة له في العاصمة باريس . وتشاء المصادفة أن تعود جان إلى وعيها بعد سنين طويلة ، وتخطّط وتهرب في محاولة منها للبحث عن ولديها ، مؤمنة ببراءتها ، واثقة من أن جاك (الضحية المفترضة من قبل الشرطة) هو مقترف الجرائم الثلاث ، وكانت قبل فرارها بعيد الحادثة الفاجعة قد رأت جاك يقتل جول صاحب المصنع ، ولكن دون دليل يوثق زعمها ، وما كان الدليل إلا الرسالة التي بعث بها إليها قبل يوم من إحراق المصنع وقتل صاحبه .

مضت أحداث مؤلمة وتلتها أحداث مفاجئة : لوسيان لابرو (ابن الضحية) يقع في حب لوسي (ابنة الجانية) وكل منهما لا يعرف الحقيقة .

جورج داريه المحامي لا يعرف أن لوسي شقيقته ، وهو صاحب لوسيان خطيبها .

ويعود جاك جارود (بول هرمان) إلى فرنسا نزولاً عند رغبة ابنته المريضة ماري (بعد وفاة والدتها) . . . وينشئ مصنعاً جديداً !

لم تجد جان ولديها فتعمل بائعة خبز متحلة اسم ليذا بيرين . وتتعرّف بائعة الخبز على لوسي . . .

ويتعرّف لوسيان لابرو إلى ماري هرمان (ابنة جاك) . . . وتبدأ الحقائق تتكشف . . . ومعها تتلاحق المفاجآت . .

ماري ابنة القاتل تقع في حب لوسيان (ابن القاتل) . لوسي تحب لوسيان (ابنة القاتلة المفترضة تحب ابن القاتل) .

جان تصبح قريبة من لوسي ولا تعرف بعد أنها ابنتها .

وجورج يجتمع بجان (ليزا) دون أن يعرف أنها أمه .

وجاك (بول هرمان) يعرف أخيراً أن جان هربت من السجن .

وتتشابه الأحداث . . . ويرز أوليد سوليفر ابن خال جاك جارود

(بول هرمان) كأداة لتصفية جان ولوسي . . ١

فما هو مصير جان بعد أن قرّر جاك قتلها وقتل ابنتها لوسي . .

الأولى كي لا تشي به ، والثانية بهدف إزاحتها من طريق ابنته ماري

التي تحب لوسيان لابرو . .

ثم لماذا أوكّل بول هرمان (جاك) إدارة مصنع الحديد إلى ابن

الرجل الذي كان ضحية غدره؟

كل هذه التساؤلات وما يستتبعها من مفاجآت ومواقف أليمة

يتركها المؤلف كزافيه دو مونتبان إلى نهاية الرواية دون أن يشعر

القارئ بقرب جلاء غوامض ما يجري .

فهل يفلح أوليد سوليفر في القضاء على جان؟

هل تموت لوسي فيتاح لماري الزواج بلوسيان؟

وهل ينعم جاك (بول هرمان) بثرائه بعد القضاء على جان الشاهد

الوحيد على جرائمه؟

وتبقى الرسالة التي قيل إنَّ النار التهمتتها يوم إحراق المصنع . .

فهل تظهر كدليل على براءة جان؟

*

شخصيات الرواية كما رسمها دو مونتبان تتنازعها عواطف شتى ،

هي عواطف إنسانية تنبض بالمشاعر والأحاسيس تستحضر الماضي

سعباً وراء كشف الحقيقة التي تبقى غاية الإنسان :

فجان فورتنييه تتنازعها عاطفة الأمومة والوفاء للذكرى زوج أحبّت

والأمل في العثور على ولديها بعد سنين طويلة قضتها في البحث

عنهما . بينما تتنازع جاك جارود سلطة المال وحبّ تملك امرأة بهيم

بها ، وهو حب دفع به إلى ارتكاب جريمة ثلاثية اضطر بسببها إلى

إلصاق التهمة بالمرأة التي أحبّ . وحين تفتح الدنيا له ذراعها يتملكه

حزن الأب على ابنته الوحيدة المريضة ، والتي من أجل إسعادها

سعى إلى الخلاص من الفتاة التي تنافسها في حب الشاب الذي رأت

فيه فارس أحلامها . والواقع أن جاك هذا قضى على حياة المرأة التي

أحبها ، وحاول بالتالي قتل ابنتها حباً بابنته .

إنّها حالة من المشاعر المتداخلة تتأرجح بين الموت والحياة ،

الإخلاص والانتقام ، الحب والكراهية ، واليأس والأمل ، وهي تلك

المشاعر التي راجت في روايات القرن التاسع عشر ، والتي حفلت بها

صحف تلك الحقبة من الزمان .

القسم الأول

الحريق

- ١ -

كان ذلك في عام ١٨٦١ . وفي يوم من أيام أيلول/ سبتمبر القارسة الباردة .

وفي الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم . وفي شارع الفورت في مدينة الفورتفيل . كانت امرأة تسير وعليها ثياب الحداد السوداء . . بسيطة الهندام ولكن في بساطتها أناقة لا تخطئها العين .

وكانت تبدو جميلة . . ولكنه جمال فيه من الحنان أضعاف ما فيه من الفتنة . . جمال تتجسد فيه الوداعة أكثر مما تبرز منه الرشاقة .

وكان شعرها الذهبي يتسدل على منكبيها في جدائل طويلة غزيرة . . وقوق جبينها الوضاء انعقدت خصلاته في حلقات ملتوية فاتنة .

ولكن على رغم هذا فإنك حين تنأمل عينيها الجميلتين تقرأ فيهما آية من آيات الحزن . . وفي ثنايا وجهها تشيع سحابة من الاكتئاب . . كأن بين الحنايا همّاً دقيماً .

وكانت تمسك بيدها اليمنى آية من الزنك . . أما اليسرى فكانت آخذة بيد طفل في الثالثة من العمر .

في إثر الأم كان الطفل يسير بخطوات بطيئة متمهلة . . يجر خلفه جواداً مصنوعاً من الخشب والورق المقوى . وتعثر الجواد وانقلب على جنبه .

وهتف الطفل بالأم يستمهلها ويستوقفها .
وكانت تلك هي المرة الرابعة أو الخامسة التي استمهل الطفل فيها
أمه في خلال الدقائق القليلة الأخيرة .

وبصوت وديع تنبعت نبراته بالحنان قالت الأم :

- احمل جوادك يا عزيزي فإن الطريق أمامنا طويل شاق .

- نعم يا ماما .

وحمل الصغير حصانه الخشبي وسار إلى جوار أمه وهو يوسع
الخطى على قدر طاقته .

وأخيراً .. حين انتهى بها الطريق إلى الدور القائمة عرجت على
حانوت للبقالة .. فبرزت إلى استقبالها من إحدى الغرف الداخلية
امرأة بدينة .. هي صاحبة الحانوت .

وقالت صاحبة الحانوت :

- أهذه أنت يا سيدة فورتييه ! طاب يومك أية خدمة أسدي
إليك ؟

- أريد زيت بترول من فضلك .

وبدت أمارات الدهش في وجه المرأة البدينة وهتفت :

- زيت بترول ! مرة أخرى ؟ عجباً .. وما صنعت بما اشتريته بالأمس ؟

فأجابت السيدة فورتييه :

- قلب ابني الإناء وهو يلعب فسال ما فيه .

- آه ! ذاك إذاً هو السر .. أي قدر تريدین ؟

- أربعة لترات حتى أوفر على نفسي مشقة التردد عليك يوماً بعد

يوم .

وراحت المرأة تكيل زيت البترول . ثم ما لبثت أن قالت :

- ولكن ينبغي أن تحذري فالأمر ينطوي على خطر شديد ..
أتعلمين أن انقلاب الآتية بما فيها من بترول قد يفضي إلى اشتعال
النار في المصنع ! إن عوداً من الثقاب يُلقى في غير اكتراث كفيل
يحدث النكبة الداهمة !

- هذا صحيح .. ولقد عثقت جورج وزجرته زجراً شديداً .. وإن
كان المسكين قد أتى الأمر عن غير قصد أو تعمّد .. كان يجري
فعثرت قدمه بالإناء .. ووعدني بالألا يعود إلى مثلها أبداً .

- عساه إذاً يبرّ بما وعد .. وكيف حالك أنت ؟ أراضية عن عملك
الجديد يا سيدة فورتييه ؟

فهزّت الأم كتفيها وقالت :

- ينبغي أن يرضيني على أية حال .. فما كنت لأجد في نكبتني
هذه ما هو خير من ذلك .

- كيف ؟ أما كان في وسعك أن تربحي من الحياكة أضعاف ما
تتقاضيه الآن ؟

- هذا صحيح .. ولكن كيف أحترف حياكة الثياب وليس لدي
مال مدخر أبتاع به ما أحتاج إليه من آلات ؟ إن تربية الطفلين تستنفد
مالاً كثيراً .

- وأين صغيرتك لوسي الآن ؟ أما زالت عند الموضع ؟

- نعم .. في برجوني في جواني .

- لا ريب أنها تتقاضاك أجراً كبيراً ؟

- ثلاثون فرنكاً في الشهر .

ثم نددت عن صدرها تهدة عميقة فيها بؤس وشقاء ..
وغمغمت :

- آه .. لشدّ ما أفتقد زوجي ! لو أنه كان الآن على قيد الحياة لما أبهظتني هذه النفقات !

- صدقت يا سيدة فورتيه ! وكيف كان يمكن أن تضيره النفقات الكبيرة وهو يربح في اليوم الواحد سبعة أو ثمانية فرنكات !
فهتفت الزوجة المنكوبة بمرارة :

- وكان أميناً عطوفاً .. وشجاعاً .. وكان يحبني ! رياه ! إن تلك الآلة التي انفجرت قفلك إنما قتلت في الوقت ذاته هنائي وسعادتي .
ورفعت الزوجة المحزونة إلى وجهها يداً مرتعدة فمسحت دموعاً انحدرت من عينيها .

وقالت صاحبة الخانوت :

- لا ينبغي أن تسلمي نفسك إلى الأحزان يا ابنتي .. ففي هذه الدنيا نكبات تصغر نكبتك إلى جانبها ! ومع ذلك يجب أن تحمدي الله على أن صاحب المصنع ترقّق بك وأسبغ عليك عطفه .. إذ يقال إنّ زوجك هو الذي تسبّب بإهماله في انفجار الآلة .. فهل هذا صحيح ؟

- نعم .. صحيح وأسفاه !

- ومع ذلك فقد تولّى صاحب المصنع نفقات الدفن كلها .. ثم أقامك بوابة لمصنعه رغم علمه بأنها مهنة لا تصلح للنساء .. ولكنه أراد أن لا يتخلّى عن مساعدتك .

فغمغمت السيدة فورتيه بلهجة تنطوي على الأسى :

- هذا صحيح .. لقد كان السيد لابرو عطوفاً عليّ .. عطوفاً جداً .. إنهم يعزّون إليه القسوة والصرامة .. ولكن سلوكه حيالي ينفي عنه هذه المزاعم .. ومع ذلك فلست أستطيع أن أنسى أن

زوجي قتل في مصنعه ! إن هذا المصنع عندي نذير الشوم والنكبات . ولولا أنني مسؤولة عن القيام بأود طفلي لما قبلت هذا العمل الذي أتولاه الآن ! رياه ! ما أشق على نفسي أن أعيش في المكان الذي سَفَك فيه دم زوجي ! أية أعصاب يمكن أن تحتمل هذه الذكرى الموحجة المفجعة !

فقالت صاحبة الخانوت تسرّي عنها :

- تجلّدي يا ابنتي فما يجديك هذا الاستسلام للأحزان شيئاً ! إن من الحماقة أن نعيش للأموال ! إنك ما زلت في عتفوان الشباب .. ولك من الجمال حظ موفور .. وإن عاجلاً أو آجلاً ستلقين شاباً جميلاً يهيم بك ويسألك الزواج .. فاحذري أن تردّيه خائباً وإلا ارتكبت بذلك زلة لا تغتفر .

فهتفت المرأة :

- أتزوج ؟ محال ! محال !

وكان في نبرات صوتها عزم وإصرار .

وابتسمت صاحبة الخانوت ابتسامة المرأة المجربة وقالت :

- هذا كلام لا يلبث أن يعقّي عليه الزمن ! إن كثر الأعوام كفيل بأن يغيّر من رأي الإنسان ! ومن كانت في مثل سنك خليقة أن لا تبقى مترملة مدى العمر .

- قد تكونين على صواب فيما تقولين .. وقد يكون لمن تتزوج أسباب قوية تدفعها إليه .. أمّا أنا فلديّ من الأسباب ما يصرفني عنه ! على أنني أتمنى شيئاً واحداً هو أن أظفر بألفين أو ثلاثة آلاف من الفرنكات !

- وما تصنعين بها ؟

- ما أصنع بها؟ أوه! أشياء كثيرة لا يحيطها الحصر!

على أنها ما لبثت أن هزت كتفيها وأردفت بأسى:

- ومع ذلك فما جدوى التفكير في هذا الأمر؟ إنها أحلام ذاهبة في الهواء... قضي علي بالفقر... ولا سبيل لي إلى الثراء! وسألزم المصنع ما استطعت حتى أربي طفلي... وإذا كان لي رجاء في المستقبل فمن أجل هذين الطفلين لا من أجل نفسي!

- تزوّدي بالأمل يا ابنتي... فإنّ الأمل يفيض على المرء صبراً وشجاعة! هاك بترولك! وإذا أخذت بنصحي أودعته خزانة بمجرد وصولك وأغلقتها بالمفتاح.

- اطعمني يا أماء... سأأخذ الحيلة الواجبة... فليس ثمة من هي أشد مني توجساً من النار.

وانصرفت الأم وطفلها يثب إلى جانبها وقد تأبط جواده الخشبي. وتابعتها صاحبة الحانوت ببصرها برهة ثم غمغمت تخاطب نفسها:

- يا لها من امرأة نبيلة وشجاعة! ولا ريب عندي في أنها تفتقد زوجها كثيراً فإنها فيما أرى امرأة طموح جمة المطامع! لبث شعري لأية غاية تمنى أن تنال هذه الثلاثة آلاف فرنك التي تحلم بها؟

ثم تحوكت إلى مساعدتها مازيت... وراحتا تقطعان الوقت بالتحدث في هذا الشأن.

كانت جان فورتيه قبل زواجها خياطة بارعة تكسب من إيرتها مالا غير قليل.

وإذ بلغت الثانية والعشرين اقترنت برجل يدعى بيير فورتيه كان يعمل ميكانيكياً في مصنع السيد جول لابرو.

واتفق يوماً أن ارتكب بيير غلطة فنية كان من عواقبها أن انفجرت إحدى الآلات فقتله لساعته.

ورثي صاحب العمل للأرملة المسكينة.

كان يعلم أن لها طفلين تمولهما... وأن لا مال لديها تنفق منه عليهما... فأقامها بوابة لمصنعه برآ بها وتعويضاً لها عن مصرع زوجها.

وكانت جان ضجرة بهذا العمل... لا يفتأ خيال زوجها يتراءى لعينها!

في هذا المصنع سالت دماؤه...! فاية أعصاب يمكن أن تحمل هذه الذكرى؟

ولكنها ارتضت هذا العمل وراضت نفسها على الصبر... رحمة بولديها!

إنها لا تفكر إلا فيهما... ولا يطوف بصدرها رجاء إلا كانا مبعثه ومثاره... وحين تمت الثلاثة آلاف فرنك إنما تمتتها لكي تنشئ داراً لحياكة الثياب تضاعف منها دخلها... لأجل طفليها!

وفجأة... فيما هي تسير نهياً لهذه الخواطر سمعت صوتاً يناديه. امتقع وجهها... ولكنها تابعت سيرها دون أن تدبر رأسها إلى صاحب هذا الصوت.

بل لقد اشتدت في السير وجدت مسرعة.

وعاد الصوت ينادي:

- سيدة فورتيه! أما سمعتني! إني ماض مثلك إلى المصنع فدعيني أحمل عنك هذا الإثاء.

ولكنها تظاهرت بأنها لم تسمع شيئاً.

والثفت العفل وراه وهنف :

- أماء .. إنه صديقي جارود الذي أعطاني هذا الجواد .

وما كان لها مناص من التريث .

ولحق بهما جارود .

مال إلى الطفل فقبله ثم تحوّل إلى الأم يقول :

- لو رأيك أحد تجدين في السير يا سيدة فورتية حين ناديتك لوقع

في روعه أنك خائفة مني ! إنك ما كدت تسمعينني أناديك حتى

أسرعت في السير .. فليت شعري هل أسأت إليك ؟

فقلت تحييه بشيء من الارتباك :

- إني ما أسرعت إلا لأبلغ المصنع عاجلاً .. وما سمعتك

تنادينني .

ولكن إنكارها لم يخدعه .

وعاد يقول :

أصحيح يا جان فورتية أنك لم تسمعينني حين ناديتك ؟

- طبعاً .. ما دمت أقول لك هذا !

فسكت هنيهة ثم عاد يقول :

- ليس خافياً عليّ يا جان أنك تتحاشين لقائي ! إنك تعلمين أن لا

شيء يسعدني كما يسعدني أن أتبادل الحديث معك !

فقلت المرأة بحزم :

- سيد جاك ! أرجوك أن لا تعاود طرق هذا الحديث مرة

أخرى .. إنه حديث يبعث في نفسي ألماً !

- وأنا يا جان ! أحسبتي سعيداً هائلاً ! ألا تعلمين أنني أتعذب

وأنا لم أضعاف ما تتعذرين أنت وتتألّمين ! جفاؤك وصدك لي

وأعراضك عني .. كل هذا يهيج في قلبي ألماً لا يطاق ! إني أحبك يا
جان .. بكل جوارحي ! إن قلبي لا ينبض إلا بحبك ! وأنت تعرفين
هذا !

فقاطعت الأرملة بقولها :

- أرايت إذاً أنني كنت على حق حين أسرعت الخطى حتى لا

أنصت إلى هذا الحديث !

- وكيف يسعني أن أسكت فؤادي وأخمد صوت الحب ! إني لا

أفكر إلا فيك ! وأسعد ساعة في حياتي تلك التي أكون فيها إلى

جوارك .. أنظر وأصغي إليك بلا انقطاع !

- وأنا أيضاً بلا انقطاع لا أفترأ أقول لك إن هذا الغرام حماقة

وسخافة .

- حماقة ! ولم ؟

- لأنني لن أستطيع أن أحبك !

- أنظنين هذا ؟

- إنه ليس مجرد ظن ! إني موقنة بما أقول !

- أما أنا فبإني موقن من التقيض ! ثمة أشياء مستحيلة في هذه

الحياة لا يمكن أن تقع ! إنك في عتوان الشباب .. ولك جمال يدير

جميع الرؤوس .. فكيف تقضين بقية أيامك في الترميل .. منقطعة

عن الناس موصدة بابك في وجه الحياة ؟ وكيف يمكن أن تطيب لك

هذه الوحدة . هيه ؟ أجيبني !

- أرجو أن تكف عن هذا الحديث يا سيد جارود !

- ولم أكف عنه ؟

- ينبغي أن تتذكّر أنه لم تمض شهور خمسة على وفاة يبيير ..

وأنت كان صديقك !

- ومحال أن أنساه! ولكن المحسبين أن حبي لك يدنس
ذكراه! وكيف يكون هذا وما كاشفتك بحبي إلا بعد أن أصبحت
حرة طليقة؟ أليكون تدينساً لذكراه أن أقول لك: «يا جان.. إن
ولدي بيير سيكونان ولدي..»؟ أليكون تدينساً لذكراه أن أقول لك:
«جان.. إنني سأكفل لك ولولديه العيش الرغيد..؟» إن دخلي
في العام أكثر من خمسة آلاف فرنك.. وأنت امرأة مدبرة
مقتصدة.. وفي رأسي مشاريع كثيرة! مشاريع رائعة! وفي
وسعنا أنا وأنت أن نصبح من الأغنياء! وما يدريك أنني قد أصبح
يوماً ما صاحب مصنع ونحت إمرتي مئات العمال! إذ ذاك تصبحين
زوجة سعيدة.. وأماً سعيدة! وإلى جانبك طفلان سعيدان..
والأمر بعد متوقف عليك! إنني أحبك حتى الجنون فلا تنبذيني! إن
الحب جبار لا يتراجع... فلا تدفعيني بإعراضك عني إلى ارتكاب
الحماقات.

وأمسكت جان فجأة عن السير وراحت تنظر إليه.. ثم قالت
بصوت أسبق عليه الانفعال تهدجاً ملحوظاً:

- أصغ إلي يا جارود.. تلك هي المرة الرابعة أو الخامسة التي
حدثتني فيها عن حبك.. وإنني لأعلم أنك مخلص أمين..

فقاطعها جاك بحماسة:

- أقسم أنني أحبك بمجامع قلبي.

- دعني أتم حديثي.. إنني مقدرة إخلاصك لي.. ومع ذلك فلا
أستطيع الآن إلا أن ألقى إليك الجواب نفسه الذي ألقبته عليك في
المرة الأولى وهو: لقد عزمت على أن أظل أرملة!.. وليس في نيتي
أن أتزوج مرة أخرى!

وأحسن جاك جارود عند سماعه هذه الكلمات أن قلبه يوشك أن
يتحطم بين جنبيه.

واسترسلت السيدة فورتيه تقول:

- لقد أحببت بيير حباً عظيماً طغى على قلبي وحواسي.. فلا
يسعني أن أحب سواه..! كان قلبي له وحده.. وبموته مات الحب
في قلبي..

وبدت في ثنايا وجهه أمارات اليأس.. وانحدرت من عينيه
عبرتان.. وبصوت مخنق قال:

- آه.. إنك قاسية يا جان فورتيه! ليس في فؤادك ذرة من
الرحمة! لقد عذبتني عذاباً شديداً..

ورأته جان يبكي.. وما كانت تجهل أن دمة تنحدر من عيني
رجل ليست بالشيء النافه الضئيل.

وبصوت رقيق عطوف قالت:

- إنني أعلم أنك تتألم! وثق أنني أتألم لأجلك! ولكن هل يسعني
أن أكتفم الحقيقة دونك! هل يسعني أن أخدعك وأموه عليك؟ إن
ضميري يحتم علي أن أحدث إليك بصراحة.. فلا تفكر في بعد
الآن!

فصاح في فئوت:

- لا أفكر فيك! رباه! وهل هذا ممكن!..

- انس حبي.. انزعه من فؤادك.. وستجد من هي أكثر مني
جمالاً وأعظم مالأ!..

فهتف يائساً:

- أنقضين إذاً على كل أمل لي في المستقبل?

- هذا لا بدّ منه .

فأمسك يدها بعنف وقال :

- جان ! إني اليوم رجل فقير .. وأنا أعلم أن فقري هو الذي يستوجب ازدراؤك لي .. ولكن هبيني أصبحت غنيّاً .. فهل ترضين بي زوجاً لك؟

وراعها ما بدا من اضطرابه وعنفه فقالت :

- كفى ! لا تخاطبني بهذه اللهجة .. إنك تبعث الخوف في قلبي !

فصاح :

- سأصبح ثرياً .. وسأضع ثروتني عند قدميك وأقدم طفلك ..
فهل تقبلين؟

- كفى ! اصمت .. !

- كلا .. لن أصمت ! ينبغي أن تنصني إلى حديثي كله ! إن غرامي بك ليس حديث العهد ! إني أحبك منذ خمسة أعوام .. وقد طغى هذا الحب على قلبي وعقلي حتى كاد يفقدني الصواب .. ولكنني صبرت .. وتجلدت .. وكثمت ما يدور في صدري ! لأن زوجك كان صديقي ! ..

أما الآن .. وقد مات زوجك .. وانزاحت العقبات القائمة بيني وبينك من الطريق .. فلم يعد ثمة ما يحول دوني والتقدم إليك بحبي ! جان ! إني أحبك .. ولا بد أن أتخذك زوجة لي ! هكذا سطر القدر في لوحه الخالدة .. ومحال أن نعارض كلمة الأقدار .

وطغى عليه الانفعال فمال إلى يدها وأدنى منها شفّيته الملتهبين وقبلها قبلّة من نار .

وفي هذه اللحظة دنا الصغير من أمه وقال وهو يتعلّق بثوبها :

- ماما .. هيا بنا ! لم نقف ههنا وسط الطريق ؟ !

وتابع الثلاثة طريقهم من جديد .

وقال جارود يخاطب الأرملة :

- دعيني أحمل عنك هذه الأكية .

- شكراً .. فإنها خفيفة ليس فيها إلا أربعة لترات من زيت

البترول .

فبدت أمارات الدهش على وجهه وقال :

- أنضيتين غرفتك بزيت البترول ؟ ..

- نعم .. فهو رخيص الثمن .

- ولكن ألا تعلمين أنه شديد الخطر .. وأن السيد لابرو حرم إدخاله إلى نطاق المعمل ! لو أنه علم بأمرك لتولاه الغضب !

فقالت جان في وداعة :

- ما كنت أعلم ذلك من قبل .. ولن أستعمله بعد اليوم .

- حسبك أن تستعملي الشموع أو القناديل .

- سأفعل ذلك من الغد .

وحين بلغوا المصنع سار جارود برفقتها حتى باب غرفتها .. ثم لمهل هتية هناك وقال :

- أناذنين لي بكلمة ؟ ..

- بكل تأكيد .

- لا توصدي في وجهي باب الأمل .. اضربي لي موعداً مهما يكن بعيداً .. !

- لا أستطيع يا جارود .. !

فاشتدّ به الغضب فجأة .. وضرب الأرض بقدمه وقال :

- ماذا ! أتأين عليّ حتى حق الرجاء البعيد !
 فراغها ما بدا من انقلاب سحتته وهمت بالانفلات إلى غرفتها ..
 ولكنه اعترض طريقها .. وقال بصوت صارم :
 - جان ! إياك أن تهيجي ياسي ! خير لك أن أظل لك صديقاً ..
 فقالت لكي تحمله على الانصراف :
 - حسناً ! سرى فيما بعد !
 - حقاً ! ..
 - بلا ريب .
 فانفجرت أسارير جارود وهتف :
 - شكراً لك ! كاد صدك يقتلني ! ..
 ودخلت جان إلى غرفتها فأودعت زيت البشور رقاً من رفوف
 الخزانة وهي تقول :
 - هذا رف مرتفع لا تصل إليه يد جورج .
 ووسط إليها جارود يده يصافحها قلماً رآها مترددة قال :
 - ماذا .. أناقمة أنت عليّ ؟ ..
 - كلاً ولكن ..
 - تكلمي ! قللي ما بدا لك .. ولكن اعلمي قبل كل شيء أنني
 أحبك وأنتي لا أعيش الآن إلا بهذا الأمل ! وفي يوم من الأيام
 سأحضر إليك وألقي بشروتي عند قدميك .. وأقول لك هأنذا قد
 أصبحت من الأغنياء فهل ترضين بي زوجاً !
 فقالت وفي صوتها اضطراب ملموس :
 - نعم .. إذ ذاك أرتضيك زوجاً ! من أجل طفلي ! من أجلهما .
 فهتف :

- ولست أطمع فيما هو أكثر من هذا ! هاتي يدك .
 وبسطت إليه يدها ..
 وضغط عليها بحرارة .. وكانت ضغطته عهداً مقطوعاً .

- ٢ -

كان جاك جارود من أبرع العمال الميكانيكيين الذين يعملون في
 مصنع السيد لابرو .. فبسط عليه هذا الأخير رعايته .. وراح يرقيه
 ويرفع من أجره حتى أصبح مراقباً للعمال .
 وكان السيد لابرو لا ينفك يسأله الرأي كلما عرضت له عقبة أو
 كلما أشكل عليه اختراع من الاختراعات .
 وكان جارود معتزاً بنفسه .. يؤمن بذكائه .. ولا يفتأ يمتني النفس
 بأن يصبح يوماً من كبار المخترعين .. فإذا ما جُنَّ الليل وفرغ من
 عمله راح يطالع أحدث الكتب الميكانيكية استزادة لمعلوماته
 واستنهاضاً لطاقاته .
 وما كان يتمنى إلا أن يوفق إلى اختراع يدرّ عليه مالاً وفيراً ..
 وحين ذكرت له جان أنها ترتضيه زوجاً حين يصبح من أهل
 الثراء .. اشتد افتتانه بالثروة .. وراح يفكر كيف السبيل إليها ؟ !
 كانت هذه الخواطر تدور في رأسه وهو داخل المصنع .
 واقترب من كهل بين العمال وقال له :
 - فانسان .. لقد قابلت ابنك الآن ..
 فقال الكهل مقاطعاً بنبرة تدل على القلق :
 - وماذا قال لك عن زوجتي .. ترى هل اشتدت العلة عليها ؟
 - كلاً . ولكنه يرجوك أن ترجع إلى الدار عقب انصرافك

مباشرة .

- ألم يزد على هذا القول شيئاً؟

- كلا .

فهز الكهل رأسه وقال :

- وما حاجته إلى الإسهاب ! إنه ما كان ليستوقفك في الطريق ويسألك أن توصيني بالإسراع بالعودة إلا لعلمه بأن الداء قد اشتد على أمه ! سيد جارود .. أأأذن لي بأن أمضي إلى البيت على أن أعود بعد نصف ساعة؟ !

فهز جارود رأسه وقال :

- آسف يا فانسان ! أنت تعلم أن انصراف العمال في أثناء العمل محظور .

- ولكن الظرف محتم وخطير .. وأحسب أن السيد لا يرو لن .. فقاطعه جارود بقوله :

- إن السيد لا يرو غائب الآن عن المصنع .. ولا يسعك أن تنصرف إلا بعد استئذانه .

وسكت العامل الكهل على مضض .

وما كاد جارود ينصرف حتى اشتدت هواجس المسكين .. وألحّت عليه الوسواس وراح يتصور أمراته وقد اشتدت علته وأدركها الاحتضار فلم يطق على الأمر صبراً .

غادر مكانه ومشى إلى الباب فألقى جان جالسة عنده .. فسألها أن تأذن له بالمرور فقالت :

- أأأذن لك ؟

- كلا .. فإن المدير غائب .

وقصّ عليها ما كان من مقابلة ابنه للسيد جارود وقال مسترسلاً :

- ولا شك أن وطأة الداء قد اشتدت عليها ولا يسعني أن أنصرف

إلى عملي إلا إذا اطمانت عليها .

فقالت جان وقد أدركتها الشفقة عليه :

- وكيف يسعني أن أفتح لك الباب وليس لديك تصريح خاص

بالخروج؟

- وامرأتي التي نعاني سكرات الموت ! أتحسين آتي أبالي بالنظم

الموضوعة؟ !

- ولكن ما يكون من أمري حين يعلم المدير أنني أذنت لك

بالخروج دون تصريح منه؟

- ولكنه غائب ولن يعلم أنني خرجت !

- إذا استأذن المراقب .

- لقد أبى أن يأذن لي .

- إذا ينبغي أن تترث حتى يعود المدير .

ولكنه أبى أن يترث ..

راح يتوسل إلى جان وحدثها عن زوجته المريضة وكيف أنها في

دور الاحتضار . وما زال بها حتى أثار عطفها ففتحت الباب

وسمحت له بالخروج وهي تعلم أنها سوف تستهدف لغضب

صاحب المصنع .

بعد فترة وجيزة مر جارود بالمكان الذي كان فانسان يعمل فيه

فلم يجده .. فلما سأل عنه قيل له إنه خرج .

استشاط جارود غضباً ومضى إلى جان مسرعاً يسألها حقيقة

الأمر .. فأتبته بما فعلت .. وقالت :

- لا أدري .. فإني لم أجده في مكانه فبحثت أستفسر عن الأمر من السيدة فورتية .

فتحرك السيد لايرو إلى جان فورتية ينتظر منها جواباً فقالت :
- نعم .. لقد خرج .

- إذا فأنت التي فتحت له الباب؟
فأخفت رأسها إيجاباً .

فقال بصوت تنم نبراته عن الصرامة :

- وما الذي دفعك إلى مخالفة التعليمات؟ وأي عذر ساق فانسان إليك؟

- أراد أن يطعمش على امرأته إذ اشتدت بها العلة .

- ولم أبي أن ينتظر حتى أعود فيستأذني؟ إني أعطف على فانسان ولكنني في الوقت ذاته لا أحب أن يكون قدوة سيئة لزملائه .. إذا ما عاد فانسان فلا تفتحي له الباب إذ ينبغي أن يطرد .. لا أنكر أنه من خيرة العمال ولكن لا بد لي أن أجعله عبرة لسواه .

ثم سار إلى مكتبه يتبعه جاك جارود .

- ٣ -

كان جول لايرو صاحب المصنع في الخامسة والأربعين من العمر ، تزوج وهو في الثانية والثلاثين بامرأة موفورة الثراء فكان له من أموالها ما استعان به على إنشاء مصنعه .

ثم ماتت امرأته وخلفت له طفلاً يدعى لوسيان .. فأرسله أبوه إلى أخته في الريف لتتولى تربيته وانصرف هو إلى إدارة مصنعه وتربيته .

- 33 -

- وقد وعد بأن يعود على عجل .

فقال جارود :

- لقد ارتكبت غلطة ما كان ينبغي أن تتورطي فيها .. إن المدير لن يغفر لك هذه الهفوة . أما أنا فلا يسعني إلا أن أطرد فانسان عقاباً له .

- كيف .. أنطرده وهو ما انفاد إلا لقلبه الرحيم؟ إنه سيعود عاجلاً فلا يعلم بالأمر أحد سواك . أرجوك أن تصفح عنه .

فترت جاك جارود هنيهة ثم قال :

- حسناً ! سأصفح عنه إكراماً لك على أن لا تعودني إلى ارتكاب مثل هذه الهفوة مرة أخرى وأرجو أن يعجل بالعودة قبل قدوم المدير .

وفي تلك اللحظة قُرع الباب .

فالت جان :

- ها هو فانسان قد رجع فاطمن !

وإذ فتحت الباب ارتسمت أمارات القلق في وجهها .

لم يكن القادم فانسان وإنما السيد لايرو صاحب المصنع .

سار لايرو نحو جارود وقال له :

- آتت الذي أذنت لفانسان بالانصراف؟

لاذ جارود بالصمت لا يجيب .. واضطربت جان .

وبان الغضب في وجه المدير وعاد يكرر سؤاله .

وقال جارود في صوت المتردد :

- كلا ..

- إذا فقد انصرف فانسان دون استئذان !

- 32 -

دخل لايبرو إلى مكتبه يتبعه جارود . ثم تحوّل إليه وقال :
 - لا ريب أنني أخطأت بتعيين السيدة فورتييه بوابة للمصنع .
 وينبغي أن أقيم رجلاً مكانها .
 فاشتدت حيرة جارود ولم يدر ما ينبغي أن يقول وغمغم :
 - إنها امرأة أمينة يا سيدي .
 - ولكنها ضعيفة الإرادة لا تصلح لأداء هذه المهمة .
 وقرع الباب ودخل المحاسب يحمل رزمة كبيرة من المال وكمية من
 الجنيهات الذهبية ووضعها على مكتب رئيسه وقال :
 - جئت بالدخل يا سيدي كي تتولى إيداعه المصرف .
 وحين انصرف المحاسب وخلا لايبرو بجارود قال له :
 - إني منعمك في هذه الأيام في اختراع آلة للصقل ، فإذا تحقق
 رجائي أصبت من ورائها مالا جسيماً ، على أن بعض العقبات قامت
 في طريقي وأريد أن أعهد إليك بتذليلها على أن يكون لك خمس
 الأرباح .
 واستطار جارود فرحاً بهذا العرض وقال :
 - إني رهن إشارتك يا سيدي فحدثني بما أشكل عليك .
 وراح السيد لايبرو يفضي إلى مراقب المصنع بتفاصيل الاختراع
 الذي وفق إليه ، ولما فرغ من حديثه قال :
 - والآن ما رأيك في هذا؟
 - لا ريب عندي في النجاح .
 - سأعهد إليك إذا بالأوراق على أن تحبس نفسك في مكنتي
 هذا . فإني لا أحب أن يقف أحد من العمال على سر هذا الاختراع
 أو أن يرى النموذج خشية أن يمضي بسرنا إلى غيرنا من المتنافسين .

- حسناً يا سيدي . . . وسأشرع في العمل من صباح الغد .
 - امض الآن إلى المصنع وابعث إليّ بجان .
 حين علمت جان أن السيد لايبرو يدعوها إلى مكتبه ملأت قلبها
 الهواجس وراحت تقول لجارود :
 - أتدري لم يدعوني إليه؟
 - نعم . . . أظنه سيعتقك على ما فعلت . . . فلا تعارضيه بكلمة
 ودعيه يقول ما يشاء ! فإنه كريم القلب وإن كان حاد الطبع .
 ومضت جان إلى مكتب المدير على حين لاذ جارود بغرفته .
 كان بادي الاضطراب لا يفتأ يروح ويحيى وهو يقول لنفسه :
 - صدق لايبرو . إنه اختراع جليل الفائدة مضمون الزواج . . . وما
 أشك في أن صاحبه خليق بأن يصبح من كبار الأغنياء ! آه . . . هذا
 هو سبيل الثراء الذي كنت أنشده . ولكن هبني ظفرت بهذا الاختراع
 فمن أين المال الذي أنشئ به المصنع وأستجلب الآلات؟
 وراح يدور في الغرفة كالفهد المأسور . ثم قال :
 - وعدني بأن يمنحني خمس الأرباح فأية حماقة تحملني على أن
 ألتزم بالخمس وفي وسعي أن أنال الربح كله لنفسني؟
 وانفجرت أساريه هنية وقال :
 - وإذا ما أصبحت ثرياً فهل تردني جان خائباً حين أسألهما الزواج؟
 محال !
 إن السيد لايبرو ناظم عليها الآن . . . ولشد ما أتمنى أن يطردها . .
 لأنها إن أصبحت بلا عمل لم يكن لها مناص من الالتجاء إليّ
 لأعولها وأعول طفلها .
 وارتسمت على شفثيه ابتسامة كان فيها من الشر ما أحالها إلى

ابتسامة أشبه بتكشيرة وحش ضار مكشّر عن أنبابه !

طرقت جان باب المكتب وتقدمت إلى السيد لابرو قائلة :

- أدعوتني يا سيدي؟

- نعم . . فقد علمت أنك عهدت بالباب بعد ظهر اليوم إلى أحد العمال . فلمَ فعلت هذا وأنت تعلمين أن في ذلك مخالفة للتعليمات؟

- لقد مضيت يا سيدي لأبتاع بعض الحاجات الضرورية .

- أما كان في وسعك التريث حتى ينصرف العمال .

ودون أن ينتظر منها جواباً أردف يقول :

- هذا إلى أن تصرفك حيال فائسان لم يكن صائباً . وقد دلّني على أنك لا تصلحين لهذا العمل .

فاغرورت عيناها بالعبيرات وقالت :

- ولكنني لم أسألك يا سيدي أن تقيمني بوابة للمصنع . . أنت الذي عهدت إليّ بهذا العمل من تلقاء نفسك تعويضاً لي عن مصرع زوجي الذي قضى وهو قائم في خدمتك . . فإذا كنت ترى يا سيدي أنني لا أصلح لهذا العمل فلست أرى ما بدعوك إلى الإنحاء عليّ باللائمة دون سبب !

فقطّب السيد لابرو جبينه وقال :

- كيف؟ أنتكرين إذاً أنك خالفت التعليمات المقررة؟

- لا أنكر أنني تخليت عن حراسة الباب ساعة أو أقل . . ولكنني عهدت بالأمر إلى أحد العمال فتولاه مكاني .

- ولكنني انتدبتك أنت لحراسة الباب . . ولو أنني أردت لكان في وسعي أن أنتدب هذا العامل الذي أنبتته مكانك . . ومع ذلك فتلك

هفوة قد تغشفر . . ولكن ما تقولين في هفوتك الأخرى؟ أعني سماحك لفائسان بمغادرة المصنع دون إذن مني؟

- لا أنكر يا سيدي أنني أخطأت في هذا . ولكن ما كان يسعني أن أردّه خائباً وأنا أعلم أن امرأته طريحة الفراش تعاني سكرات الموت !

وساد الصمت هنيئة . . ثم رفع السيد لابرو رأسه وقال :

- يؤسفني أن أراني مكرهاً على فصلك من عملك فبأنك فيما أرى تحبين الجدل والنقاش ولست أحب من عمالي إلا الطاعة والإذعان .

وفي هذه اللحظة دخل المحاسب وقدم إلى رئيسه بعض الكشوفات وقال معقّباً :

- أرجوك يا سيدي أن تأمرها بأن لا تدخل زيت البترول إلى المصنع .

وما سمع السيد لابرو هذه الكلمات حتى قفز واقفاً وصاح :

- زيت بترول ! أفني مصنعي بترول؟

- نعم يا سيدي . . فإنها تضيء غرفها بزيت البترول .

فاستشاط لابرو غضباً وصاح :

- كيف هذا ! أتجهلين أن إدخال البترول إلى هذا المصنع محرم محظور؟

فقالت جان :

- كنت أجهل ذلك يا سيدي .

- كنت تجهلين؟ لا أستطيع أن أصدقك !

- وما الذي يدعوني إلى الكذب يا سيدي ولا فائدة منه تعود

علي؟ إنك فصلتني من العمل منذ لحظات فالإنكار لن يجدني
نقماً!

فصاح السيد لابرو وهو يحاول أن يكظم غيظه :
- قد أغفر لك الهفوتين اللتين ارتكبتيهما . . أما أن أتجاوز عن
إدخالك البترول إلى مصنعي فمحال . ابحتي لك عن عمل آخر . .
ففي نهاية هذا الشهر تغادرين مصنعي .
فبدا اليأس في وجهها وقالت :

- أنطردني بعد أن مات زوجي في خدمتك؟ وما يكون من أمري
بعد أن توصلت أبواب الرزق في وجهي؟! وما يكون مصير ولدي؟!
ثم تهدج صوتها وأردفت :

- احذر يا سيدي . . فإن طردي لن يجلب لك خيراً .
فألقي إليها السيد لابرو نظرة فاحصة وقال :

- ماذا تعنين بهذا القول؟
صاح المحاسب :
- أنهدين وتتوعدين؟
فقالت جان :

- لا أهدد ولا أتوعد . . إنني أحتمل نكبتني بجلد وشجاعة . . لقد
ارتكبت هفوة فلاكن إذاً على استعداد لتحمل تبعه ما فعلت . . إنني
لن أنتظر يا سيدي حتى ينتهي هذا الشهر وإنما سألبث لديك أسبوعاً
واحداً أعزل العمل بعده . . فلك أن تختار سواي .

وأدركت الشفقة السيد لابرو وقال بصوت عطوف :
- لا تحسبي يا ابنتي أنني أطردك طرداً . . كل ما في الأمر أنني
أدركت الآن أن حراسة الباب ليست بالعمل الذي يوكل إلى النساء .
فقالت بانفعال :

- كان ينبغي يا سيدي أن تدرك هذا قبل أن تكل هذا العمل
إلي .

- هذا صحيح . . ولكن غلبت علي الرغبة في مساعدتك وفتح
أبواب الرزق أمامك فعهدت إليك بهذا العمل . . ومع ذلك فسوف
أعيني لك عملاً آخر .

فأجهشت جان بالبكاء وقالت :
- بل سأغادر بعد أسبوع واحد يا سيدي . . فإني ما كابدت في
هذا المصنع غير البؤس والشقاء وما تحولت فيه خطوة إلا تراءى لي
شبح زوجي غارقاً في الدماء!

ورفعت يديها إلى وجهها في أسى . . ثم دارت على عقبها
وغادرت القاعة تمشي مشية اليأس والقنوط .
تابعها صاحب المصنع ببصره ثم غمغم يقول :

- يا لها من بائسة مسكينة! إنني أعلم أنها ما أذنت للأنسان
بالخروج إلا رحمة به .
فأنبرى المحاسب يقول :

- إنك يا سيدي كريم رحيم القلب .
- الواقع أنني مدين لهذه المرأة . . لقد قتل زوجها وهو قائم في
خدمتي . . فمن حقها علي أن أرحاها وأن أمد لها يد المعونة . .
وسأجد لها عملاً عند أختي .

- ولكن ينبغي يا سيدي أن تحذر هذه المرأة فقد هددتك .
- أنظرن ذلك؟

- هذا لا ريب فيه . . فقد كانت تحب زوجها حباً شديداً . . وما
من شك في أنها تعتقد أنك مشلول عن مصرعه . . فلا عجب أن

تنقلب ناقمة عليك .

فهز السيد لابرو رأسه وقال :

- إنك شديد الوطأة على هذه المرأة . . ولكن ينبغي أن لا تنسى أنها امرأة منكودة . . مات زوجها . . ولديها طفلان تعولهما . . ومهما يكن فلا مفر من أن أزودها بقدر من المال إذا تعذر علي أن أقبمها في خدمة أختي .

ثم ما لبث أن أردف يقول :

- أجنثني بحساب الصندوق؟

- نعم يا سيدي .

ودفع إليه كشفاً وهو يقول :

- في الصندوق الآن ٧١٢٣ فرنكاً وثلاثون ستيماً . . وسأتيك الآن بهذا المبلغ .

- ولم لا تبقيه لديك؟

- إني لا أنام في المصنع يا سيدي وأخشى تبعة السرقة .

- حسناً . . هاته إذا .

وفي خلال ذلك كانت جان لائذة بغرفتها تبكي بكاء مرّاً بعد أن رأت أبواب الرزق تسد في وجهها .

وجاءها جارود يسألها عما حدث بينها وبين المدير . . فلما أنبأته بالأمر قال :

- هذا ما كنت أتوقع ! لا ريب أنك أثرت غضبه بالجدل والتقاش .
فقال بانبفعال :

- ولكنه طردني من خدمته طرداً !

- إنه ما كان ليفعل ذلك لولا أن أثرت غضبه .

- وكيف كنت تريد مني أن ألوذ بالصمت وهو يوجه إليّ أفسى

الكلمات ويحاسبني على هفوة لا تستحق كل هذا الغضب؟

- والآن ما الذي تتوهم أن تصنعي؟

- لا أدري . . ولكن ينبغي على أية حال أن ألتصم عملاً أعول به ولدي وابنتي .

فلما رأى اليأس بادياً في وجهها قال :

- دعك من القنوط يا جان . . فقد يراجع المدير نفسه في الأمر ويستبقيك .

لهزت رأسها بإصرار وقالت :

- ولكني لن أبقي . . إني راحلة !

- حقاً !

- نعم . . فعلى هذا عوكت .

فقال بلهجة تنطوي على الأسى :

- وما يكون من أمري حين ترحلين؟

- إنك لا تلبث أن تنساني .

فهتف بحرارة :

- جان . . ألا تعلمين أن من المحال أن أعيش بعيداً عنك لحظة واحدة؟ كلا . . سأحدث في شأنك إلى المدير وأراجعه في أمرك .

- لا تفعل ذلك بالله عليك !

- إنك تعلمين أنني أحبك حباً مخلصاً . . فلم لا تبادليني هذا الحب فتعيش سعيدين؟

فقطبت جبينها وقالت وقد بدا الازدراء في ثنايا وجهها :

- ماذا؟ أتسألني أن أكون خليعة لك؟ هذه إهانة لي يا سيد

جارود !

فقال معذراً :

- ما قصدت إلى إهانتك يا جان .. كل ما في الأمر أنني أعرض عليك أن تعبثني في كنفني وأن أتخذ من ولديك ابنين لي حتى إذا انقضت شهور الحداد اتخذتك زوجة لي .

ثم ما لبث صوته أن نهّدج وقال معقّباً :

- جان .. اعلمي أنني مجنون بحبك وهأنذا أعرض عليك حمايتي ومعاونتي لك ولولديك .. إني أحبهما كأنهما ولداي ! فإذا نبذتني وأعرضت عني فقد أسأت إلى هذين الطفلين قبل أن تسيئي إلي !
هَبَا حَبْرِي . كيف يتاح لك في المستقبل أن تنفقي عليهما وتلحقيهما بالمدارس ؟ وهل تطيقين أن تريهما جائعين مشرّدين ؟

وامتنع وجه جان وقالت :

- إنك تسرف في الوصف لكي تهد عزمي إذا ما صورت لي المستقبل على هذه الصورة البشعة !
- إني لا أسرف ولا أبالغ وإنما أكشف لك الحجب عن المستقبل الذي ينتظر ولديك !

فهتفت :

- ربّاه ! إنه لا يرحمني ! إنه لا يريد أن يصمت !

فصاح جارود :

- نعم .. لا أريد أن أصمت .. إني أرى الهوة فاعرة قاها تحت قدميك .. فكيف أدعك تسيرين إليها وأنت مغمضة العينين ؟ ها أنا منصرف عنك .. ولكن اعلمي أن مستقبل طفليك رهين بكلمة تصدر من بين شفّتيك .

وأولاهما ظهره وانصرف .. فتهالكت على أحد المقاعد متخاذلة في إعياء .

وراحت تقول لنفسها :

- نعم .. إنه لم يبالغ ولم يسرف ! لقد صدق فيما قال .. فأنا لن أستطيع أن أعول طفلي مهما التمسّت من أبواب الرزق ! ربّاه ! أقضي على هذين الطفلين المسكينين بالفاقة والفقر ؟ !

ولكن كيف أتزوج هذا الرجل وقد أقسمت لزوجي وهو على سرير الموت أن لا أتزوج سواه ! كيف أحث بهذا العهد المقدس ! ربّاه . إنه لنكون ندالة مني لو أنني تزوجته ! كلا .. لن أراجع مهما حدث !

- ٤ -

في صباح اليوم التالي انزوى جارود بمكتب السيد لابرو وانكب على أوراق الاختراع الذي وفق إليه رئيسه وراح يدرسه ويحاول أن يتمّه .. وأمضى سحابة نهاره وهو منهمك في العمل .

ولمّا أقبل المساء غادر المصنع وانطلق إلى شاطئ النهر فارتقى على الرمال وتناول طعاماً خفيفاً .. وظل مكانه حتى انتصف الليل .

وكان في خلال هذه الساعات الطويلة يرسل بصره إلى صفحة الماء وقد استولت عليه الخواطر وغرق في تفكيره حتى كاد يغفل عما حوله .

وإذا عاد إلى المصنع في الصباح كان يادي الاضطراب ممتنع الوجه شأن المريض الذي لزم فراشه عليلًا طويلاً ..

وأقبلت عليه جان تسأله عما به .. فرماها بنظرة فيها ألم واضطراب وقال :

- لا شيء . . . ثم ما لبث أن أردف :
 - كنت أريد أن أحدث إليك عن . . .
 ولكنه ما لبث أن أمسك وقال في اضطراب :
 - كلاً . . . كلاً . . . ليس الآن . . . فيما بعد . . . فيما بعد !
 ثم أولاهها ظهره ومضى مسرعاً إلى المصنع . . .
 شيعته جان بنظرة مليئة بالدهش . . . وراحت تقول لنفسها :
 - عجباً . . . ! ليت شعري أي حديث أراد أن يفضي به إليّ . . . وما
 سرّ هذا الاضطراب الذي يعرفه . . . ! كاني به يكتنم سرّاً خطيراً . . . !
 وفي مكتب المدير جلس جارود منهمكاً في تحسین آلة الصقل . . .
 على حين جلس السيد لابرو على مقربة منه يكتب بعض الرسائل .
 وبعد برهة جاء المحاسب وقال :
 - ها قد جئتكم بالمال يا سيدي لتودعه المصرف .
 - أبقيه لديك حتى أفرغ من عملي .
 وإذ سمع جارود كلمة «المال» سرت الرعدة في بدنه وعثرته رجفة
 أخفاها بجهد ملموس . . .
 المال ! ذاك هو الرجاء الذي يعيش من أجله ! وهذه هي الأمنية
 التي ينشدّها ويرجوها .
 وبعد هنيهة دخلت جان تحمل رقعة زرقاء اللون وقالت :
 - جاءتك برفية يا سيدي .
 تناول السيد لابرو البرقية وفضّها على عجل . . . وما كاد يتلوها
 حتى امتنع وجهه وهتف :
 - ابني مريض . . . ربّاه أهو في خطر . . . !

وتحوّك إلى جارود يقول :
 - جاءتني برفية من أختي تخطرني فيها بأن ابني لومسيان
 مريض . . . ولا مفر لي من أن أسافر إليها فوراً . . . فاجمع أوراق
 الاختراع يا جارود لأودعها الخزانة . . .
 وانتفض جارود وأبرقت عيناه ابتهاجاً . . . وراح يجمع الرسومات
 والأوراق .
 ودق السيد لابرو الجرس يدعو إليه المحاسب وينبشه بسفره . . .
 وطلب إليه أن يبقى معه من المال ما يكفي لتفقات العمل في أثناء
 غيبته .
 ثم دعا إليه جان وأمرها بأن تعدّ له مركبة .
 ورجعت جان بعد دقائق فقال لها المدير :
 - انتظري لحظة حتى تساعدني في إعداد حقيبي .
 ثم جاء المحاسب بعد لحظات وهو يقول :
 - أبقى لك لدي خمسة آلاف فرنك وجتتك بالباقي .
 - حسناً . . . إنني أرجو أن لا أغيب أكثر من يومين . . . بكم جتني ؟
 - جتتك بمبلغ ١٣٣ ألف فرنك . . . فإذا أضفته إلى ما في خزانتك
 كان المجموع ١٩٠ ألفاً و ٢٥٣ فرنكاً .
 فتناول لابرو الأوراق النقدية ودفعها إلى خزانته دون أن يحصيها .
 وفي خلال ذلك حانت من جان لفنة إلى جارود .
 رأت في ثنايا وجهه انفعالات غريبة لم تعهدها فيه من قبل . . .
 كان مضطرباً . . . خائفاً . . . كمن اقترف جريمة يخشى أن تكشف . . .
 وكان في الوقت ذاته مضطرب النظرات متقد العينين .
 وعجبت لأمره ولم تدر ما دهاه !

وقدّم جارود رسومات الاختراع إلى رئيسه فأودعها هذا الأخير
الخزانة وهو يقول :

- سنعود إلى الاهتمام بها عقب عودتي .
وإذ رآه يهم بالانصراف قال له :
- انتظر لحظة فإنني بحاجة إليك .
ثم تحول إلى جان وقال لها :

- لا بد لي يا سيدة فورتييه من أن أهتم بأمرك عقب عودتي .
واعلمي أنني لن أدعك بلا عمل . . وأرجوك أن تنسي ما جرى بيننا
كما نسيته أنا .

ولاذت جان بالصمت . . وقد استغربت ما أبداه نحوها فجأة من
عطف لا يتفق مع صرامته المعهودة .

وكان المحاسب يختلس إليها النظر ويقول في نفسه :
- ويحها ! إنها لم تلق إليه ولو كلمة شكر واحدة ! لا ريب أنها
حاقدة عليه وتبيت الانتقام منه !
ثم أمرها السيد لابرو بأن تعد حقيبته . . فانطلقت دون أن تجيب
بكلمة واحدة .

ولمّا أغلقت الباب خلفها قال السيد لابرو :
- أخشى أن تكون السيدة فورتييه ناقمة علي فقد عنتها تعنيفاً
شديداً . . ولكنها هي التي أهاجت غضبي بعنادها . . ومهما يكن
فسأجد لها عملاً عند عودتي . .

ثم ألقى بعض تعليماته إلى جارود والمحاسب . . وغادر المصنع
مسافراً إلى الريف ليعود ولده المريض .

عندما حانت ساعة الانصراف مرّ جارود بغرفة جان فألقى إليها

بالتحية وهمّ بالذهاب . . ولكنها استوففته وقالت له :

- ما الذي كنت تنوي أن تحدثني به هذا الصباح ؟

فسرت الرجفة في أوصاله وقال مراوفاً :

- كنت أريد أن أتحدث إليك في مسائل كثيرة .

- تكلم إذاً فإنني مصغية إليك !

فهز رأسه وقال :

- كلاً . . ليس الآن . لقد تربّثت في الأمر واستقر مني الرأي على
إرجاء الحديث إلى فرصة أخرى . والواقع أنني لا أجرو .

- لا تجرؤ؟ على أي شيء ؟

- على مكاشفتك بما في نفسي . . ولكنني قد أكتب إليك بما
أبغي !

وكان يادي الاضطراب والتردد . . فقالت له جان :

- ولكن ما سرّ هذا الاضطراب الذي أراه ماثلاً في عينيك ؟

- أرجوك . . لا تسأليني الآن إيضاحاً ! ولكن نبشني . . هل تدبرت

أمر مستقبلك ومستقبل ولدك ؟

- نعم . . تدبرتهما !

- وما ترين؟ أموافقة أنت على ما اقترحته عليك ؟

- نعم . . ولكن بعد أن تكاشفتني بما في نفسك .

- سأكاشفك بكل شيء . . ولكن تريشي حتى الغد . . ففيه يتقرر

مصيرنا .

- ولم الغد بالذات . . ؟

- هذا سرّي . . ولا أحب أن أزيدك الآن إيضاحاً . . اصبري حتى

الغد . . هذا كل ما هنالك . .

ومضى عنها مسرعاً كأنما يخشى أن يزل لسانه في أثناء الحديث
فيجري بما يحاول أن يكتّم .

سار جارود إلى مطعم قريب فتناول طعامه وهو مضطرب شارد
الخواطر .

وإذ فرغ منه عاد ثانية إلى المصنع .

ولكنه هذه المرة لم يتجه إلى الباب الكبير العام الذي اعتاد العمال
الدخول منه . . وإنما سار إلى باب خلفي صغير يقضي إلى مكتب
السيد لابرو الذي اعتاد أن يحتفظ بمفتاحه .

اقترب من الباب وأخرج من جيبه قطعة من الشمع دفعها في
ثقب القفل حتى انطبع عليها شكل المفتاح ثم جذبها ودسها في
جيبه وانطلق إلى غرفته مسرعاً وجيبه يتصبّب عرقاً .

في ذلك الوقت نفسه كان السيد لابرو جالساً مع أخته وهي
تحدث إليه عن ابنه لوسيان .

أبأنه أن الطفل أصيب بحمى شديدة . . ولكن الطبيب صرح لها
اليوم بأن الخطر زال عنه ولم يعد ثمة ما يدعو إلى القلق .

فقال الأب المسكين الجزع الفؤاد :

- وأين هو . . فإني أريد أن أراه ؟

- إنه مستغرق في نومه فدعه ولا توقظه .

وسار الأب إلى غرفة ابنه يختلس الخطف . . وإذ رآه بنام هادئاً
سري عنه ورجع إلى أخته . . فراحت تروي له بأسهاب تفاصيل
المرض الذي حل بلوسيان .

وقال لها الأب :

- ما دام الخطر قد زال عنه فلا أرى ما يدعو إلى إطالة إقامتي

هنا . . وسأعود غداً إلى مصنعي .

ولمّا سأله عن أعماله حدثها بأمر الاختراع الجديد الذي وفق
إليه وقال :

- وإني أرجو أن يأتيني هذا الاختراع بالملايين من الفرنكات . . !

فابتهجت أخته . . ولكنها قالت بحذر :

- ولكن ينبغي أن تبادر إلى إخراجه وتسجيله رسمياً وإلا سبقك
إليه آخرون .

- إني لا أتوقع شيئاً من هذا القليل . . ومع ذلك فما من مخترع

إلا استهدف للمنافسة الخطرة ولا سيما إذا انكشف بعض سره

لخصومه . . فإتهم «بسرقة» الفكرة ويدخلون عليها من التطوير

والتحوير ما يكفل لهم النجاح . . ولكنني اتخذت الحيطة . . فإني

أعمل بنفسني ولا يساعدنني غير رجل يدعى جارود أثق به ثقة

عمياء .

وراح يحدثها عن جاك جارود ونبوغه وكيف أنه أشركه معه

لبعضه خمس الأرباح .

فقال تسأله :

- هل أطلعت على سر الاختراع ؟

- لم يكن لي مناص من ذلك إذ كان هناك بعض عيوب في

الاختراع سأله أن يتلاقها إذ استعصى أمرها علي .

فهزت الأخت كتفها وقالت :

- إيه . . ما دام الرجل محلاً لثقتك فلا داع للاستتابة في أمره . .

ولا سيما أنه قاسمك الربح . .

وبعد برهة عادت تسأله :

في صباح اليوم التالي كانت جان شاردة الذهن غارقة في
خواطرها تفكر في جارود وتساؤل نفسها عن هذا الاضطراب الذي
عراه .. وأي سر خفي أقيم يطوي بين جنبيه .. حين دخل عليها
خادم المصنع يسألها مفتاح غرفة السيد لايرو لينسقيها ويكنسها .
فطن الخادم إلى ما يبدو على وجه جان من أمارات الشرود .
وكان قد انتهى إليه أن صاحب المصنع أنذرهما بالطرد فأقبل عليها
يقول :

- ما بك؟ أمريضة أنت؟

- كلاً .

- إذا لم أراك مضطربة؟

- لست مضطربة .. إنك واهم !

- وما الذي تنوين فعله الآن؟ أفني تبتك الإقامة في هذه البلدة؟

- فسأها قوله وأجابته بخشونة :

- لا أعلم .

- وهل يتوي السيد لايرو يا ترى ألا يمنحك مكافأة مالية؟

- فقالت له بانفعال :

- إنني لست ممن يقبلون الصدقات !

- ومن قال لك إنه سيتصدق عليك ! إن تعويض العمال عند

فصلهم أمر مقرر قانوناً .. ولكن يلوح لي أنك حاقدة عليه .

فدفعت إليه مفتاح المكتب وقالت بغلظة :

- هاك مفتاح المكتب فأنصرف عني .

فتناولها منها وغادر الغرفة وهو يقول في نفسه :

- وكيف حال تلك الأرملة المسكينة التي قتل زوجها في مصنعك
عند انفجار إحدى الآلات؟

- لقد أقمتها بوابة للمصنع كما تعلمين ولكنتي مكروه على فصلها
الآن .

فقالت الأخت مستكبرة :

- كيف؟ أتطردها وقد مات زوجها في خدمتك؟

- ولكن إبقاءها في هذا العمل مستحيل .. إنها عاطفية رقيقة
الإحساس وقد سمحت اليوم لأحد العمال بمغادرة المصنع دون إذن
خاص .. والنساء في رأيي لا يصلحن لهذا العمل .

- كان ينبغي إذاً أن تدرك هذا من قبل .. ولكن ما يكون من
شأن هذه المسكينة حين تطردها ولا عائل لها أو لولديها؟

- وهذا ما أردت أن أتحدث إليك في شأنه يا أختاه .. إنك في
حاجة إلى امرأة تدبر لك شؤون هذا المنزل . فلم لا تتخذين جان
عوناً لك؟ إنك الآن في حاجة إلى الراحة . وليس من الإنصاف وقد
بلغت هذه السن أن ترهقي نفسك بالأعمال المنزلية .. إن لها ولداً
في الثالثة من العمر يمكن أن يتخذه لوسيان رفيقاً له فإتھما في سن
واحدة .

فقالت الأخت :

- هذا الاقتراح يا أخي يدل على ما طبعت عليه نفسك من
الخير .. وإني ليسرني أن أقبله .. نعم .. يمكنك أن تبعث إلي بجان
فأنزلها من نفسي منزلة الأخت .. فيكون لها من ذلك بعض العزاء
عن فقد زوجها المسكين .

- لا ريب عندي في أنها تفسر له شرآ!

وراحت جان تنسّق غرفتها بعد انصراف الخادم .

ثم أنت بزجاجات فارغة أفرغت فيها زيت البترول من الأنية الخاصة بالمصنع وهي تقول في نفسها :

- أنا التي اشتريت هذا البترول بمالي الخاص فمن حقي أن أحمله معي إلى غرفتي .

وطرق الباب في هذه اللحظة . وكان الطارق هو محاسب المصنع .

دفع الباب ودخل وهو يقول :

- أما حذرك المدير من استعمال البترول؟ ومع ذلك فما أزال أشم رائحته !

- إنني أفرغه في زجاجات خاصة لأحمله معي إلى غرفتي الجديدة عند مغادرتي المصنع . . ومع ذلك فيمكنك أن تطمئن إلى أنني لن أحرق المصنع قبل رحيلي .

فقال يخاطبها بغيظ مكتوم :

- طالما أخفى الوجه الوديع نية شريرة !

وأولاهما ظهره وانصرف .

بعد ظهر ذلك اليوم كان جورج الصغير يداعب جواده الخشبي . . وغضب فجأة على الجواد فتناول عصاه وانهاه بها عليه ضرباً . . وكانت ضرباته عنيفة فانشق بطن الجواد .

يكى جورج برهة ، ثم ما لبث أن مسح دموعه وقد خشي أن تعلم أمه بما فعل فراح يجمع أوراقاً من الصحف بحشو بها بطن الجواد .

ثم رجع إلى اللعب كمن لم يأت ذنباً .
وفي أثناء ذلك كانت جان واقفة بالقرب من باب المصنع تتربّع خروج جارود .
ورائه مقبلاً .

اقترب منها وقال لها :

- هاك الرسالة دوت فيها كل ما أبغى أن أكاشفك به .

فتولتها الدهشة . . وقالت :

- وما الذي يدعوك إلى الكتابة . . وفي وسعك أن تصارحني بما تشاء . . ؟

فقال في اقتضاب :

- ثمة أشياء لا يمكن أن يجري بها اللسان وإن كان هيناً أن يجري بها القلم ! أقرأي هذه الرسالة حين تلوذين بغرفتك . . واعلمي أن مستقبلك ومستقبل طفلك رهين بكلمة منك .

ثم انطلق مسرعاً دون أن يزيد حرفاً واحداً على ما قال .

ومضت جان إلى غرفتها وقد اشتدت بها الלהفة .

فضّت الرسالة وراحت تقرؤها باهتمام . . فإذا هذا نصها :

«حبيبتي جان . .

يا للأسى حدثتك عن ثروة متظرة تضمن لك ولولديك الهناء . .

والآن أستطيع أن أؤكد لك أن سبيل هذه الثروة أصبح ممهداً مبسوراً .

«غداً سأصبح من الأغنياء ، أو على الأقل ستكون بين يدي جميع

الأسباب التي تهني لي ثروة لا شبهة فيها . . كما سيكون بين يدي

اختراع جليل تقع عظيم الرواج سيصدر علي مئات الألوف . . كما

سيكون بين يدي في الغد ما يقرب من مائتي ألف فرنك .

جان .. اعلمي أن طفليك سيصبحان ولدي! إن هذه الفكرة وحدها خليفة بأن تحملك على قبول اقتراحي ..

«في هذا المساء ساكون في انتظارك في الساعة الحادية عشرة عند جسر شارنتون .. فاحضري وفي رفتك جورج .. وستزل في أحد الفنادق .. وغداً نبرح فرنسا إلى أحد البلاد الأجنبية حيث نصبح من الموسرين الأغنياء!

«غادري بلا ندم ذلك المصنع الذي قتل فيه زوجك .. والذي طردك منه صاحبه ..

«تعالى إلى ذلك الذي يحبك والذي سيجعل منك أسعد النساء!

«إذا لم تحضري فلا أدري إلى أي نوع من الحماقات يدفعني اليأس .. ولكك ستحضرين! ..»

٧ ليلول/ سبتمبر سنة ١٨٦٦

جاك جارود

فرغت جان من تلاوة الرسالة وأخذتها موجهة من الدهش والاستغراب ..

أي اختراع هذا الذي يتحدث عنه جاك جارود؟ وكيف وفق إليه فجأة وما حدثها عنه من قبل؟ وما مئات الألوف من الفرنكات هذه التي يزعم أنه سينالها غداً؟! من أين له هذا المال وهو عامل فقير ليس له غير مرتبه؟

أعمل لئلا من الجنون طغت عليه فجعله يتصور الأوهام حقيقة راسخة؟ أو لعله أراد أن ينصب لي شركاً وهو يحسب أنني غافلة ساذجة؟

ولكن لا .. محال أن أنقاد لترفات هذا الوغد! إنه لن يلقى مني

إلا الأزدراء والاحتقار ..

وفركت الرسالة بين يديها وألقته على الأرض بغضب .. ونظر ابنها جورج إلى الورقة المكورة ثم انقضَّ عليها فتناولها ودسها في بطن الجوارد المشقوق يحشو الشق بها .. وأقبل الليل .. وادلهمت السماء ..

ومضت جان بولدها إلى فراشه .. فأرقدته في عطف وحنان وراحت تغني له أنشودة حلوة بصوت عذب رقيق ..

وإن هي إلا لحظات حتى أرعدت السماء وأبرقت .. وبدأت العاصفة ترسل نذرها الرهيبة تحتاح الأرض بغير رحمة ..

- ٦ -

في الموعد المضروب كان جارود عند جسر شارنتون يترقب قدوم جان ..

كانت العاصفة جاثمة عاتية .. ومع ذلك لم يبال بها وإنما انطلق إلى النهر يلتقى سيول المطر على كتفيه في غير اكتراث ..

وراح يقول لنفسه :

- نعم .. إن العاصفة لن تردها عن القدوم! إني موقن من أنها ستحضر حتماً في الموعد المضروب .. إذا كان في نيتها أن تحضرا! وإذا ذلك أمضي بها إلى غرفتي فأدعها هناك برهة مع طفلها ريثما أنجز ما بيث عليه العزم ..

ومضى يتجول في المكان جينة وذهاباً .. وكلما سمع حركة كلما حسب أن جان هي القادمة ..

وطال الانتظار وجان لا يبدو لها أثر .. وقال في نفسه :

- نَبَأَ لَهَا! .. أَنبَذَتْ حَبِي وَأَبَتْ أَنْ تَوَافِيَنِي! .. سَتَرَى إِذَا كَيْفَ
أَنْتَقِمُ مِنْهَا! إِنَّ هَذَا الْقَلْبَ الَّذِي يَضْطَرُّمْ غَرَاماً سَيَقْلِبُ الْآنَ مَنَاجِجاً
بِالْغَضَبِ وَالْكَرَاهِيَةِ ..
وفجأة طاف بذهته خاطر ارتعد له ..

هذه الرسالة التي كتبها إلى جان يدعوها فيها إلى موافاته عند
الجسر .. ألا تحمل رسالة اتهام خطيرة؟! أليست دليلاً على الجريمة؟
وما يكون من شأنه إذا أبرزت جان هذه الرسالة ودفعتهما إلى
المحققين؟!

وغرق في خواطره برهة وقد أخذته غاشية من الخوف ..
ثم رفع رأسه وقال بثقة :

- كلاً .. سأدفع النهمة عن نفسي بأن أرجى سفري أسبوعاً ..
بل شهراً ..

على أن الرجاء في قدومها ما لبث أن عاوده .. فأقام مكانه
برهة .. ولما أدركه القنوط سار صوب المصنع وهو يقول في نفسه :
- الآن مات الحب في قلبي .. واضطربت مكانه البغضاء! والويل
لها! لقد داست غرامي بقدميها فليس لها عندي إلا الانتقام ..

دخل جارود إلى المصنع من الباب الخلفي الصغير الذي اعتاد
السيد لابرو أن يدخل منه ..

ولقد رأبناه من قبل بأخذ للمفتاح قالباً من الشمع صنع على
نسقه مفتاحاً استعمله في فتح الباب ..

وإذ صار في الفناء رأى الضوء ينبعث من غرفة جان فعوضاً على
أسنانه وقال في نفسه :

«إنها الآن تهزأ بي وتعتقد أنني قائم تحت وإيل من المطر أترقب

قدومها .. ولكنها ستري الآن كيف يكون انتقامي! والحب الذي كان
أغنية تشحدث عن هوائها قد انقلب الآن ناراً تحتاج كل ما في
طريقها! ..

كانت جان قد أودعت الزجاجات الملأى بالبترول غرفة مجاورة
لغرفتها .. فمضى إليها جارود بغير تردد وهو يختلس الخطى ..
حمل بعض الزجاجات وسار إلى مصنع التجارة فصب البترول
فوق نشارة الخشب ..

ثم انطلق إلى مكتب صاحب المصنع .. فعالج الخزائن بما لديه من
أدوات وآلات حتى هشم قفلها .. وأودع جيبه ما فيها من أموال
ورسومات خاصة باختراع آلة الصقل ثم صب البترول فوق المكتب ..

ارتدّ جارود ثانية إلى ورشة النجارة وأخرج من جيبه عوداً من
الكبريت أشعله في النشارة .. وإن هي إلا لحظات حتى التهمت
وصارت أشبه بأتون متأجج النيران ..

وبينما كانت هذه الحوادث الرهيبة تتوالى في باريس .. كان
السيد لابرو قد غادر القرية راجعاً إلى المدينة العظيمة بعد أن اطمأن
على صحة ولده ..

بلغ باريس قبيل منتصف الليل بساعة فتناول طعامه في أحد
المطاعم ثم استقل مركبة أمر سائقها بأن يمضي به إلى المصنع ..

وبلغ السيد لابرو المصنع حين فرغ جارود من إشعال النار في
ورشة النجارة .. وارتد إلى مكتب المدير يشعل فيه النار ..

رأى العائد المسكين النيران تلتهم مصنعه فجري راكضاً صوبها
لهيبين الأمر .. وحانت منه لفظة قرأى باب مكتبه مفتوحاً وألقى النار
لم تشتعل عفواً .. وأن يبدأ آتمة أشعلتها عمداً .. فما كان منه إلا أن

جری إلى المكتب واقتحم الباب .
رأى جارود صاحب المصنع مقبلاً عليه . . فلم يَرَّ وهو في هذا
الموقف الحرج أن يتراجع .

استلَّ إحدى الأدوات التي هشَّم بها الخزانة الحديدية الصغيرة
وانقض على السيد لابرو وسدَّ إلى قلبه طعنه كانت القاضية .
صرخ المطعون المسكين صرخة هائلة ثم ترنح وهوى على الأرض
والدما تنفجر من صدره .

وفي هذه اللحظة كانت جان قد أقبلت مسرعة على وقع الأقدام
ورأت القاتل وهو يغمد الأداة النفاذة في صدر السيد لابرو .

التهمت النار المصنع . . وتعالى اللهب وتراءى على البعد . . فأقبل
رجال المطافئ مسرعين وراحوا يكافحون النيران بجهود صادقة .

ولم يخف على جان سوء موقفها وأبقت أن التهمة ستلصق بها .
ألم يطردها صاحب المصنع في اليوم السابق؟ ألم يمت زوجها في
مصنعه؟ كل هذه دوافع بعثتها على إضرام النار في المصنع !

وزيت البترول الذي ابتاعته إنما هو الدليل على ما فعلته ! على
أنها ما لبثت أن هتفت :

- ولكني سأنفي التهمة عن نفسي . إن الخطاب الذي كتبه إليّ
دليل قاطع على أنه هو الجاني الأثيم !

وانطلقت تجري إلى غرفتها لتأني بالرسالة . . تلك الرسالة التي
ستنقذها من هذه التهمة الرهيبة .

وفي الطريق إلى غرفتها تذكرت أنها ألقت بالرسالة إلى الأرض
بعد أن فركتها بين يديها حقاً .

ودفعت الباب وألقت نظرة عجلَى في أرجاء الغرفة فلم تجد أثراً

للرسالة .

أدركها الجزع وهتفت :

- رباه . . أين الرسالة إذأ ؟ !

وراحت تبحث عنها في كل مكان . . تحت المقاعد . . وتحت
السريـر . . وتحت المائدة . .

وفيما هي جادة في البحث تناعت إلى سمعها أصوات حادة
تبَيَّنَت من بينها صوت الحاسب .

سمعته يقول :

- لا ريب عندي في أن السيدة فورتيه هي التي أشعلت النار في
المصنع فقد سمعتها بأذني تهذد السيد لابرو وتتورعه .

وغاص قلبها في صدرها خوفاً حين سمعت هذه الكلمات .
وقالت في نفسها :

- رباه ! إن لم أجد الرسالة تُضي عليّ حقاً .

وراحت جهودها في البحث عن الرسالة عبثاً .

لقد أفلت من بين يديها الدليل الوحيد الذي كان خليقاً بأن
ينقذها من مصيرها المفجع !

حملت ابنها جورج وغادرت الغرفة وانطلقت من المصنع هائمة
على وجهها والصغير المسكين متعلق بعنقها خوفاً وفزعاً .

ولكنه في غمرة خوفه لم ينس جواده الكرتوني .

وأتى للآم المسكينة أن تعلم في تلك اللحظة أن الرسالة المنشودة
في بطن الجواد المشقوق !

احتشد القوم حول المصنع المتأجج ينظرون إلى السنة اللهب وهي
تتعالى في الجو . . ورجال المطافئ يتسلقون السلالم ليكافحوا النيران

إذا كانت الأبواب لا تزال موصدة ..

وهتف أحد الحاضرين :

- أين جان حارسة الباب؟ وكان جاك جارود بين المحتشدين فأنبرى يقول :

- أين جان؟ لا ريب عندي أنها هي التي أشعلت النيران ! لقد طردها المدير فأقدمت على هذه الفعل انتقاماً منه !

ثم أهاب بمن حوله قائلاً :

- هيا أيها الأخوان ننتشل خزنة المدير من النيران .

وانطلق يجري صوب المصنع وفي أثره بعض المتحمسين .

بعد أن ارتكب جاك جارود جريمته الهائلة وعرف أن جان رآته وهو يقتل المدير انطلق هارباً وهو موقن أنها سوف تتهمه وتكاشف الناس بما فعل .

ولكنه ما إن ابتعد عن المصنع مئات من الأمتار حتى استرد رباطة جأشه فقال في نفسه :

- نعم .. إنها سترميني بالتهمة .. ولكن أي دليل لديها على صحتها ! الرسالة ؟

ولكن لا ريب أن النيران قد التهمت الرسالة وأتت عليها .. وبعد فإن الناس جميعاً يعرفون أنها ناقمة على المدير .. وأنها تضيء غرفتها بزيوت البترول .. فإذا ما رأوا الزجاجات الفارغة إلى جانب النيران أبقتوا أنها هي الجانية !

وحين أهاب بالمحتشدين أن يخفوا إلى انتشال خزنة المدير كان له من وراء ذلك غرض جهني .. كان يريد إبعاد التهمة عنه .

انطلق القوم صوب المكتب فرأوا السنة النيران تندلع منه بقوة وتصدهم عن الدخول إليه .

وقال المحاسب :

- إن الدخول مستحيل ! ..

فهتف جاك جارود :

- أما أنا فسأحاول ! لا بد لي من انتشال الخزنة !

- ولكنك ستعرض لخطر شديد !

- سأكون حريصاً .

ووثب إلى داخل المكتب .

وإن هي إلا لحظات حتى تنهى إليهم صوته المنهذج يقول :

- هنا جثة !

ثم برز ثانية من المكتب وهو يحمل جثة السيد لايرو فوضعها على الأرض وهو يتساءل :

- يا إلهي .. جثة من هذه؟

فهتف المحاسب :

- رباه ! إنها جثة السيد لايرو .. !

وانطلق جاك جارود ثانية إلى المكتب .

وبعد هنيهة تعالت من داخل المكتب صرخة داوية .. وتناهى إليهم صوته وهو يقول :

- أسرعوا إلي ! إنني أحتق ! أنقذوني .. إني أحتق ! ..

ثم تضاعف الصوت وما لبث أن خمد .

ووثب بعض الرجال صوب المكتب ولكن اشتداد النيران صدهم خائنين .. كما أن الجدار ما لبث أن انهار فسد السبيل إلى المكتب

.. وراح بعضهم يقول لبعض :

- مسكين جاك جارود ! .. لقد ذهب ضحية شهامته !

وعلى رغم الجهود الهائلة المتواصلة التي بذلها رجال المطافئ فقد أنت النيران على المصنع ولم تبق منه شيئاً فاستحال ركاباً وجدراناً متهدمة .

وكان الجمهور المحتشد يتحدث في هذه النكبة ويتساءل عن سرها . وبدا المحاسب أشد القوم وطأة على السيدة فورتية إذ كان لا ينفك بضرب كفاً بكف ويقول :

- تبا لهذه الأثيمة ! إنها هي التي أحرقت المصنع وكانت سبباً في مصرع السيد لابرو وذاك جارود ! ..

وهنا دعا منه رئيس الشرطة وقال يسأله :

- من أنت ؟

- إني محاسب المصنع .

- لقد فهمت من حديثك أنك تتهم أحداً فماذا تعني ؟

- نعم .. إني أتهم بوابة المصنع .. السيدة جان فورتية .

- ألدبك دليل ضدها ؟

- اختفاؤها ! إن فرارها في هذه اللحظة الحرجة هو في ذاته أقوى دليل على إجرامها ! وإني موثق أنها ما اشترت زيت البترول إلا لتحرق به المصنع .

- وما الذي يدفعها إلى ارتكاب هذه الجريمة ؟

- حقدتها على صاحب المصنع .. فقد أذلها منذ يومين بالاستغناء عن خدماتها .

- وأين جثة القتيل الثاني فقد سمعتك تقول إنها قتلت رجلين ؟

- القتيل الثاني يا سيدي هو مراقب المصنع السيد جاك جارود ..

لقد اقتحم المكتب المتأجج لينتقد خزنة المدير فعمش على الجثة

وأخرجها إلينا .. ثم ارتد إلى المكتب ثانية ولكن النيران أهدقت به لسمعناه بصرخ مستجداً .. ولكن استحالة علينا إنقاذه إذ تهدمت بعض الجدران .

فقال رئيس الشرطة :

- حسناً .. سننقل الجثة إلى مخزن المركبات فإن النار لم تمتد إليه .. وهناك أتولى التحقيق المبني ريثما يحضر القاضي ..

وأمر من ثم بعض رجاله بنقل الجثة .

ثم دعا إليه المحاسب وطرح عليه طائفة من الأسئلة عرف منها أن السيد لابرو مترمل وأن له ولداً في الثالثة من العمر يقيم عند عمته في الريف .. وأن السيد لابرو ذهب إلى زيارة أخته وولده ولا ريب أنه عاد بغتة ليلقى حتفه .

فقال رئيس الشرطة :

- ابعث إذاً بفرقة إلى أخت السيد لابرو أنبئها فيها بمصرعه .

- نعم يا سيدي .

وراح رئيس الشرطة يضع تقريراً تمهيدياً لتقدمه إلى قاضي التحقيق الذي سيتولى الأمر .

- ٧ -

حملت جان طفلها وانطلقت هائمة على وجهها صوب النهر . وكانت تتوقف عن السير خائفة مذعورة . وترسل بصرها من حين إلى آخر ناحية النيران المتوهجة فيشتد رعبها وتشتد رغبة في الابتعاد عن هذا الأتون المتأجج .

وكانت كلما أدركها الإعياء كلما انطرحت على الحشائش تلتمس

الراحة . وضمت طفلها إلى صدرها وراحت تقبّله فينكمش المسكين إلى صدرها كأنما يجد في هذه القبلات ما يرد عنه لدغات البرد القارس .

وكانت لا تفتأ تقول لنفسها :

- ترى إلى أين أمضي . . ولم فررت هاربة ! نعم . . إني أعلم أنهم سينهموني ! وقد انعدم الدليل الذي كنت أركن إليه لإثبات براءتي . . فلم أجد مفرّاً من الهرب .

وذكرت النظرة الوحشية التي رماها بها جاك جارود حين رآته يطعن مدير المصنع . . وتردّدت في سماعها عبارته حين قال لها في تلك اللحظة :

- ستلبسك التهمة من كل جانب ولا مسيل لك إلى إنكارها !

رباه ! ماذا فعل هذا الأثيم ؟ وما الذي دبر ؟

إنها هي التي ابتاعت البترول من الحانوت . . وسيجدون الزجاجات الفارغة . وفراها عقب الحادث . . والكلمات التي ألقتها إلى السيد لايرو حين قالت له إنك لن تلقى خيراً ! كل هذه شبهات وقرائن تدمغها بالأنهام !

وإذ طافت هذه الخواطر في ذهنها اشتدّت إمعاناً في الهرب .

أشرقت الشمس وهي لا تزال هائمة على وجهها .

وعلى بعد رأت شرطيين يقودان امرأة مكبّلة بالأغلال .

أدركها الرعب وانزوت خلف بعض الأشجار وهي تقول في نفسها :

- رباه ! أكون هذا مصيري ! أساق إلى السجن كما تساق هذه

المرأة ؟ إني بريئة لم أجن إثماً ، ومع ذلك أؤخذ بما افترف غيري !

وفراري ؟ إنه عمل ينطوي على الحماقة ! كان ينبغي أن أبني وأن أصبح بالشرطة : هو ذا القاتل فاقبضوا عليه !

والآن ما عساي أصنع ؟ هل أعود ثانية ؟ وهل أستطيع لو أنني هدت أن أنفي التهمة عن نفسي ؟ !

وقطع عليها هذه التصورات صوت طفلها وهو يقول :

- أماء ! إني جائع .

عصر الحزن قلب المسكينة وانهمرت عبراتها وغمغمت تقول :

- صبراً يا بني ! إذا ما وصلنا إلى القرية جتتك بالطعام .

- إني تعب يا أماء لا أقوى على السير !

فحملته من جديد وسارت به وهي تترنّج لشدة إعيائها .

وأخيراً لاحت لها مباني القرية فأرقدت طفلها على العشب وقالت :

- انتظروني هنا يا جورج حتى أعود إليك بالطعام .

- سأنتظرك يا أماء !

- ألا تخاف وحدك ؟

- كلاً . . فإن جوادي معي يدافع عني !

واحتضن جواده وأغمض عينيه وما لبث أن غرق في النوم . . فابتعدت عنه أمه وقلبا يتنجّع .

في غضون ذلك كان قاضي التحقيق قد حضر إلى المصنع وتولّى التحقيق وأمر بتفتيش المصنع تفتيشاً دقيقاً لمعرفة السبب في اشتعال النيران .

ورجع إليه رجال الشرطة يحملون زجاجات زيت البترول الفارغة .

وقال القاضي يسأل الحاسب :

- أرايت هذه الزجاجات من قبل؟

- نعم . . فقد رأيت جان فورتييه تملؤها بزيت البترول .

- هل لك أن تذكر لي كلمات الوعيد التي ألقتها جان إلى صاحب المصنع؟

- نعم يا سيدي . . حين أنذرهما بالاستغناء عنها قالت له : « احذر فإنك لن تلقى خيراً ! » وهذا قول صريح في التهديد يا سيدي القاضي . . وكان سلوكها حياله يدل على الحقد وعلى أن البغض يتأجج في صدرها .

- أعتقد أن الانتقام وحده هو السبب في هذه الجريمة؟

- لا شك في ذلك يا سيدي .

- أكانت الخزانة فارغة؟

- بل كان فيها ما يقرب من مائتي ألف فرنك .

- أيعلم أحد سواك بذلك؟

- نعم جاك جارود وجان فورتييه .

وانفجرت أسرار القاضي وأيقن أنه يوشك أن يبيط اللثام عن هذا السر . . واسترسل المحاسب يقول :

- نعم . . كان الاثنان يعلمان بالأمر . . ولكن ها هي النيران قد

التهمت جاك المسكين حين حاول أن ينتشل الخزانة من النار .

وتابع القاضي تحقيقه . . ثم تحول إلى رئيس الشرطة وقال له :

- صدق ظني . . إن الانتقام وحده لم يكن هو الدافع إلى

الجريمة . . لقد كسرت الخزانة واستولت على المال ثم أشعلت النار

في المصنع إخفاء لمعالم جريمتها . . وعند مغادرتها المكتب فاجأها

السيد لابرو على غير انتظار فما كان منها إلا أن سددت إلى صدره

هذه الطعنة القاتلة !

وقال رئيس الشرطة :

- وهل تستطيع امرأة أن تهشم خزانة حديدية؟

فانبرى المحاسب يقول :

- نعم . . فهي من طراز قديم يسهل كسره بأقل جهد .

فعاد رئيس الشرطة يقول :

- وما يدرينا أن النار لم تلتهم المال؟

فقال المحاسب :

- هذا محال يا سيدي . . فقد كان في الخزانة ثلاثة آلاف فرنك

ذهباً . . فلو أنها بقيت في النار لانصهرت ولرأينا ذوبها !

وقال القاضي يسأل الطبيب :

- أعرفت نوع الأداة التي قتل بها السيد لابرو؟

- إنها في الغالب مدية كبيرة وقد أصابت القلب .

- ولكن ما الذي حمل جان على أن تنزود بهذه المدية وهي

نعرف أن صاحب المصنع غائب في الريف؟ إنني أعتقد أن لها

شريكاً . . فإن امرأة لا تستطيع وحدها أن ترتكب كل هذه الجرائم .

- ربما جاءت بالمدية لتحطم بها الخزانة .

- هذا جائز .

واستدعى القاضي صاحبة حائوت البقالة فشهدت بأنها باعت

لجان فورتييه منذ يومين أربعة لترات من زيت البترول .

ثم قصت عليه ما كان من أمر جان وكيف أنها قالت لها إنها

تتمنى أن تحصل على ألفين أو ثلاثة آلاف من الفرنكات .

وتداول قاضي التحقيق في الأمر مع رئيس الشرطة وانتهى به

الأمر أخيراً إلى إصدار أمره بالقبض على جان فورتييه .

إنَّ التهمة لاصقة بها ومحال أن تفتد الأدلة التي أخذتها من كل ناحية .

- ٨ -

في منتصف الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم نفسه كان القطار المسافر إلى الهائر يضم في أحد صالوناته رجلاً تدل هيئته على أنه من رجال الأعمال الأثرياء . وكان ناشراً أمامه أوراقاً ينظر فيها باهتمام وقد استغرقه التفكير ولثمت أساريه عن الاغتراب .

أما هذا الرجل فما كان إلا بطلنا جاك جارود وقد تنكر وصيغ شعره . . وما كانت الأوراق المنشورة أمامه إلا رسومات الاختراع الذي سرقه من خزانة السيد لايرو .

والواقع أنه حين اقتحم جارود النيران زاعماً أنه يسغي انتشال الخزانة بادر بالخروج من باب المكتب الخلفي بعد أن أرسل صرخة استغاثة داوية حين رأى الجدار ينهار حتى يوهم القوم المحتشدين أن الجدار سقط فوقه وأنه ذهب طعمه للنار .

تسلل جارود من الباب الخلفي وقد اتخذ من الظلمات مشيراً وانطلق إلى غرفته والقوم يظنون أنه ذهب ضحية شهادته وشجاعته .

وقد أمضى سحابة النهار منزوياً في الغابة حتى لا يقع عليه بصر إنسان . . ولما أمسى المساء التالي تسلل من مخبئه وسافر إلى الهائر ونزل في أحد الفنادق متخذاً اسم بول هرمان .

إنه اسم صديق له من العمال كان يشاطره غرفته ثم نزل به المرض فنقل إلى المستشفى . . وهناك أدركته المنية . . فما كان من جاك جارود إلا أن احتفظ بأوراقه الشخصية .

والآن أصبح في وسعه أن يستعمل هذه الأوراق وأن يتخذها درعاً يرد بها شبهات الشرطة . . وإن ارتاب أحد في أنه ليس بول هرمان أبرز أوراقه الشخصية فتكون الدليل الدامغ الذي يقطع كل شبهة أو ريبة .

حين جاءت جان فورتييه بالطعام أصابت منه هي وطفلها كفأيتهما ثم استلقى الاثنان على العشب واستغرقا في النوم . وحين استيقظا كانت أشعة الشمس قد غمرت الأرض وانجابت العاصفة العاتية .

وغمغم جورج يقول :

- أمه . . إني جائع .

فضمته إلى صدرها وامتلات عيناها بالعبرات . . إذ تصورت المصير المنجع الذي ينتظر ولدها من عري وتشرد .

وراحت تقدّم إليه الطعام وتحبسه عن نفسها لأنها كانت تعلم أن القليل الذي لديها لا يسد جوع اثنين .

وتتابعت الساعات وهما منزويان في الغابة إذ رأت من الحكمة أن لا تدخل القرية في وضوح النهار .

وهبط الليل واشتعلت الظلمة الأرض .

وقامت جان تحير رجلها جراً وتتزع قدميها من الأرض بجهد كأنها دقّت إليها بالمسامير . . وسارت صوب قرية شيفري القرية .

ثم اقتربت جان من منزل كاهن القرية الأب فليكس لوجيبه وفي إعياء شديد رفعت يدها تطرق الباب .

وأقبلت الخادمة مسرعة تنظر من الطارق . . فتحت الباب ونظرت إلى جان وهي تحمل جورج والإعياء باد على وجهها .

وقالت جان بصوت خافت يدل على الضعف :

- أيمكنني أن أقضي الليل عندكم ..

- بكل تأكيد .. لحظة واحدة حتى أنبي الأب ..

وبعد لحظات جاء الأب بنفسه ليجد جان طريحة على الأرض وقد أدركها الإغماء ..

ونادى الكاهن أخته كلاريس .. ونقلوا المرأة المسكينة إلى داخل البيت .. وما زالوا بها حتى أفاقَت ..

وقال الكاهن :

- أغلب ظني أن الجوع هو سبب هذا الإغماء ..

وحمل إليها مع أخته قدرًا كافيًا من الطعام .. ومضى الاثنان يتحدثان إليها برفق وعطف حتى شعرت أنها بين أهلها وفي كنف قوم يحبونها ويعطفون عليها ..

وتناولت جان يد الأب فانهالت عليها لثماً وتقبلاً وقالت :

- أشكرك يا أبنا! أشكرك بكل جوارحي ..

- ٩ -

حين انتهى نيا تلك الفاجعة الأليمة إلى أخت السيد لابرو حضرت إلى مدينة ألفورتنيل على عجل وقد استولت عليها الدهشة ..

كانت المسكينة لا تصدق ما رأت أو سمعت ! كيف ؟ .. منذ أربع وعشرين ساعة كان أخوها في دارها يتحدث إليها سليماً معافى ويكاشفها بمشاريعه المستقبلية وما ينوي أن يفعل باختراعه لمضاعفة ثروته ..

وفجأة تنهار هذه الأحلام .. يُقتل أخوها .. ويحترق مصنعه ..

وتذوب الثروة الهائلة فلا يبقى لها أثر !

وإذ أنبأها المحاسب ريكو أن جان قورتييه هي الجانية هتفت المرأة الكريمة القلب المفجوعة :

- ما هذا الذي تقوله يا سيد ريكو؟! لم يكن أخي ينشد إلا هناء هذه المرأة .. وقد سألتني أن أتخذها سميرة لي .. فكيف يمكن أن تقدم على هذه الجرائم ! هذا مستحيل ! لا .. لا ريب أن القضاء أخطأ .. وطالما أخطأ القضاء في أحكامه ! ولكن الأدلة ضدها دامغة قوية !

فهزت كتفها هزة من تنكر هذه الأقوال وقالت :

- إن قلبي يحدثني أنها بريئة لم تحن ذنباً !

وراح المحاسب يتحدث إلى السيدة برتان عن مركز أخيها المالي بعد احتراق المصنع .. إن المصنع مدين بمئة ألف فرنك .. ولكن شركات التأمين ستولى دفع هذا الدين من قيمة التأمين ..

فقالت السيدة برتان :

- أما كان لأخي أموال مودعة في المصارف؟

- كلاً .. فقد سحبها كلها من المصرف قبيل مصرعه وأودعها خزانته إذ كان في نيته أن يشتري آلات جديدة لتنفيذ اختراعه الأخير ..

- وأين هذا المال؟

وروى لها ما كان من سرقة هذا المال ..

فقالت الأخت الثكلى :

- إذا فلم يبق لابن أخي شيء من المال؟

- نعم .. عدا الأرض التي كان المصنع مقاماً فوقها .. ولكن من

العسير بيعها .

فقالت السيدة برتان :

- إن لوسيان سيقم في كني وكفي وسأؤلى الإنفاق عليه وأجعل منه رجلاً يحى ذكرى أبه .

بعد أن ووري السيد لابرو مقره الأخير سافرت أخته برتان إلى باريس لمقابلة قاضي التحقيق .

استهل القاضي حديثه معها بأن أبدى أسفه للكنبة التي نزلت بها ووعدا بالاعتصاص من القنلة .

فتنهدت بأسى وقالت :

- وما يجدني القصاص ؟! ليس في ذلك ما يعيد إلي أخي للسكين .

- هذا صحيح بكل أسف . . ولكن ينبغي ألا يذهب دمه هدراً !
وقالت السيدة برتان :

- ولكن هل أنت موقة يا سيدي من أن جان فورتيه هي القاتلة ؟
ليس لدي شك في هذا يا سيدي .

- ولكن كيف يمكن لامرأة أن تقدم على اقتراف هذه الجرائم كلها ؟!

- إن الحق يا سيدي يبعث القوة والجرأة في أضعف النساء .

- وعلام الحق وقد كان أخي شديد الاهتمام بمستقبل هذه المرأة ؟
- يلوح لي أنك تجهلين أنه أئذرها بالطرد منذ يومين .

- لا أجهل ذلك يا سيدي . . ولكني أعرف في الوقت ذاته أنه كان شديد الاهتمام بأمرها . . وقد سألتني أن أتخذها رفيقة لي وأقيمها عندي . . وقبلت ذلك فعلاً . . وهو ما كان ينوي طردها

فعلاً وإنما أراد إقصاءها عن عمل يعتقد أنها لا تصلح له .

فقال القاضي :

- ولكن . . أكانت جان تعرف بما ينوي أخوك من أجلها ؟

- لا أظن ذلك .

- إذا فلا شبهة في أنها كانت حاقدة عليه . . وليس لدي ذرة من الرية في أنها هي الجانية . . ومع ذلك فأني دليل أقوى من فرارها عقب الحادث ؟!

فهزت السيدة برتان رأسها وقالت :

- لا شك أن فرارها خليف أن يثير الشبهات ! ولكن ما يدريك أنها هربت رعباً وفرعاً ؟

- وما الذي يفرعها إن كانت بريئة ؟! ثم إن شراء زيت البترول هو في ذاته دليل لا يتقضى على اقترافها هذه الجريمة .

فسكتت السيدة برتان هنيهة ثم قالت :

- إذا فالتهمة ثابتة عليها ؟

- كل الثبوت .

- ألم يتطرق الشك إلى ذهنك في شأن سواها من العمال في

المصنع ؟

فرماها القاضي بنظرة فاحصة وقال :

- سيدي . . إن هذا الإلحاح في نفي التهمة عن جان فورتيه لا يمكن أن يأتي عفواً . . لا ريب أنه قامت في نفسك شكوك ضد سواها . . فأفصحني إذا وكاشفني بكل هواجك .

- أصبت يا سيدي . . عندما زارني أخي بالأمس أنبأني أنه في سبيل اختراع آلة جديدة للصقل تدرّ عليه الملايين . . فهل من

المستبعد أن تكون هذه الجريمة المزدوجة قد ارتكبت ابتغاء سرقة هذا الاختراع؟

- وهل أطلع أخوك أحداً على سر اختراعه؟

- نعم .. أطلع أحد مراقبي المصنع .. وسأله المعونة في صقل الاختراع ووعده بأن يمنحه خمس الأرباح .

- إذا فأنت تتهمين هذا المراقب بأنه هو الجاني؟

- هذا رأيي يا سيدي .

- إنه رأي له وجهته على أية حال .. وينبغي أن يؤخذ بالاعتبار ولكن من هو هذا المراقب؟

- إنه يدعى جاك جارود .

فهز القاضي رأسه وقال :

- جاك جارود؟ إذا فقد انهارت شكوكك يا سيدتي !

- ولم؟

- لأن جاك جارود كان مثالا للشجاعة والشهامة .. لقد التهمته النيران حين اقتحمها محاولاً أن ينتشل خزانة أخيك .

- حقاً .. ما كنت أعلم ذلك .. إنني آسفة إذ جرى لساني باتهامه .

وبعد حديث قصير انصرفت السيدة برتان بعد أن أكدت لها قاضي التحقيق أن دم أخيها لن يذهب هدراً .

- ١٠ -

لقيت جان فورتبييه في بيت الأب لوجيبه من العطف ما يبدد بعض أحزانها .. أصابت طعماً شهياً .. وراحة بعد إعياء .. ونوماً

بعد أرق .. وأمناً لطفلها .

وفي قاعة الاستقبال جلس الأب لوجيبه يتحدث في شأنها إلى أخته كلاريس وإلى صديق له من المصورين النابغين يدعى إيتين كامتل .

قال الأب إنه علم من هذه المنكودة أنها قادمة من الفورتفيل ولكنها لم تذكر له سبب هجرتها .. وقال معقياً :

- ولا ريب عندي أن الفاقة هي التي دفعتها إلى الرحيل .. فإن هيتها تنم عن سلامة الطوية .. وفي نيتي أن أجد لها عملاً أو أن أزودها بقدر من المال .

وفيما كانوا في هذا الحديث إذ أقبل ساعي البريد يحمل الصحف .

نشر الأب إحدى الصحف وراح يقرأ .. وطالعت عيناه عنواناً بارزاً عن حريق المصنع .

وما إن قرأ فيه سطوراً حتى هتف :

- رباه ..! ما معنى هذا؟!

فالتفتت إليه أخته والمصور يسألانه الأمر .. فروى لهما ما كان من حرق المصنع وقتل صاحبه واتهامهم من تدعى جان فورتبييه بهذه الجريمة وكيف فرّت هاربة عقب الحادث مع طفلها جورج .

دهش القوم لذلك دهشاً شديداً .. إن أوصاف الجانية تنطبق تمام الانطباق على هذه المرأة التي لاذت بهم ..! وابنها يدعى جورج .. كابن هذه المرأة ..!

وما عاد لديهم أدنى شك في أن هذه المرأة هي تلك المجرمة التي تطلبها الشرطة في كل مكان .

قال المصور :

هذا عجيب .. فإن لها وجه شريفة طاهرة !

وقال الكاهن :

- مهلاً .. إنها في كنفنا ورعايتنا الآن فليس من اللياقة أن نبادر إلى اتهامها قبل أن نتيين حقيقة أمرها .. وسأحدث إليها برهة .
فقالته أخته :

- وما الذي تنوي أن تفعله إذا كانت هي المجرمة المنشودة ؟!

سأزودها بقدر من المال وأسألها الرحيل فما كنت لأشي بأسرة لاذت بسقف بيتي وطلبت حمايتي ! ..

حين استيقظت جان من نومها دخل عليها الأب لوجيبه مع أخته والمصور فشكرته على ما لقيت من عطفه وحمايته .. فقال لها :

- وهل صار في وسعك مواصلة سفرك الآن يا ابنتي ؟ ..

فتضرج وجهها احمراراً وغضت من بصرها وقالت :

- الحق يا سيدي أنني ما هبطت هذه القرية إلا وفي بيتي أن أقيم فيها .. وقد كنت على وشك أن أرجوك أن تجد لي عملاً أعول به طفلي ! ..

- ألك طفلان إذا ؟

- طفلة تبلغ العام أقمته عند مريض في الريف .. وجورج هذا ..

- وأين زوجك ؟ ..

- لقد مات ..

- ولكن كيف أتمس لك عملاً في هذه القرية قبل أن أعرف اسمك وقبل أن أطلع على أوراك الشخصية ؟

سرت الرعدة في أوصال المسكينة .. صدق الأب لوجيبه .. ليس

في وسعها أن تكتم أمرها طويلاً ..

وفطن الأب إلى ما عراها من اضطراب وقال يسألها :

- ما اسمك يا ابنتي ؟

- جان .

- وما لقبك ؟

- فورتيه .

فقال الأب على عجل :

- إذا فأنت قادمة من الفورنفيل ؟

رفعت جان بصرها إلى الأب بنظرة مليئة بالذعر وقالت :

- فأنت عالم بكل شيء إذا ؟

- نعم .. إني أعلم أينها المسكينة أن الشرطة تطلبك في كل مكان .

- وأية تهمة يواجهون إلي ؟

- إحراق المصنع وقتل صاحبه !

فهتفت بصرخة داوية :

- أشهد الله على أنني بريئة لم أجن ذنباً ! أقسم بابني هذا الذي لا

أحب سواه في العالم أنني لم أرتكب هذه الجريمة .

وكانت نبرات صوتها متهدجة .. حافلة بالصدق .

وتبادل الكاهن وأخته والمصور نظرات تدل على فرط ما نالهم من

تأثر .

وقال الكاهن مترسلاً :

- ولم هربت إذا ما دمت بريئة ؟

- لم هربت؟ نعم .. لم هربت؟ هذا هو السؤال الذي لا أكاد أعلم له جواباً! كانت الريب والشبهات تكتسفي من كل جانب .. وكان لدي دليل قاطع على براءتي .. وحين تفقدته ولم أجده طغى علي اليأس فانطلقت هاربة .

- وأين ذهب هذا الدليل؟

- لا أدري .. وإن لم يكن لدي شك الآن في أن النار التهمت عندما اشتعلت في غرفتي .

ساد الصمت برهة .. ثم قال الكاهن :

- هل لك يا ابنتي أن تروي لي قصتك كلها؟

وراحت جان تحدّثه بكل ما كان من أمرها .. مذ مات زوجها حين انفجرت الآلة فقتلته .. إلى أن فرّت هاربة عقب الحريق حين رأت جاك جارود يقتل صاحب المصنع .

ولما فرغت من قصتها قال الأب لوجيه :

- قصة عجيبة .. ولكنني أصدقك .. إنني أعلم أنك لا تكذبين .. ولكن الشيء الذي أعياني فهمه هو موت جاك جارود .

فقالت جان في دهش :

- وهل مات جاك جارود؟

- نعم .. فقد جاء في الصحف أن ..

وروى لها ما قرأ ..

فهضت جان :

- هذه خدعة يا سيدي! جاك جارود يقدم على هذا العمل المنطوي على الشهامة؟! إنني أعرفه يا سيدي .. إنه أشدّ الأندال حسّة وداعة!

- ولكن الشرطة تحققت من موته!

- تحققت من موته .. ويلاه! .. إذا فلاني هالكة! إذا كان قد مات فلا سبيل إلى إثبات .. نبي! لقد كنت أرجو أن تحمله المواجهة على الإقرار بما فعل!

فقال الأب :

- إنني موقن من براءتك يا ابنتي وإن كان فرارك قد أثبت التهمة عليك .. وأرى أن نمضي إلى الشرطة فتسلمي نفسك وتحاولي أن تثبني براءتك .. فقد يكون هذا أجدى عليك لأنك لن تستطيعي أن تظلي حرة طليقة طويلاً .

- وما يكون من شأن ولدي يا أبتاه إذا ما ألقيت في السجن؟! إنني لا أطيق فراقه!

- هذا ما لا مفر منه يا ابنتي .. لا بد من هذا الفراق عاجلاً أو آجلاً!

وانهمرت العبرات من عينيها وراحت تقول :

- ويلاه .. أقضي عليّ بأن لا أرى ابني .. وابنتي التي عند الموضع في الريف؟!!

فقال لها الأب يسري عنها :

- ولكنك ستثبني براءتك وتعودين إلى ولديك!

وأقبل صغيرها جورج حين رآها تبكي وألقى بنفسه بين ذراعيها وهو يقول :

- لم تبكين يا أماء؟! دعيني أقبلك!

شدت ذراعيها حول بدنه الصغير وعصر الحزن قلبها وقلوب أولئك الذين شهدوا هذا الموقف .

وفي هذه اللحظة قرع الباب .
ذعرت جان لماً سمعت القرع واللغط الذي يصحبه .. وهتفت
بجزع :

- رباء ! لقد جاءوا ! لقد اهدتوا إلى مكاني !
وضعت طفلها إلى صدرها كأنما تنشد منه أن يحميها وأن يرد
عنها القادمين !

فتح الباب ودخل العمدة يصحبه نفر من رجال الشرطة .
تقدم من الكاهن وحيّاه باحترام واعتذر إليه عن تهجمه وقال :
- أنا قادم باسم القانون يا سيدي الأب .
- أعلم ذلك .. لاعتقال امرأة تدعى جان فورتية !
- هو ذاك يا سيدي الأب .. إنها متهمه بالإحراق والقتل والسرقة !
فتقدمت جان خطوة نحو العمدة وصاحت :
- هذا كذب ! إني بريئة !
فقال لها العمدة :

- أنت جان فورتية بوابة مصنع لابرو ؟
- نعم .

- فلاني أقبض عليك باسم القانون إذا .
تهدج صوته واشتد بها اليأس وصاحت :

- اقبضوا علي ! واحكموا بالإعدام إن شئتم ! ولكن هذا السبب
معناه أنني الجائية ! إن أحكامكم لن تهدم براءتي أو تشوهها .. إن
ذلك شهيد على براءتي ..

اقترب منها أحد الجنود وهم بأن يضع القيد الحديدي في يديها
فارتدت مذعورة إلى الوراء وهتفت :

- كلاً .. لا تقيدوني !

فقال لها الكاهن :

- امثلي يا ابنتي .. فما تجدك المقاومة !

ومدت يديها إلى القيد .

وبكى طفلها ! راح يشج ويعول .. وينظر إلى أمه من خلال
عينين ملائهما العبرات .

وحين سار بها الجند تعلق بثوبها وهو يقول :

- أماه .. لا تدعيني ! إني خائف ! لا تذهبي !

فقالت :

- لا نيك يا بني .. يمكنك أن تأتي معي !

فقال رئيس الشرطة :

- كلاً .. هذا محظور .

فاشتد بأسها وصاحت :

- ماذا ؟ أتباعدون بيني وبين ولدي ؟!

- إنك ستذهبين إلى السجن .. أما ابنك فسيرسل إلى الملجأ !

شحب وجهها حين سمعت هذه الكلمات وصاحت :

- الملجأ ! ابني يودع في الملجأ ! محال ! الملجأ !

وتحوّلت إلى الكاهن .. بسطت إليه يدها بتوسل وضراعة
وصاحت :

- أي .. إنهم سينزعون مني ابني ويودعونه الملجأ .. سألتك بالله

أن تفهمهم أن من الحال أن تفارق أم طفلها !

فقال الكاهن :

- أذعني يا ابنتي فالمقاومة غير مجدبة .. ولكن ابنك لن يرسل إلى الملجأ! سأبقيه عندي وأتولى أمره حتى تثبتني براءتك وتعودي إليه! أما إذا حكم عليك بالسجن فسيظل جورج في رعايتي .. ومحال أن أتخلي عنه .. اطمئني يا ابنتي!

ودنت منها كلاريس أخت الكاهن وقالت :

- ثقي يا اختاه أن ابنك سيجد في أمّاً رثما تعود إليه أمه الحقيقية .

واتحدت العبرات من عيني جان وهتفت :

- ربّاه! أفضي عليّ بأن لا أرى ابنتي؟! أي قلب يمكنه أن يحتمل هذه النكبة؟! لا أبالي باتهامات تنهال عليّ .. ولا أبالي بالسجن ألقي في ظلماته .. أما أن يفرّق بيني وبين ولدي ..!

وكان الموقف أليماً مفاجئاً .. لم يكن قلبها وحده هو الذي يتفطر .. وإنما تفطرت معها قلوب جميع الحاضرين .. وحتى أفراد الشرطة لم يملك بعضهم أن ذرف الدموع!

وحملت كلاريس الطفل وكان لا يزال يبكي وقال له الكاهن :

- إن أمك مسافرة يا بني .. وستعود عاجلاً وتأتيك بلعبة جميلة .

- وهل أبقى هنا؟

- نعم يا بني .. وسنلاعبك كثيراً .

- إذا كانت أمي تريد أن أبقى هنا فسأبقى!

فقلت جان وقلبها يتوجع :

- نعم .. ابق هنا يا بني!

- على شرط أن تعودني عاجلاً .

- نعم .. سأعود عاجلاً .

ثم تحولت إلى أخت الكاهن وقالت لها :

- خذيه يا سيدتي .. اجعليه كأنه ولدك! أحبيه .. وذكره دائماً بأمه وعلميه أن يحبها .. قولي له إنها بريئة لم تكن ذنباً!

ثم ضمت ولدها إلى صدرها واتحنت عليه بالقبلات وهتفت :

- بني .. إن أمك تفارقك قهراً عنها .. لو أن الأمر كان بيدها لغللت أثناء الليل وأطراف النهار تضمك إلى صدرها وتغمرك بقبلاها .. إني أحبك فلا تنسي! لا تنسي!

ثم أولته ظهرها وانطلقت مسرعة قبل أن نخونها قواها .

وفي ركن من الفناء كان المصور إثنين واقفاً يتأمل هذا المشهد في سكون .

ولما انصرف القوم التفت إلى الكاهن وقال :

- سأجعل من هذا المشهد لوحة خالدة .

وأخرج مفكرته ورسم فيها خطوطاً ودون بعض المذكرات .

مثلت جان فورتييه أمام قاضي التحقيق فقال لها :

- والآن هم تحييين عن هذه التهمة الثلاثية الموجهة إليك؟

- ليس لدي إلا جواب واحد .. هو أنني بريئة .

- ولم فررت هاربة إذا ما دمت بريئة؟

- فلاذت بالصمت ولم تحب .

فعاد يقول :

- تكلمي .. ما بالك لا تحييين؟

- وما الجدوى وأنت لن تصدق حرفاً مما أقول؟

- هذا لأنك تكذبين!

- إني لا أنطق بغير الحقيقة .. ولكن الأدلة كلها تؤيد التهمة

ضدي .

- أتكرين إذا أنك قتلت صاحب المصنع؟

- بلا ريب .

- وهل تنكرين أنك كنت حاقدة عليه؟

- طبعاً .. إذ ما الذي يدعوني إلى الحقده عليه؟

- لقد طردك من مصنعه .

- إنه لم يطردني يا سيدي .. لقد وعدني بأن يجد لي عملاً آخر حين أدرك أنني لا أصلح لحراسة الباب .

- وهل تنكرين أنك أنت التي أحرقت المصنع؟

- كل الإنكار .

- وما دليلك على براءتك؟

- لا دليل لدي .

- ولكن الأدلة قائمة تثبت أنك أنت الجانية .. أما اشتريت من زيت البترول قدرًا كبيراً في يومين متتاليين؟

- هذا صحيح .

- وقد وجدت الزجاجات فارغة في ورشة النجارة وفي المكتب .

- إنها إذا مكيدة دبّرت للإيقاع بي !

- وقد كسرت الخزانة وسرقت ما فيها من أموال فلماً فاجأك السيد لابرو لم تترددي في قتله .

فقلت بإصرار :

- أنا لم أحرق .. ولم أسرق .. ولم أقتل !

فضحك قاضي التحقيق هازناً وقال :

- وبأية حجة تلتصين إقناعي ؟! أتحسيتني غراً ساذجاً ؟!

- كنت أتوقع منك هذا من قبل يا سيدي ! نعم .. إني أعلم أنك لن تؤمن بما أقول .

- ووعيدك للسيد لابرو .. أتكرين أنك توعدته قبل الحادث بأن قلت له إنك لن تلقى خيراً بعد طردني ؟!

- نعم قلت له هذا .. ولكنني لم أكن أرمي إلى الوعيد .. قصدت أن أقول إن اضطهاد أرملة مسكينة مثلي لا يمكن أن يكون نذير خير .. إنها كلمات عادية يجري بها اللسان دائماً دون أن تحمل معنى الوعيد .

- ولكنك كنت تعلمين أن في خزانته مالا إذ كنت حاضرة عندما جاءه المحاسب .

- هذا صحيح يا سيدي .. ولكن أما يعلم الإنسان بوجود مال إلا أقدم على سرقة ؟!

فقال القاضي وهو ينظر إليها بتهكم :

- وفرارك ؟! إنه وحده دليل قاطع على إجرامك !

- بل دليل على ضعفي .. فقد أفرغني ما سمعت من القاتل .

- ويحك .. أتريدني أن تقولي إنك تعرفين القاتل ؟

- بل رأيته وهو يسدد الطعنة القاتلة إلى السيد لابرو ..

- ومن يكون هذا القاتل ؟

- جاك جارود مراقب المصنع !

فقهقه القاضي ضاحكاً وقال :

- أما كان في وسعك أن تتهمي رجلاً آخر ؟! أما وجدت غير ذاك الذي مات شهيداً مروءته وشهامته ؟!

- لقد بلغني أنه مات .

- إذا كيف خطر لك أن تتهميه بعد ذلك؟

- لأن تلك هي الحقيقة .

- وما برهانك عليها؟

- كان لدي برهان قاطع .

- وأين هو؟

- التهمة النيران فيما التهمت .

- فضحك هازناً مرة أخرى وقال :

- عجباً لك . . أتريدني مني أن أصدق كل حرف يجري به

لسانك فإذا سألتك البرهان والدليل عجزت وقصرت؟!

- هل لك يا سيدي القاضي أن تسمع حكايتي كلها؟

- تكلمي .

- فراحت تروي له قصتها كما روتها للكاهن من قبل .

ولكن إذا كانت جان قد لقيت من الكاهن إيماناً وتصديقاً فما

لقيت من قاضي التحقيق إلا إنكاراً وسخرية .

وحين فرغت من قصتها قال لها :

- ينبغي أن أشهد بأن لك خيلاً خصباً رائعاً!

ومع ذلك فقصتك الملتفة تهدم نفسها بنفسها . . تقولين إن جاك

جارود بعث إليك بكتاب فيه الدليل القاطع على براءتك . . فما كان

مصير هذا الكتاب؟ ألقيته على الأرض . . فهل هذا ما يفعله المرء

برسالة لها هذه الخطورة؟

وتقولين إن السيد لافرو كان شديد العطف عليك وإنك كنت غير

حاقدة عليه . . ومع هذا لم تحاولي أن تمدّي يداً إلى إنقاذه وأنت

ترين القاتل يسدّد إليه الطعنة المميتة؟!

ثم إنك اخترت لتوجيه اتهامك رجلاً ميثاً حتى لا ينقض كلمة مما
تقولين!

كلّاً . . يا سيدتي . . إن هذه القصة الملتفة وإن بلغت من الحبكة

والإتقان حدّاً عظيماً إلا أنها لا يمكن أن تقنعني!

فهتفت المسكينة بياس :

- لا دليل لديّ على براءتي . . ولكنني أتوسل إليك أن تؤمن بأنني

لا أنطق إلا بالحقيقة .

فقال لها القاضي :

- ألا ترين أنه يحسن بك أن تقري بالحقيقة بدلاً من هذه

المداورات والمحاورات التي لن تجديك نفعاً والتي قد تزيد مركزك

سوءاً وحرماً؟!

- ولكنها الحقيقة هي تلك التي أكشفك بها يا سيدي!

فأدركته السأمة وقال :

- إذا فأنت ما زلت متشبثة بالإكثار! هذا شأنك .

ودق الجرس وأمر بإرسالها إلى السجن .

بعد أيام مثلت جان فورتييه أمام المحكمة .

كانت الأدلة دامغة يزاحم بعضها بعضاً . . أما المسكينة فلم يكن

لديها دليل نفي واحد . . وكانت قصتها في رأي الجمهور والقضاة

أشبه برواية خيالية أوحى بها خيال خصب .

وأخيراً حلت اللحظة الرهيبة . . . ونطق القاضي بالحكم . .

السجن المؤبد!

وأطلقت المسكينة صرخة داوية وترنحت مغنى عليها .

صرخة أودعتها أحزانها الساحقة .. أودعتها حبها الراسخ لذلك الصغير الذي حيل بينها وبينه .. مدى الحياة .

- ١١ -

كانت الباخرة لورد مير تشق البحار صوب البلاد الأميركية وعلى متنها جاك جارود .. وقد اتخذ لنفسه اسم بول هرمان .

وجاء أحد ضباط الباخرة عقب إقلاعها وراح ينادي بأسماء ركاب الدرجة الأولى ويدفع إلى كل واحد أوراقه الشخصية .

وكان جارود مستنداً إلى الحاجز مرسلأً البصر إلى البحر وهو يفصل بينه وبين تلك البلاد التي ارتكب فيها جريمته الثلاثية .

على أنه كان من حين إلى آخر يختلس النظر إلى كهل تدل سمته على أنه أميركي الجنسية .. وكانت يرففته ابنته الحسنة .

ونطق الضابط باسم نيومي مورتيمر والأنتة مورتيمر فلبى الكهل وابنته النداء ثم دفع إليهما أوراقهما .

وأخيراً نطق باسم جاك جارود ودفع إليه الأوراق . وكان بين ركاب الدرجة الثانية شاب يرقب ركاب الدرجة الأولى

بفضول ودون قصد معين .. وكان يدعى أوليفد سوليفر . ولكن حين سمع اسم بول هرمان سرت في أوصاله رجفة وقال

في نفسه : عجباً ! بول هرمان ابن خالي ! .. لقد حسبناه ميتاً فإذا هو حي

يرزق ! وأرسل بصره إلى جاك جارود في نظرة فاحصة .. ثم قال في نفسه :

- هذا عجيب ! إنني لم أر ابن خالي إلا مرتين .. ومع ذلك فلا أرى بينه وبين هذا الرجل إلا شبهاً ضئيلاً ! ولكن ما يدريني أنهما رجلان مختلفان وإن كانا يحملان اسماً واحداً ؟

تروى أوليفد سوليفر في الأمر برهة ثم قال في سره :

- لا بد لي أن أثبت أن هذا الرجل ! أهو حقاً ابن خالي ؟ ولكن كيف السبيل إلى الاتصال به وركاب الدرجة الثانية محظور عليهم أن يصعدوا إلى جناح الدرجة الأولى ؟

فلأبعث إليه إذا برسالة أدعوه فيها إلى مقابلتي . وغادر مقصورته وصعد إلى متن السفينة ووقف عن كשב من

حاجز الدرجة الأولى .. واتفق في هذه اللحظة أن أقبل الأميركي نيومي مورتيمر فأشار إليه أوليفد وقال :

- سيدي .. أسمح بأن تسدي إليّ خدمة ؟ - بكل ارتياح .

- إن بين ركاب الدرجة الأولى ابن خال لي كنتا نحسبه ميتاً .. فهل لك أن تدعوه إلى مقابلتي إذ محظور علينا نحن ركاب الدرجة

الثانية أن نتقل إلى الجناح الخاص بكم ؟ - بكل ارتياح .. وما اسم ابن خالك هذا ؟

- بول هرمان .. أما أنا فأدعى أوليفد سوليفر . - حسناً .. سأدعوه إليك إذاً .

ومضى الأميركي إلى مكتب الإدارة وعهد إلى أحد الخدم بأن يحمل الرسالة إلى من يدعى بول هرمان .

ولمّا أفضى الخادم إلى جاك جارود بالرسالة التي جاء يحملها امتنع وجهه وقال :

- ولكنني لا أعرف أحداً بهذا الاسم؟

- إنه من أهالي ديجون يا سيدي وهو يقول إنه ابن خالك ..
وكان يحسبك ميتاً .

فهتف جاك جارود :

- آه .. ابن عمتي .. أوليد سوليفر .. هنا .. إني ذاهب إليه .

ومضى إلى غرفته مسرعاً فراجع أوراق تحقيق الشخصية الخاصة
بيول هرمان ليتبين ما فيها من أنساب والقباب .. وأيقن أن بول
هرمان ينحدر من أسرة سوليفر حقاً .

ثم راح يقول في نفسه :

- وما عساي أن أفعل الآن؟ إذا تخلفت عن لقائه فربما أثرت
شبهاته .. وإذا ذهبت فقد يتبين أنني مدّع كاذب .. ومع ذلك فمن
الخير أن أذهب ..

فقد كانت الجراءة الشاذة قاضية على ما قد يهيجس بنفسه من
وساوس .

ومضى إليه بغير تردد .

قدّم كل من الرجلين نفسه إلى صاحبه وذكر اسم أسرته التي
ينتسب إليها .. فهتف أوليد :

- إذا فأنت ابن خالي ! لقد كنّا نحسبك ميتاً !

- وكيف جاءكم هذا النبأ؟ ..

- هذا ما جرت به الألسن في بلدنا منذ خمسة أعوام .. هبط
ديجون أحد العمال قادمًا من باريس وأنبأ أمك بأنك مت في
المستشفى .. فسحقته الصدمة وأصيبت بحمى شديدة ما لبثت أن
قضت عليها .. وفي غمرة هذه النكبة لم يخطر لأحد أن يتصل

بالمستشفى ليتبين الحقيقة .. ولا ريب أنك علمت بموتها .

- نعم .. لقد بلغني النبأ فحزنت لذلك حزناً شديداً .

- وطبعاً سافرت إلى ديجون وأصبحت الإرث الذي خلفته لك .

- طبعاً .

- أمّا أنا فلم أصب شيئاً .

- إذا فقد مات أبواك؟

- نعم .. منذ عامين .. لقد اندثرت أسرتنا فلم يعد باقياً من أسرة
سوليفر سواي ومن أسرة هرمان سواك .

ثم ابتسم وقال مسترسلاً :

- إننا لم نلتق منذ ستة أعوام .. ولو لم يُذكر اسمك أمامي لما
عرفتك . ولكن خبّرني ! أذكر اجتماعنا الأخير في مرسيليا؟ إنك لم
تكن في ذلك العهد ثرياً ! فمن أين لك ما أرى عليك من مظاهر
الثراء؟

- إني لست ثرياً .. ولكنني لست فقيراً .. لقد وفقت إلى اختراع
درّ عليّ بعض المال .

فهز أوليد سوليفر رأسه وقال :

- لا بدهشني أن تكون مخترعاً فقد كنت أبرعنا في مدرستي
شالمون والفنون والصنائع .

فتنهّد جاك جارود وقال :

- الحق أن أيام الدراسة كانت أياماً لا تنسى .. ولكن بم تشتغل
الآن؟

- بمهتي نفسها .

- وما هي مهتك؟

- فقال أوليد باستغراب :
 - عجباً ! أنسيت أنني ميكانيكي؟
 فاستدرك جاك وقد علم أن لسانه قد زل وقال :
 - لم أنس طبعاً . . ولكن ذهني شرد قليلاً . . وإلى أي بلد
 تقصد؟ . .
 - نيويورك .
 - وهل تظن أن من السهل أن نجد لك عملاً فيها؟
 - بل لقد وجدت فعلاً . . سأعمل ميكانيكياً في مصانع أميركي
 يدعى نيومي مورتيمر .
 - أتعرفه إذا؟
 - بالنظر . . إنه ذلك الأميركي الكهل الذي رأيتك تنظر إلى ابنته
 بانتان . . والحق أنها أجمل من بيريت .
 - ومن تكون بيريت هذه؟
 وبدت الدهشة على وجه أوليد وقال :
 - عجباً . . كيف نسيت بيريت؟ . . تلك الفتاة التي فتنك حباً
 فيما مضى !
 وللمرة الثانية عرف جاك أنه ارتكب هفوة أخرى !
 وقال جاك مستدركاً :
 - لقد نسيتها لطول العهد بها .
 ولكن مع الاعتذار لم يخدع أوليد . . وقال في نفسه :
 - عجباً . . ما الذي دهاه ؟ لقد نسي أنني ميكانيكي . . ونسي
 المرأة التي أحبها . . والمرء لا ينسى حبيبته بمثل هذه السهولة !
 وعمد جاك إلى تغيير مجرى الحديث على عجل فقال :

- إذا فستعمل في مصانع نيومي مورتيمر؟
 - نعم وتعاقدت مع وكيله لمدة ثلاثة أعوام . . . ومورتيمر هذا من
 كبار المخترعين . . وقد اخترع منذ عهد قريب آلة للصقل ستحدث
 عند ظهورها انقلاباً في عالم الصناعة .
 ارتعد جاك جارود وشحب لونه . . آلة للصقل ؟! أتراها ستكون
 قاضية على تلك الآلة التي من أجل أن يسرق رسومها ارتكب ثلاث
 جرائم رهية ؟!
 وقال أوليد سوليغر مسترسلاً :
 - ولعلهم أخبرني في هذا النوع من الآلات اتفقوا معي على
 خمسمائة فرنك أجراً شهرياً .
 - هل لك أن تصف لي هذا الاختراع الجديد الذي يؤمل مورتيمر
 أن يهز به الأسواق؟
 فراح أوليد سوليغر يحدث «ابن خاله» عن التحسينات التي
 أدخلها مورتيمر على آلة الصقل المعروفة .
 وكان جاك في خلال ذلك قد خلع قبعته وراح يمسح جبينه الذي
 لعب عرقاً .
 وكانت الصبغة التي صبغ بها جاك شعره قد بدأت تزول لمضي
 خمسة أيام عليها . . ففطن أوليد إلى ما بين شعر ابن خاله وشعر
 هذا الشاب المائل أمامه من اختلاف وقال في نفسه :
 - عهدي بشعر ابن خالي بول أسود فاحم . . أما هذا فشعره
 مصبوغ بالسواد !
 ولم يعد يخالجه أي شك في أن هذا الرجل مدع انتحل اسم بول
 هرمان .

ولم يخف على جاك جارود أن أوليد يرتاب في أمره . . وقال في نفسه :
- الويل لي إذا ! فلإن الشكوك إذا تحركت لم تسكن إلا إذا بلغت مرتبة اليقين .

وتصافح الرجلان وانصرف كل إلى شأنه .

في زاوية منعزلة من السفينة وقف أوليد سوليفر يتدبر الأمر . . إنه الآن موثق من أن هذا الرجل دعيّ أفاق . . ولكن ما غايته من انتحال اسم بول هرمان ؟ وما كان ابن خاله غنياً وما يرجى خير من استعارة اسمه ؟

وتمنى لو أنه نزل بالدرجة الأولى حتى يسهل عليه مراقبة هذا الدعي . . ولكن من أين له المال الذي يمكنه من الانتقال إلى إحدى غرف الدرجة الأولى ؟

وفيما كانت هذه الخواطر تغزو ذهنه حانت منه لفظة فرأى رجلاً في الخامسة والستين يصعد إلى متن السفينة وهو يحمل كيساً من الجلد مشدوداً إلى وسطه . .
قال أوليد في نفسه :

- في هذا الكيس ستون ألفاً من الفرنكات من الأوراق النقدية . . لقد رأيت بنفسي يحصوها . . ألا ليتني أستطيع أن أسرقها لأنتقل فوراً إلى جناح الدرجة الأولى .

وراح يسير على السفينة جيئةً وذهاباً وهو يفكر في وسيلة يسرق بها هذا الكيس .
وفي تخطئه مرّ برجلين يتحدثان بصوت منخفض . . وكانت كلماتهما تنتهي إلى سمعه .

ومن حديثهما عرف أن أحدهما طبيب والآخر من أهل كندا .
كان الكندي يتحدث عن دواء عجيب يصنعه الهنود الحمر من بعض الأعشاب التي تنبت في مجاهل أمريكا . . من خصائصه أنه يزيل الحمى في خلال ساعات قليلة مهما كانت مزمنة مستعصية . . هلى أن خاصيته الكبرى العجيبة كانت في إرغام من يتناول منه ملعقة صغيرة على الإفشاء بكل ما يخفي . . إذ يصاب بهذيان وقتي لا ي طول أكثر من ربع ساعة يبوح في خلاله بكل أسرار .
وقال أوليد سوليفر في نفسه وهو يسترق السمع إلى هذا الحديث :

- لو أنني ظفرت بملعقة من هذا الشراب لانتزعت من ابن خالي أسرارته التي يتكتمها .
وقال الطبيب الشاب :

- الحق أنه إكسير عجيب ! ولكني لا أصدق هذه المزاعم إلا إذا قمت بنجربة هذا الإكسير بنفسي ، فأين يمكن أن أجده ؟
فقال الكندي مجيئاً :

- في نيويورك . . عند شوشيلينو . . رقم ٢٤ بالشارع الحادي عشر .

وأسرع أوليد يدوّن هذا العنوان في مفكرته وهو يقول في نفسه :
- لا بد لي من ملعقة من هذا الإكسير !

في الوقت الذي كان فيه هذا الحديث يدور بين الكندي والطبيب كان جاك جارود في قاعة الاستقبال يتلمّس وسيلة إلى التعرف بالأميركي نيومي مورتيمر .

التفت فرأى ابنته تعزف على البيانو لحناً فرنسياً . . فلما فرغت

الأميركي . . وراحا يتحدثان عن الحالة الصناعية والاختراعات
الميكانيكية الحديثة .

وراح مورتيمر يتحدث عن آلة الخياطة المعروفة باسمه والتي
اخترتها مصانعه وما أصاب من ورائها من أرباح جسيمة .
فقال جاك جارود :

- ولكن اسمح لي أن أقول إن فيها عيباً واحداً .

- أي عيب يا ترى؟

- صوتها المزعج .

فقال نيومي مورتيمر :

- صدقت . . ولقد حاولت أن أثلافي هذا العيب وكترست له
جهود خمسة أعوام فلم أظفر بنتيجة .

فابتسم جاك وقال :

- لو أنك كترست جهود خمسة أعوام حقاً لأفلحت حتماً !

- أنعني أنك وقفت إلى ما قصرت أنا دونه؟

- يجوز .

- أيمكن فضولاً مني أن أسألك أن تحدثني عن الطريقة التي يمكن
بها ملافاة هذا العيب؟

- وراح جاك جارود يشرح نظريته ببراعة . . ولباقة الميكانيكي
الذي يفهم مهنته ويدرك دقائقها .

فلما فرغ من إيضاحاته قال مورتيمر :

- لا شك عندي أنك أصبحت النجاح ! إن هذا الاختراع خلاق بأن
يسمى «آلة الخياطة الصامتة» . . متى تنوي أن تخرجها إلى السوق؟

- متى أنوي أن أخرجها إلى السوق؟ إنني لا أنوي إخراجها إلى

منه أبدى إعجابه بما عزفت وهتف يقول :

- لشد ما يفتني أن أصغي إلى الموسيقى الفرنسية !

فابتسمت له الفتاة وقالت :

- أنت فرنسي يا سيدي؟

وكانت هذه العبارة استهلال حديث غير قصير ذكر لها جاك في
خلاله أنه ميكانيكي . . وأنه يقصد نيويورك لزيارة مصانعها . . وقال
مسترسلاً :

- ولا سيما مصانع مورتيمر التي يقال إنها من أعظم مصانع
نيويورك .

فابتسمت الفتاة ولم تقل له إنه إنما يتحدث إلى ابنة مورتيمر
نفسه . . وإنما قالت :

- وهل تعرف هذا الرجل يا سيدي؟

- كلا . . وإن كنت أنوي بطبيعة الحال أن أتعرف إليه .

- أتحب أن أتولى تقديمه إليك؟

- إنني أكون شاكراً ممتناً . . إذا فأنت تعرفينه؟

فابتسمت هيلين وقالت :

- إنه أبي !

فتظاهر جاك بالدعش وقال :

- أبوك ! دعيني أهنئك إذاً يا آنستي . . فهو من نوابغ هذا العصر .

- دعني إذاً أقدمك إليه . . ما اسمك يا سيدي؟

- بول هرمان .

- هيا بنا إليه .

سارت الفتاة بيول هرمان إلى أبيها وقدمته إليه فرحب به

السوق مطلقاً .. إنني أتخلى لك عن هذا الاختراع الجديد .

فقال الأميركي :

- محال أن أقبل هذا العرض .. إن آلة الخياطة الصامتة جديدة بأن تدرّ ربحاً عظيماً فكيف نتخلى عنها؟

فقال جاك جارود :

- إنني مصر على التخلي عنها حتى ولو أتتني بمئات الألوف !

فقال مورتيمر في نفسه :

- إنه فيما أرى شاب نبيل .. ألا ليتني أستطيع أن أجعله مديراً لمصانعي !

ثم قال :

- إذا أردت مني أن أقبل هذا التنازل فلي شرط واحد .

- وما هو؟

- أن تقاسمني الربح .. إنني أنا الذي اخترعت آلة الخياطة ولكن أنت الذي أدخلت عليها هذا التحسين الجليل الفائدة .. فمن حقت أن تشاطرنى الربح .

فهز جاك جارود كتفيه وقال :

- أشكرك على هذا العرض الكريم .. ولكني لا أريد أن أشغل نفسي الآن بهذا المشروع الضئيل .. فإن ذهني مكثف بمشروع ضخم .

- أنتوي أن تنشئ مصنعاً في بلادنا؟

- نعم .. لإخراج آلات الصقل .

واضطرب مورتيمر حين سمع هذه العبارة .. وكان هذا هو ما يرمي إليه جاك جارود .

لقد عرف من أوليد سوليفر أن مورتيمر وفق إلى آلة جديدة

للمصقل .. فرمى بحديثه هذا إلى غاية بعيدة .

وقال نيومي مورتيمر متكتماً سره :

- إنني لا أظن أن من الممكن تحسين آلة الصقل المعروفة .

فابتسم جارود وقال :

- وماذا تقول إذا أنيأتك أنني وفقت فعلاً إلى اختراعها؟

- ماذا تعني؟

- أعني أن الآلة الموجودة تصقل الأجسام المسطحة .. أما الآلة التي أنوي إخراجها فتصقل حتى الأجسام المقعرة .

ما إن سمع مورتيمر هذه الكلمات حتى شحب لونه .. فقد كانت هذه هي بعينها الآلة التي ينوي أن يغزو بها السوق ! فهل جاء هذا الفرنسي لكي يزاحمه؟

وساد الصمت برهة .. وكان مورتيمر في أثنائها غارقاً في غواطره .

ثم رفع رأسه وقال :

- أصغ إلي يا صديقي .. إنني أريد أن أكاشفك بما أضمر في غير

سوارية أو خفاء ! لا ريب عندي في أن آلة الصقل الجديدة التي

حدثتني عنها ستدر عليك ربحاً جزيلاً .. ولكن ألا ترى أن من

المجازفة أن تنشئ مصنعاً في بلادنا وأنت غير خبير بعاداتنا وطباعنا؟

- هذا صحيح .. ولكن أيسعني أن أفعل غير هذا الذي عزم

عليه؟

- طبعاً .

- وكيف؟

- بأن تصبح شريكاً لي تقاسمني الربح بدلاً من أن تجازف

بأموالك بإنشاء مصانع جديدة . . . يمكنك أن تبدأ عملك بإخراج
آلتي الخياطة والصقل على أن يكون لك نصف الأرباح . . . وسأقدم
إليك الآن شيكاً تحت الحساب بخمسين ألف دولار .

استطار الفرح جاك جارود . . . ولكنه أراد أن يبدي ممانعة استدرجاً
للأميركي للوقوع في الفخ الذي نصبه له .
وانبرت هيلين تندخل في الأمر وقالت :

- إذا رفضت يا سيدي أن تشارك أبي كنت كمن ينبد صداقتنا .
فقال جاك جارود باسمًا :

- أمام هذا الرجاء لا أستطيع يا آستي أن أترجع !
فشد مورتيمر على يده وقال :

- إذا فقد أصبحنا شريكين . . . والآن خبرني . . . هل أنت متزوج ؟
- كلاً يا سيدي :

- إذا سافرد لك في منزلي جناحاً تقيم فيه .

- شكراً جزيلاً يا سيدي .

ثم قال في نفسه :

- ولن تمضي شهور قليلة حتى أصبح زوجاً لابته !

حقاً لقد ابتسم لي الحظ .

ولكن حين طافت بذهنه صورة أوليفر سوليفر اكفهر وجهه وقال
في نفسه :

- إنه هو الذي ينقص عليّ حياتي . . . ولكنني سأجد وسيلة أفهره
بها وأجعله أطوع لي من بنائي .

- ١٢ -

عند ظهر اليوم التالي احتشد الركاب على متن الباخرة يتفرجون
على بارجة حربية تمر عن كئيب .

وترك جاك جارود المحتشدين ومضى يبحث عن أوليفر سوليفر . .
ولم يركن منزو من الباخرة له مترصاً وفي يده خنجر يحاول أن
يخفيه . . فانزوى جاك جارود في ركن قريب وراح يرقب ما يفعل
أوليفر . . ورآه يدنو من رجل مستند إلى حاجز الباخرة يتأمل البارجة
الحربية .

رفع أوليفر أذيال الجاكتة فأنكشت عن كيس مشدود إلى وسط
الرجل . . فأجرى خنجره على أربطة الكيس فانقطعت ودسه في
جيبه . . ثم ارتد مسرعاً وسار إلى غرفته .

وبرز جاك من مخبئه وقال له :

- ويحك . . ! ما الذي سرقته ؟ . .

امتقع وجه أوليفر سوليفر وقال وهو يتلعثم :

- ماذا سرقته ؟ لا شيء طبعاً

- دعك من الإنكار فهو لا يجديك !

وقبض على ذراعه ودفعه إلى ركن بعيد عن الركاب وقال له :

- لقد رأيتك وأنت تسرق الكيس . . ولا بد من إعادته إلى

صاحبه . . ! لقد دُنت شرف أسرنا . . ولولا ما أخشاه من الفضيحة
لدفعت بك إلى الريان فيزجك في السجن .

فراح سوليفر يتوسل إليه أن يعفو عنه . . فقال له جاك :

- أعد إليّ هذا الكيس . . وخبّرني عما فيه .

- إن فيه ستين ألف فرنك .

- حسناً . . انتظرني حتى أرجع إليك . . إنني ذاهب لأعيد المال

إلى صاحبه .

انطلق جاك جارود إلى صاحب الكيس ودفعه إليه وهو يقول :

- أهذا كيسك يا سيدي؟

ويذعر تحسّس الرجل موضع كيسه ثم هتف :

- رباه .. إنه هو بعينه .

- لقد سرق منك وهأنذا أعيدته إليك .. فانظر إذا كان قد نقص

منه شيء .

أحصى الرجل أوراقه التقدية فوجدها سليمة لم ينقص منها ورقة واحدة .. فقال :

- ولكن كيف وصل هذا الكيس إليك يا سيدي؟

- تعال معي أنيثك بالأمر .

وسار به إلى سوليفر الذي كان منزوياً على البعد يرقب ما يجري .

أوماً إليه جاك وقال :

- هذا يا سيدي هو الرجل الذي سرقك ! إنه يستحق العقاب ..

ولكني أعرف أنه من أسرة كريمة .. وأحب منك أن تغفر له ما فعل .

وراح سوليفر يتوسل إليه .. فقال الرجل :

- إكراماً لهذا السيد أعفو عنك .. ورحمة بأسرتك الشريفة ..

ولكن احذر أن تعترض طريقي بعد هذا وإلا ألقيت بك في السجن !

واعلم أنني لن أنسى وجهك فكن على حذر .. ولكن ما هو اسمك؟

فقال جاك :

- أوليفر سوليفر .

وما إن سمع الرجل هذا الاسم حتى قال :

- أوليفر سوليفر؟ إني أعرف هذا الرجل ! كان عاملاً في شاطئ

الذهب .. وصدر إلي الأمر مرة باعتقاله بتهمة السرقة !

وأطرق سوليفر لا يجرؤ على الإنكار . أمّا جاك فقال :

- إني لا أعرف من ماضيه ما نعرف .. ولكن أرجوك أن تبر بوعدك فلا تبلغ أمره إلى الربان .

- سأكون عند كلمتي يا سيدي .. وإني شاكر لك ما فعلت ..

ويسرنني أن أستقبلك في منزلي في نيويورك .. إني مقيم في رقم

٥٦ بالشارع الحادي عشر .. واسمي رينيه بوسك .. وقد كنت من

قبل من ضباط البوليس السري ثم اعتزلت العمل .

حين انصرف الشرطي السابق وخلا جاك جارود بأوليفر سوليفر

قال له :

- تباً لك يا ابن العمة ! لا تكاد نلتقي بعد تلك الغيبة الطويلة

حتى ترتكب هذه الجريمة الفاضحة على سمعي وبصري !

- عفواً يا ابن الخال ! إنه إغراء المال وأنا فقير لا أملك سوى

مرتبي .

- فقال جاك جارود باحتقار :

- لم يكن في الكيس إلا ستون ألفاً .. فهل يدير رأسك مثل هذا

المبلغ الضئيل؟

وساد الصمت برهة .. ثم قال جارود مسترسلاً :

- إذا وعدتني بالطاعة العمياء منحتك ثروة جديدة بأن تدبر

الرأس .

فهتف سوليفر باغتياب :

- حقاً؟

- بلا ريب .

- إني إذا رهن إشارة منك . . وكيف أملك أن أعصي لك أمراً وفي وسعك أن تزجني في السجن عقاباً لي على هذه السرقة التي ارتكبت؟

- وأنا لن أشي بك إلا إذا أبيت أن تدعن لمشييتي .

- وما الذي تبغيه مني؟

- لا تحدثني إلا إذا كنا في خلوة . . فإذا كنا أمام الناس فتظاهر بأنك لا تعرفني . . إذ لا أحب أن يقال إن في أسرتي لصاً وضيعاً ولا سيما أنني أصبحت شريكاً لمورتيمر .

فهتف أوفيد سوليفر باستغراب :

- أنت أصبحت شريكاً لمورتيمر؟

- وسأكون صهراً له عاجلاً . . فاحذر أن تغضبني وإلا طردتك من مصانع مورتيمر . . أما إذا ظفرت برضائي فسأرفع أجرك وأجعلك مراقباً للمصنع كما أنني لن أبخل عليك بأموالي .

فقال سوليفر بخبث ودهاء :

- إني أعلم أنك بحاجة إلى معونتي . . ولا يعنيني أن أنحرى الأسباب إذ حسبي من الأمر كله أن نحشو جيوبي بالمال فأمنحك لقاء ذلك إرادة خاضعة لإشارة منك .

- إذا فقد اتفقنا .

ودس جاك يده في جيبه فأخرج رزمة من الأوراق النقدية دفعها إلى أوفيد وهو يقول :

- وهذا مبلغ تحت الحساب تنفق منه حتى تبلغ نيويورك .

- شكراً لك يا ابن الخال العزيز .

- صه . . إني لا أحب أن أسمع هذا اللقب بعد الآن . . إياك أن يعرف أحد من الناس أنني أمت إليك بصلة من القرابة .
وحين خلا أوفيد سوليفر بنفسه قال :

- لقد انتزع مني ابن الخال العزيز ستين ألفاً من الفرنكات بعد أن استقرت في جيبي . . ولكن لا ضير عليّ من هذا ما دام في وسعي أن أنال منه أضعافها بعد ذلك . . على كل حال أنا أعلم أنه يطوي سرّاً خطيراً . . وأنه ما انتحل اسم بول هرمان إلا لغاية شريرة في نفسه . . وسأكشف سرّه وأتخذ منه سلاحاً أنوعده به إن ضنّ عليّ بالمال . . ولا سبيل لي إلى معرفة ما يطن إلا باستعمال إكسبير الحقيقة . . فلاثريث إذاً حتى أبلغ نيويورك .

وفي نيويورك تحققت أحلام جاك جارود .

لم يمض شهران حتى تقدم إلى نيومي مورتيمر يطلب يد ابنته فأجابه إلى طلبه باغبات .

وحضر أوفيد سوليفر حفلة العرس . . واطلع على الأوراق المشينة لشخصية ابن خاله وأنه يدعى بول هرمان . . فقال في نفسه :

- رباه . . أتراني كنت مخطئاً واهماً؟! أليكون هذا الرجل حقاً ابن خالي؟

أما جاك فراح يرفع من قدر سوليفر ويزيد مرتبه حتى أصبح بعد شهر قليلة مساعداً للمراقب يتقاضى مائتي دولار في الشهر .

وتتابعت الأيام ونسي جاك ماضيه !

لم يعد يذكر أنه قاتل أليم . . وأن الاسم الذي يحمله منتحل مستعار . لقد بات يعتقد أنه هو بول هرمان حقاً . . وأنه إنما أصاب

ما أصاب من مجد وثروة ونجاح بذكائه ونبوغه .. لا من طريق ذلك
الاختراع الذي سرق رسوماته وقتل صاحبه .

انطوى الماضي ولم يعد يحيا إلا لحاضره ومستقبله .

إلى أن جاء يوم قرأ فيه في الصحف أن القضاء الفرنسي حكم
على من تدعى جان فورتبييه بالسجن المؤبد بتهمة القتل والسرقة
والإحراق .

لم ينبض في قلبه عرق بالرحمة .. لا ولم يؤثبه ضميره على ما
فعل واقتترف .. بل لقد شاع في نفسه الابتهاج .. وأيقن بالنجاة إذ
كان هذا الحكم آخر ستر يلقى على الماضي البغيض .

وفي الوقت الذي كان فيه جاك جارود يتسم لصدور الحكم على
جان كانت المسكينة في المستشفى تعاني تلك الحمى القاسية التي
حلت بها عقب إغمائها عند سماعها الحكم عليها .

نقلت جان إلى المستشفى في حالة خطيرة .. ولما شفيت كانت قد
أصابها لومة من الجنون .

لم تعد تذكر من ماضيها شيئاً .. هي الأخرى غشى ذهنها ستار
من النسيان ولكنه كان من نوع يختلف عن ذلك الستار الذي غشي
ذهن جاك جارود .

كان جنونها هادئاً ساكناً لا يصحبه شيء من التوبات فأيقن
الأطباء أنها لا بد أن تشفى يوماً ما وإن طال بها الداء .

أمّا ولدها الصغير جورج فعاش في كنف الكاهن الأب لوجيه ..
لقد اتخذته أخته كلاريس ابناً لها وأسبغت عليه اسم عائلتها فصار
منذ تلك اللحظة يدعى جورج داريه .

وهكذا انسدل الستر على الماضي البعيد .. لم يعد هناك من يذكر

منه شيئاً !

القاتل الأثيم يمرح في حاضره وقد نسي ماضيه .. والمتهممة اليربثة
جئت فنسبت عذابها وولدها .. والابن نزع عنه الاسم الذي يربطه
بمولده وارتد مخلوقاً جديداً .

مات الماضي .. وإن كان هؤلاء أحياء .

- ١٣ -

بعد مضي عام على هذه الحوادث دعا جاك جارود «ابن عمته»
أوليد سوليفر إليه وقال له :

- إني مسافر غداً لإنجاز صفقة كبيرة وأحب أن ترافقني بصفتك
المراقب العام للمصانع فتهياً للسفر .

وكان أول ما فعل سوليفر استعداداً لهذه الرحلة أن ابتاع زجاجة
من إكسير الحقيقة من عند شوشيلينو .

لقد عوّل على أن يغتنم هذه الفرصة لانتزاع سر جاك الخفي .

وفيما كان القطار ينهب بهما الأرض قال جاك :

- والآن أنبثني .. أأست راضياً عن حالتك؟

- كل الرضاء .. ولا ينقص عليّ إلا أن أراني مكرهاً على أن

أكتفم على ما بيننا من صلة القرى .

- آه .. هذا أمر لا مفر منه يا أوليد! إذ لا بد من الحذر .

- وما الذي يدعوك إلى أن تكتفم دوني سر ثروتك .. إذ عهدي

بلك فقيراً ليس لك سوى مرتبك؟

- لقد اهتمت إلى اختراع درّ عليّ مالاً كثيراً .

- أي اختراع هذا؟

فلم تدركه الخيرة أمام هذا السؤال وإنما قال :
 - لقد بعث حقوق هذا الاختراع إلى سواي . . ولم يعد من حقني
 أن أنسبه إلى نفسي .
 وأثر سوليفر أن يلوذ بالصمت إذ عرف أن لا جدوى ترتجى من
 طرح هذه الأسئلة وأنها قد تثير شبهات بول هرمان .
 وقال جاك بعد هنيهة ليغير مجرى الحديث :
 - ولكن كيف تمضي سهراتك في نيويورك؟
 - على مائدة القمار .
 - آه . . إذا فأنت من المقامرين ! . . احذر فإنه جدير بأن يدفع بك
 إلى التهلكة .

فقال سوليفر :
 - لا أكتمك أن أموالني تضيق كلها على المائدة الخضراء . . ولكنني
 أرجو أن يدركني الريح عاجلاً .
 - سراب خادع ! وأولى بك أن تغلق عن هذه الخلّة الذميمة .
 وأخيراً نزلا الفندق وتناولوا العشاء في غرفتهما الخاصة .
 وحمل إليهما الخادم القهوة . . وتولى أوفيد سوليفر صبها في
 القدحين .
 واغتنم هذه الفرصة ووضع في أحد القدحين بضعة نقط من
 إكسير الحقيقة .

تناول جاك جارود القهوة وهو لا يدري سر المكيدة المدبرة .
 وبعد هنيهة ألقى براحته على جبينه وقال :
 - إني أحس تعباً . . وصداعاً . .
 وبدا عليه الاضطراب .

وابتهج سوليفر وعرف أن مفعول الإكسير قد بدأ .
 وقال جاك :
 - عليّ بقدر من الشراب .
 وحمل إليه سوليفر قدحاً بعد قدح .
 وفجأة بدأ جاك جارود يضحك ويقهقه . . كالمهانين .
 وقال أوفيد سوليفر يخاطبه :
 - اسمع يا بول هرمان !
 فقهقه جاك مرة أخرى وقال :
 - بول هرمان ! أحسبت أن هذا هو اسمي أيها المجنون؟
 واسترسل يتحدث .
 أخذ السر ينكشف . . وأخذت الأستار ترتفع . . سترأ بعد
 متر . . حتى لم يعد هناك ما هو مخفي من أمر جاك .
 وكان سوليفر يصغي إلى هذا الحديث بذهول وعجب .
 وأخيراً حين فرغ جاك جارود من قصته أطبق فمه وأغمي عليه
 وحمله أوفيد إلى فراشه وهو يتسم إبتسامة الظفر .
 وقال سوليفر في نفسه :
 - الآن عرفت سره ! إنه مدع متحلل كما وقع في خاطري للوهلة
 الأولى !
 وغداً يصحو من غيبوبته ولكنه لن يذكر شيئاً مما قال . . بهذا
 سمعت الكندي يحدث الطبيب .
 وضحك سوليفر ضحكة شيطانية وقال :
 - كان الأحقق يحسب أنني في قبضة يده ! والآن سيرى أينا الذي
 مبصيح في قبضة صاحبه !

إنني إذا كنت فقيراً الآن فلا شك أنني سأصبح من كبار الأغنياء
ما دمت قد وقعت على هذا السر . . . وسأنال من ثروة «ابن الخال»
العزيزة كل ما أشتهي وأبغى !

في صباح اليوم التالي استيقظ جاك من نومه وهو يعاني صداً
أليماً . . . فالتفت إلى صاحبه وقال :

- ترى ما الذي دهاني ؟! إنني أشعر بإعياء شديد !
- لقد أصبت بالأمس بنوبة فجائية فصرعت كالهبانين وأخذت
تهذي وتسبني ! فصاح بجرج :

- أهذي ! ماذا قلت ؟
- لا شيء . . . هذيان سخيف !

ورجعا بعد يومين إلى نيويورك بعد أن أنجزا الصفقة التي حضرا
من أجلها .

وما إن استقر أوليد سوليفر في نيويورك حتى بعث برسالة إلى
المستشفى الذي قيل إن ابن خاله بول هرمان مات فيه يستفسر عن
حقيقة النبأ .

وبعد شهر جاءه الرد من المستشفى . . . فكانت فيه صورة رسمية
من الشهادة التي تثبت وفاة بول هرمان .

واتفرجت شفتا أوليد سوليفر عن ابتسامة خبيثة وقال في نفسه :
- الآن أصبح جاك جارود في قبضة يدي بعد أن كنت في قبضة يده .

- ١٤ -

انقضت تسعة أعوام على هذه الحوادث .
وفي شهر تشرين الثاني / نوفمبر من عام ١٨٧٠ شوهد نعش

ميت يشق طرقات بلدة شيفري .

وكان في أثر النعش ثلاثة أشخاص يكون : الأب لوجيبه كاهن
القرية وصديقه المصور إتين . . . وغللام في الرابعة عشرة .

أما الغلام فما كان إلا جورج ابن جان فورتييه ، وقد أصبح الآن
يدعى جورج داريه إذ تبنته كلاريس داريه أخت الكاهن .

أما ذاك النعش فما كان يضم إلا جسد تلك المرأة الطيبة القلب
كلاريس .

لقد حضرتهما الوفاة فجاء ابنها بالتبني جورج من باريس مسرعاً
لبودعها الوداع الأخير وها هوذا يشبعها إلى المقر الذي لا رجعة منه .

عندما رجعا إلى المنزل قال الكاهن يخاطب صديقه المصور :
- لقد أوصت أختي لجورج بكل ثروتها وأقامتني وصياً عليه .

- حسناً فعلت .
فقال الكاهن :

- وسأنتدي بها فأوصي له بما أملك على أن أقيمك وصياً . . فهل
ترضى بذلك ؟

- بكل ارتياح . . وسأولي من حبي مثلما أوليتماه .
- شكراً لك . سأكتب لك رسالة أكاشفه فيها بحقيقة مولده على

أن لا تدفعها إليه إلا إذا بلغ الرابعة والعشرين . فهل تعدني بذلك ؟
- بلا ريب .

ودفع الكاهن كتابين إلى المصور إتين : أحدهما وصيته . . والآخر
رسالة منه إلى جورج يكاشفه فيها بسر مولده .

ولم تمضي أسابيع قليلة حتى لحق الكاهن بأخته . . وخلف جورج
في رعاية المصور إتين كاستل .

وفي الأسبوع نفسه الذي مات فيه الأب لوجيبه أدركت المنية

زوجة جاك جارود .

وكان جاك يحب زوجته حباً شديداً فحزن عليها وتغطر قلبه حسرات . . ولكنه وجد بعض العزاء في تلك الابنة التي خلقتها له زوجته الراحلة .

كانت ابنة ضئيلة الجسم ضعيفة البنية . . تتأبها الأمراض كثيراً . . فأوقف عليها حبه . . وأصبحت عنده هي الدنيا وما فيها .

وكان سوليفر لا يزال يمشي في ركاب جاك جارود . . كلما نضبت أمواله كلما سأله المعونة فلا يضمن عليه جاك بما سأل .

ومن أجل هذا لم يكن في حاجة إلى أن يتوعدده بإفشاء سره . . فظل جاك يجهل أن سوليفر على بينة من حقيقة أمره .

وكان لجورج دارييه صديق يدعى لوسيان تعرف به وهما يتلقيان العلم في مدرسة هنري الرابع .

أما لوسيان هذا فما كان إلا ابن السيد لابرو صاحب المصنع الذي اتهمت جان فورتية بإحراقه .

وهكذا شاءت الأقدار أن تجمع بين ابن القتالة - البريشة - وابن القتل !

حققت أم جورج على أب لوسيان قتلته . . أما الابنان فجمعت بينهما أواصر الصداقة والمودة . . وكان كل منهما يجهل سر الآخر . .

يل سر نفسه . . وكان لوسيان قد سمع من عمته حكاية مصرع أبيه . . وعرف أن القضاء أصدر حكمه على امرأة تدعى جان فورتية .

ولكنه كان كعمته يؤمن إيماناً أعمى بأن جان بريشة وأن الجاني لا بد أن يكون ذلك المدعو جاك جارود . . وأنه ما قتل أباه إلا ليسرق

رسومات الاختراعات .

والآن فلنعد إلى جان فورتية .

كانت نزيلة مستشفى المجانين . . وقد أصابتها كما ذكرنا لومة أنستها ماضيها فلم تعد تذكر منه شيئاً .

وفي خلال ذلك العام الرهيب . . عام ١٨٧٠ . . الذي اجتاحت فيه الجيوش الألمانية العاصمة باريس وضربتها بالقنابل سقطت ثلاث قنابل على مستشفى المجانين فهدمت شطراً منه . . كما اشتعلت النيران في أحد الأجنحة .

وقفت جان تنظر إلى النيران وهي تلتهم المستشفى . . وفجأة انزاحت الحجب عن عينيها . . وانكشف السر عن الماضي .

ذكرت ذلك الحريق الذي رآته فيما مضى . . منذ تسعة أعوام . . يلتهم مصنع السيد لابرو !

وعادت إليها ذاكرتها وشفيت من لومة الجنون !

في صباح اليوم التالي للحادث دخل الطبيب على جان فأدهشه ما رأى من تبدل في نظراتها . . لم يعد لها ذلك الذهول المعهود . . ولا هذا الشرود الذي كان يطالعه في عينيها !

وقالت جان تسأله :

- إني أعلم يا سيدي أنك طبيب . . وأني هنا في مستشفى . . وأذكر أنه حكم علي بالسجن المؤبد بتهمة السرقة والقتل وإحراق مصنع السيد لابرو المسكين . . فأني مستشفى هذا ؟

- مستشفى المجانين .

- إذأ فقد كنت مجنونة ! ولكنني أشعر أنني شفيت الآن .

- وهذا ما يبدو لي .. فقد كنت مصابة بفقدان الذاكرة .. وهأنذا أرى أن ذاكرتك قد عادت إليك .

- وكم مضى عليّ في هذا المستشفى؟

- إنك هنا منذ عام ١٨٦٢ ونحن الآن في عام ١٨٧٠ .

وراحت جان تستفسر منه عن بعض الشؤون فأبأها أن أحداً لم يسأل عنها في خلال هذه السنوات التسع .

ما إن سمعت جان هذه الكلمات حتى انفجرت باكياً وقالت :

- رباه .. لقد كان لي ولد يدعى جورج وبنّت تدعى لوسي ..

فماذا حل بهما؟ وكيف لم يسأل عني أحدهما؟

وحين سكن روعها قالت للطبيب :

- وما يكون مصري يا سيدي الطبيب الآن بعد أن شفيت؟

- تُعادين إلى السجن ثانية .

فأجهشت بالبكاء مرة أخرى وقالت :

- رباه ! أهكذا قُضي عليّ أن أمضي حياتي رهينة السجن لا ألقى ولدي؟

وتركها الطبيب لأحزانها وانصرف .

وبعد أسبوع نقلت إلى السجن .

ما إن استقرت جان فورتييه في السجن حتى بعثت برسالتين إحداهما إلى الأب لوجييه الذي كفل ابنها جورج .. والثانية إلى المروضع التي كانت تتولى إرضاع ابنتها لوسي .

ومرت بها أيام ثلاثة تنتظر كمن يتلظى على الجمر !

وأخيراً جاءها الرد المنتظر .

الكتاب الأول من قرية شيفري .. كتبه إليها الكاهن الجديد يقول

إن الكاهن السابق قد توفي .. وإنه هو شخصياً لا يعلم شيئاً من أمر تلك الحادثة التي ترونها .

أمّا الكتاب الثاني فكان رسالتها نفسها التي كتبتها إلى المروضع .. وقد أشارت عليها مصلحة البريد بهذه العبارة :

«يعاد إلى المرسل لأن المرسل إليه غير معروف» .

وما إن تسلمت جان فورتييه هاتين الرسالتين حتى كادت تجن خوفاً ويأساً وأصابها إغماء شديد لم تستيق منه إلا بعد ساعة .

ولمّا سكن روعها راحت تفكر في أمرها فقالت في نفسها :

- رباه .. أهكذا قُضي عليّ بأن لا أرى ولديّ مدى الحياة؟! ولكن لا .. ينبغي أن أفر من هذا السجن ..! سأهرب وأبحث

عنهما .. سأنبش الأرض سعياً وراءهما حتى أهندي إليهما .

تتابعت الأيام .. بل الأعوام .. وهي لا تجد وسيلة تتمكن بها من الفرار !

سبعة أعوام وهي في ذلك السجن .. عدا التسعة الأعوام التي أمضتها في مستشفى المجانين !

عذاب متصل .. وأحزان يتفطر لها الفؤاد .. قلب أم تعرف أن لها ولدين يضربان في الأرض ولا تعرف لهما مصيراً أو شأنًا!

أتراهما ماتا؟! أتراهما يتضوران جوعاً؟! أهما من أهل الاستقامة والشرف؟! أم تردّيا في الهاوية فسرق الولد أو قتل وزج في السجن؟! ووجدت الابنة المسكينة ذنباً بشرياً يسطو عليها؟!

كانت هذه الخواطر لا تفتأ تدور في رأسها .. عاماً بعد عام .. حتى انتظمت سبعة أعوام بالتمام .

كانت جان في خلال هذه الأعوام مثلاً لحسن السلوك فأمر مدير

السجن بنقلها إلى المستشفى رحمة بها .. وأمر بتعيينها ممرضة فكان لها راتب شهري تتقاضاه .. وكان لها من الحرية حظ حرمت منه طيلة الأعوام السابقة .

وما انقضى عليها عام في المستشفى حتى عينت رئيسة للممرضات .

وقد أمضت في المستشفى ثلاث سنوات .. وكانت بحكم مهنتها تحمل الأدوية إلى الأطباء في أثناء عيادتهم المرضى .

وفي يوم من الأيام اغتنمت الفرصة وسرقت زجاجة بها دواء منوم أخفتها في صدرها لحين الحاجة إليها .

وأخيراً دنت ساعة الفرار !

كانت إحدى الراهبات تشاطر جان فورتية مخدعها .. فلما أمسى المساء مزجت جان بشراب الراهبة قليلاً من هذا السائل المخدر .

جرت ذلك في مساء يوم السبت وقد اعتادت الراهبات أن يغادرن السجن في صباح كل أحد للذهاب إلى الكنيسة .

وفي الصباح استيقظت جان مبكرة ونظرت إلى الراهبة فألقتها غارقة في نومها وعرفت أن المخدر هو الذي أبقاها نائمة .

وأسرعت جان إلى رئيسة الراهبات ثم قالت لها :

- إن الأخت منهمكة في تضييد جرح أحد المرضى وهي ترجوك أن تسمح لي بها باللاحاق بكن في الكنيسة بعد فترة وجيزة .

- حسناً .. وسأنبه على البواب .

وكان هذا هو ما تبغيه جان .

ما كادت الراهبات يغادرن السجن ذاهبات إلى الكنيسة حتى بادرت جان إلى ارتداء ثياب الراهبة التي تشاطرها مخدعها وانطلقت

من السجن وقد أرخت قبعتها على وجهها فلم يفتن حارس الباب إلى حقيقة أمرها .. إذ كان يعلم أن هناك راهبة سوف تلحق بزميلاتها اللواتي غادرن قبلها .

وهكذا .. بعد عشرين عاماً .. غادرت جان فورتية السجن للمرة الأولى .. وتسمت نسيم الحرية .

وراحت تضرب في الأرض بحثاً عن ولديها .

- ١٥ -

ولتعد الآن إلى الوراء .

منذ أربعة شهور كان جاك جارود جالساً يتحدث إلى ابنته وإلى ابن عمته أوليفد سوليفر .

وكانت ابنته ماري قد أوفت على الثامنة عشرة .. ولكنها كانت ضئيلة الجسم واهنة الصحة إذ قرر الأطباء أنها مصابة بالسل الرئوي في مرتبته الضعيفة .

وفجأة التفتت ماري إلى أبيها وقالت :

- أبنا .. ! كم تبلغ ثروتك ؟

فنظر إليها باستغراب ولبت صامتاً .

فعادت تردد سؤالها فقال :

إن دخلي السنوي يبلغ مائة ألف دولار .

- إذا فشروتك يمكن أن تقدر بعشرة ملايين دولار .. عدا هذا

المصنع ؟ .

فأحنى رأسه إيجاباً فقالت :

- كم قيمة هذا المصنع؟

- مليون دولار .

- إذاً يجب أن تبيعه بهذا الثمن .

فصاح متعجباً :

- أتريدني مني أن أبيع مصنعي؟

- نعم .

- ولكن . .

- لا تعترض . . إنك واسع الثراء . . وما عدت في حاجة إلى

العمل . . فلم لا تبيع هذا المصنع على أن نسافر بعد ذلك إلى فرنسا
فنقيم فيها مدى الحياة؟

وجعل جاك جارود وأوليد يتبادلان نظرات الاستغراب .

واسترسلت الفتاة تقول :

- إنني أحب فرنسا . . وأريد أن أعيش وأموت فيها .

فصاح جاك بلهجة المتفجع :

- دعي حديث الموت يا ابنتي؟

كان يعلم أن ابنته مصابة بالسل الرئوي . . وأن حياتها تقاس
بالأعوام . . وكانت كل إشارة منها إلى الموت تملاً قلبه رعباً . . وتمزقه
حزناً .

وقالت الفتاة ضاحكة :

- طبعاً لست أبغي من رجلي إلى فرنسا أن أموت هناك . .

ولكنني توافة إلى أن أرى وطني . . وبعد فإن الحياة في هذه البلاد
تبعث السامة في نفسي .

- ولم لا نقيم في فرنسا شهرين أو ثلاثة ثم نعود إلى هذه

البلاد؟

ولكنها أصرت على رأيها وحاورها أبوها وآيده سوليفر في حواره !
فما كان من الفتاة إلا أن انفجرت باكياً .

وأمام عيبراتها تخاذل الأب وتراجع . . كان يعلم أن كل دمة
تذرفها إنما هي بضعة من حياة هذه الفتاة المصدورة المسلولة ! . كان
يعلم أنه إن أغضبها فقد أدناها من الموت وقضى على صحتها
الناعمة المرفقة بالهلاك .

قال :

- حسناً . . سأحقق مشيشتك يا ابنتي . . سأبيع مصنعي هذا
وأرحل إلى فرنسا . . وهناك أنشئ مصنعاً جديداً إذ لا يروق لي كما
تعلمين أن أعيش دون عمل .

والتفت الفتاة إلى أوليد سوليفر وقالت :

- وأنت يا سوليفر . . ألا تنوي أن ترافقنا إلى فرنسا؟

فهز كتفيه وقال :

- لا أدري .

فرمته بنظرة حادة وقالت :

- إني أعلم أنك نحاول أن تثني أبي عن الرحيل . . ولكن جهدك
سيضيع عبثاً ! إن الإقامة في هذه البلاد قاربت على نهايتها .

ثم غادرت القاعة مسرعة وعيبراتها لا تزال تنحدر على وجنتيها .

حين خلا الرجلان أحدهما إلى الآخر قال سوليفر :

- أعزمت حقاً على بيع مصنعك والرحيل إلى فرنسا؟

- هذا لا ريب فيه . . ألا ترى أن صحتها على غاية من الضعف

وأنني إن عاندتها قضيت عليها بالهلاك؟

- ولكنني لا أريد هذا ...! فأنا أريد أن أشتري مصنعك! ...
ضحك جاك وقال ساخراً:
- نريد أن تشتري مصنعني!! لقد كنت أحسبك يا بني من الفقراء
فإذا بك من أصحاب الملايين!
فابتسم أوفيد مرة أخرى وقال:
- لست من أصحاب الملايين كما تتوهم! ... إنني فقير معدم ...
ومع ذلك فساأشتري مصنعك ...
- هذا عجب! دع عنك حديث الأحاجي والألغاز وأنصح!
فقال سوليفر بهدوء:
- ستبيعني المصنع ... ثم تهديني شيكاً بخمسين ألف دولار لأتمكن
من إدارته .
فقطب جاك جبينه وقال:
- ولم أفعل هذا?
- نعماً لسكوتي!
- نعماً لسكوتك؟ أحسبني أخفي أمراً أخشى أن يتكشف!
- أموقن أنت أيها الصديق العزيز?
- ماذا تعني?
- أعني أن جاك جارود لا يستطيع أن يرجع إلى فرنسا إلا إذا
أطمأن إلى أن البوليس لن يعرف اسمه .
قفز جاك جارود واقفاً وانقض على سوليفر وقبض على ذراعه
بعنف وصاح:
- ما هذا الاسم الذي ذكرته?
- إنه اسم رجل أحرقت مصنعاً في الفورفيل وقتل صاحبه وسرق
أمواله ... وهذا الرجل هو أنت!

فقال سوليفر يعاتبه:
- هذا الختان منك أشبه بالضعف!
فهز جاك كتفيه وقال:
- ومع ذلك فأية غاية لي من البقاء في هذه البلاد؟ لقد أصبت
هنا ربحاً جزيلاً ... وفي وسعي أن أنشئ في فرنسا مصنعاً يضاهي
مصنعي هذا وبذلك لن أخسر شيئاً!
وساد الصمت برهة ... ثم قال سوليفر:
- إن لي معك حديثاً ...
- تكلم .
- هيا بنا إلى مكتبي فأني أخشى أن يسمعنا أحد هنا .
بدت أمارات الاستغراب على وجه جاك جارود وقال:
- وهل هذا الحديث خطير إلى هذا الحد ...?
- ستري .
وإذ ضمهما المكتب قال سوليفر:
- ما الذي تنوي أن تصنع بي بعد رحيلك?
- يمكنك أن تراقبنا فأعهد إليك بعمل في مصنعي الجديد .
- ولكن الإقامة لا تطيب لي في فرنسا!
- ولم ...?
- لأن البوليس الفرنسي يطلبني .
- وما يضيرك وقد سقط الحكم لمضي المدة ...?
- إنني أحب أن أبقى في هذه البلاد .
- فليكن إذاً ... سأسال من يشتري مصنعني أن يستخدمك بأجر طيب .
فارتسمت ابتسامة واهنة على شفتي أوليد وقال:

استولى الرعب على جاك وهتف بصوت مختنق :
 - هذا كذب .. من أنباك بهذا ؟
 - شهادة وفاة بول هرمان الذي انتحلت اسمه ! .. إنَّ لديّ صورة رسمية منها .
 - كذب وبهتان !
 فقال أوليفد بهدوء :
 - دعك من المراوغة يا ابن الخال العزيز .. إنَّ لديّ براهين لا تدحض .. ومع ذلك فلنك أن تذهب إلى فرنسا وأنت آمن مطمئن ما دمت ستبجيني مصنعك ! ستظل دائماً هي المجرمة الأثيمة .
 وساد الصمت برهة .. ثم قال جاك وقد ملك روعه :
 - إني لا أبالي بتهديدك ! لقد سقط عني العقاب لمضي المدة !
 فضحك أوليفد سوليفر وقال :
 - مضيّ المدة .. إذا انطبق هذا على جرائم القتل والسرقة والإحراق التي ارتكبتها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً .. فهل ينطبق على جريمة اختلاس اسم بول هرمان وهي جريمة لا تزال قائمة ولا تزال متلبساً بها ؟
 فامتقع وجه جاك وقال :
 - أعني أنك تنوي أن تشي بي ؟
 - هذا أمر موكلوك إليك ! إنك رجل واسع الثراء ولست في حاجة إلى مال جديد .. فلم لا تمنحني مصنعك ؟ إنك بذلك تشتري سمعتك وهناء ابتكك المسكينة .
 وزمجر جاك وقال بوحشية :
 - والله إنَّ نفسي تحدّثني بأن أفنك .

- وهل يجديك هذا ؟ لقد كتبت رسالة أودعتها عند مسجل العقود وأوصيت أن لا تفتح إلا بعد موتي .. وفي هذه الرسالة أمطت اللثام عن سرّك .. فإذا قتلني فلن تمضي أربع وعشرون ساعة حتى تجد الشرطة تنقض عليك وتسوقك إلى السجن .
 وساد الصمت مرة أخرى :
 وأخيراً قال جاك جارود :
 - حسناً .. قبلت شروطك ..
 - أحسنت ! .. بذلك تنقذ سمعتك .
 - غداً سنذهب إلى المحامي لتحرير عقد البيع .
 وفي صباح اليوم التالي أصبح أوليفد سوليفر مالكاً للمصنع دون أن يدفع دولاراً واحداً .. بل لقد أصاب أيضاً من «ابن خاله» شيكاً بخمسين ألف دولار .
 بعد أسبوع كان جاك جارود في طريقه إلى فرنسا .. وحين هبطها ابتاع أرضاً ليقم عليها مصنعاً في ضواحي باريس .
 على أنه ما كان يشرع في البناء حتى قاضته الحكومة إلى المحاكم وطالبتها بأن يشق طريقاً للمرور وسط هذه الأرض .
 ومضى جاك إلى صديق له من أصحاب المصارف يسأله أن يدلّه على محام يارع يكل إليه أمر هذه القضية .
 وقال المالي صاحبه :
 - أنا أعرف محامياً شاباً أصاب على حدائنه عهده شهرة عظيمة .
 - وما اسمه ؟
 - جورج داريه .. رقم ١٩ شارع بونايرت .
 ومضى جاك إلى مقابلة المحامي الشاب .
 ولو اتكشفت حجب الماضي لعرف جاك أن هذا الشاب ما هو إلا

جورج فورتييه .. ابن تلك المرأة التي قضى عليها بالسجن المؤبد
بتهمة ما لفقها لها إلا جاك جارود نفسه !

كان جورج فورتييه على رغم سنه الخمس والعشرين معدوداً من
كبار المحامين .

وقد اتخذ له مكتباً في شارع بونايرت كان الداخل إليه لا يملك إلا
أن يعجب بتلك المكتبة النفيسة التي أهدها إليه ولّيه الأب لوجيه .

وفي ركن من المكتب كنت ترى عموداً من الأبنوس أقيم فوق
رأسه حصان من الخشب والكرتون .

كان هذا الحصان أثراً من آثار الطفولة يحتفظ به المحامي الشاب
ويحرص عليه حرصاً شديداً .. وقد جلّله بشريط أسود إجلالاً
لذكرى أمه كلاريس (أخت الكاهن) إذ لم يكن يعرف بعد أن أمه
هي جان فورتييه .

وهكذا .. بعد إحدى وعشرين سنة التقى جاك جارود بابن
ضحيتة .. وكان كلاهما يجهل شخصية صاحبه .

روى جاك جارود للمحامي الشاب ما كان من أمر الخلاف الذي
شجر بينه وبين الحكومة في شأن حق المرور في أرضه .

ولمّا فرغ جورج داريس من الاطلاع على الأوراق والمستندات
قال :

- إنك على حق يا سيدي في مناهضتك الحكومة .. إن حججت
قوية وستريح القضية حتماً .

- إذا أرجوك أن تتولاها عني !
بكل ارتياح ..

وبعد شهر اضطرت الحكومة أن تتراجع عن دعاها وأذنت لجاك

جارود بالبناء بعد أن أيقنت من الاطلاع على مذكرات محاميه أنها
خاسرة لو قاضته إلى المحاكم .

كان جاك جارود مضطراً في أغلب الأحيان إلى قضاء مسحية
نهاره خارج الدار ليتولى بنفسه مراقبة البناء ..

ولكن ابنته لم تكن تلومه على تخلفه إذ كانت كرمات أصدقاء
أيها بولنيها بالزيارة من حين إلى آخر .. فكانت تجهد في بقائهن ما
يسري عنها .

وقد كان من الطبيعي أن جو باريس لا يلائم صحتها .. إذ لم
تكد تخفي في تلك المدينة بضعة أسابيع حتى بدت عليها آثار العلة
الصدرية وازدادت بروزاً .. ولكنها كانت تجهل أنها مصابة بالسل
الرئوي .. وكانت إذا ما رأت في وجه أيها الخوف والإشفاق
ضحكت وعجبت لأمره .

وكانت ماري شديدة التألق في ارتداء ثيابها فاخترت لحياكتها
السيدة أوغستين أبرع خياطات باريس وأحذقهن فناً وإتقاناً .

وكان بين عاملات هذه الخياطة فتاة تدعى لوسي أبت أن تزاول
عملها في مشغل الخياطة .. وإنما آثرت أن تنجز في دارها ما تعهد
به إليها السيدة أوغستين .

وكانت مدام أوغستين لشدة إعجابها بلوسي توفدها في بعض
الأحيان إلى بيوت عميلاتهن لنقيس لهن الثياب وتصلح منها ما
يحتاج إلى تصلح .

وكانت لوسي جميلة رضية الخلق .. لم يعرف الناس عنها التبذل
والاستهتار شأن مثيلاتها .. كان لها خطيب يدعى لوسيان يحترف
الرسم الميكانيكي علق بها وتم الاتفاق بينهما على الزواج .

لم يكن الرسام لوسيان إلا ابن السيد لابرو صاحب المصنع الذي قتله جاك جارود .

حين أتى الحريق على المصنع لم يبق للطفل المسكين دخل يفي بنفقاته فتكفلت به عمته . . وإذ ماتت وهو في الحادية والعشرين من العمر اضطر أن يحترف الرسم التماساً لأسباب الرزق .

وانخذ لوسيان مسكناً له غرفة في البيت الذي تشغل لوسي الحياطة غرفة فيه .

التقيا يوماً على السلم . . فلم يكن بداً من التعارف .

وما لبثت الصداقة أن امتحالت غراماً . . وكان لوسيان يتمنى أن يتخذ لوسي زوجة له وما كان يرده عن تحقيق أميته إلا نضوب المال .

وانقضى عام كامل وما زال المسكين عاجزاً عن أن يدير أمره . . وكان ما يربحه لا يكاد يسد حاجته .

ولم يكن للوسي أهل بمدون إليها يد المعونة . . لقد نشأت في أحد ملاجئ الأطلاق . . ففي ذات يوم طرقت مريض باب الملجأ وأودعته طفلة صغيرة اسمها لوسي . . هي لوسي هذه .

قالت عنها الممرض إن أم الطفلة أودعتها لديها لترضعها وكانت توالياً بالمال كل شهر . . ثم انقطعت عنها فجأة فلم يكن في وسعها إلا أن تودعها الملجأ .

ولا ريب أن القارئ قد أدرك أن هذه الحياطة لوسي ما هي إلا ابنة جان فورتييه وشقيقة جورج داريه المحامي .

وهكذا بدأت الحلقة تضيق . . وأخذت الأقدار تلعب دورها . .

تعرف لوسيان لابرو بلوسي ابنة جان وأحبها . . واتصل جاك جارود بابن ضحيته جان أي المحامي جورج داريه .

ولم يبق إلا أن يتم الاتصال بين جاك وابن القاتل أي الرسام لوسيان .

في ذات يوم دخلت لوسي على لوسيان وهو في غرفته فرأته شاخب الوجه غائر العينين فأخذت بيده وقالت تلومه بصوت عذب :

- ما هذا يا لوسيان؟ ! ألم أحذرك من إرهابك صحتك بالعمل؟! إنك تكاد تقتل نفسك . . !

- إنها رسومات يلح أصحابها في سرعة إنجازها .

- ولكن ينبغي أن تترقق بصحتك !

- وما عساي أفعل؟ . . إني أقضي سحابة نهاري أتجول من مكان

إلى مكان باحثاً عن عمل . . فلا مفرو لي من أن أمضي الليل في إنجازها .

وساد الصمت برهة ثم قالت لوسي :

- إن زملاءك في المدرسة من الأغنياء فلم لا تلجأ إلى بعضهم

تسألهم أن يهتئوا لك عملاً .

فارتسمت على شفثيه ابتسامة حزينة وقال :

- لجأت إليهم جميعاً فما وجدت منهم إلا الصد والإعراض . . !

فقالت لوسي :

- حتى ذلك الفتى الذي كنت لا تفناً تمندحه أمامي؟!

- أتعنين جورج داريه زميلي في مدرسة هنري الرابع؟

- نعم . . فهل قابلته؟

- كلاً .. فإني لا أعرف عنوانه .. وقد كان يدرس الحقوق .

- إذا فهو الآن من المحامين .. ومن السهل الاهتداء إلى مقره .
فهز كتفيه وقال :

- إنه على أية حال لن يكون خيراً من سواء ..

- وما يدريك ؟! يحسن بك أن تمضي إلى لقائه .

- غداً أسمى إليه .

وحيت لوسي خطيبها وانصرفت ذاهبة إلى السيدة أوغستين تحمل إليها ثوباً جديداً .

حين دخلت لوسي على السيدة أوغستين ألقتها منهنمكة في تجربة ثوب على فتاة حسناء ذات شعر أشقر جميل .

وأدركت لوسي على الفور أن هذه الفتاة لا بد أن تكون واسعة الثراء .. إذ لم يكن من عادة السيدة أوغستين أن تجرب الثياب بنفسها إلا للمثريات من عميلاتها .

والتفت السيدة أوغستين إلى لوسي وقالت :

- لقد كنت موشكة بأن أبعث في استدعائك ! .. هذا ثوب للرقص ينهي إنجازه على عجل لأن الأكسة ماري هرمان في حاجة سريعة إليه .

فقلت ماري هرمان ابنة جاك جارود :

- أهذه هي الأكسة التي ستولى خياطة ثوبي ؟ ..

- نعم .. وهي من أبرع العاملات عندي .

فقلت ماري :

- سأكون في انتظارك في دار أبي في الصباح عادة .. فعسى أن تنجزه عاجلاً .

وحين انصرفت ماري هرمان ذكرت السيدة أوغستين للوسي شيئاً من الفتاة وقالت مسترسلة :

- وأرجو أن تضاعفي الجهد فإنها شديدة التألق في هندامها ..

ثم أنبأتها أن الفتاة مصدورة وإن كانت تجهل حقيقة دائها .

برّ لوسيان بوعده لخطيبته فذهب إلى دار المحكمة واستفسر عن عنوان الهامي جورج دارييه فقبل له إنه مقيم في رقم ١٩ في شارع بونابرت .

فمضى إليه مسرعاً يتشد لقاءه .

في غضون ذلك كان جورج دارييه في مكتبه منهنمكاً في مراجعة إحدى القضايا حين دخل عليه وليّ المصور إيتين كاستل .

رحّب جورج بالمصور الشهير وقال له :

- ينبغي أن أعاتبك .. فقد مضى أسبوعان لم أرك في خلالهما .

فقال المصور معاتباً بدوره :

- لقد كنت منهنمكاً في إنجازه بعض الصور .. ولكن كان في وسعك أنت أن تزورني .

- أرجو أن تلتص لي عذراً من كثرة قضاياي .

فقال المصور باسمأ :

- وقد التمس لك عذراً .. والدليل أنني قادم اليوم لأشاطرك

طعام الغداء ولا تحدث إليك في شأن لوحة أريد أن أرسمها .

- وما موضوعها ؟

- لقد وقع الحادث الذي أنوي أن أبرزه على اللوحة منذ إحدى

وعشرين سنة في منزل خالك الأب لوجيبه كاهن قرية شيفري ..

ولديك جواد مصنوع من الكرتون كنت تلاعبه عند وقوع الحادث

وأحب أن أستعيره منك .
 - أعني هذا الجواد؟ إنه تذكّار من أمي . . ومن أجل هذا أحرص عليه !
 وأشار إلى جواده الكرتوني القائم على رأس العمود الأبنوسي .
 وقال المصور مسترسلاً :
 - نعم . . هذا هو الجواد الذي أحب أن أستعيره .
 - ولكن علام يدور موضوع اللوحة ؟
 - إنها قصة مؤثرة يتفجع لها القلب . . رجال الشرطة يقتحمون الدار ويسوقون امرأة مسكينة إلى السجن . . وسيظهر في هذه الصورة كثيرون منهم رجال الشرطة والعمدة وأمك وخالك الكاهن وأنا وأنت .
 فقال جورج باستغراب :
 - أنا ؟
 - نعم . . فقد كنت تبكي بكاءً مرّاً . . كأنَّ عبراتك توسلات إلى رجال الشرطة أن يطلقوا سراح هذه المرأة .
 - عجباً . . إنني لا أذكر شيئاً من هذا الحادث .
 - هذا لأنك كنت في الثالثة من العمر . . ولكن حاول أن تستثير ذاكرتك . . وقع الحادث في حديقة . . وكان جوادك الكرتوني . . هذا الجواد . . معك . . وكنت تضمه إلى صدرك .
 - وهل تنوي أن تبيع هذا الرسم ؟
 - ولم تسأل ؟
 - لأنني أحب أن أفتنيه ما دام سيضم صورة أمي وخالي وصورتك .

فابتسم المصور وقال :
 - اطمئن . . فلاني أنوي أن أهديه إليك . . وقد أردت أن أفاجئك به عندما أفرغ منه . . ولكنك انتزعت سرّي مني .
 وضحك الرجلان وشكره المحامي الشاب وقال يسأله :
 - ولكن أخبرني . . ماذا جنت هذه المرأة ؟
 - لقد اتهمت بالسرقة والقتل والإحراق .
 - وما كان مصير هذه المنكودة ؟
 - قُضي عليها بالسجن المؤبد .
 - إذاً فقد ثبتت التهمة ضدها ؟
 - طبعاً . . فقد كانت الأدلة قوية دامغة .
 - وما اسمها ؟
 - لقد نسيت لطول العهد به .
 في هذه اللحظة دخلت الخادمة تنبئ سيدها بأن شاباً يدعى لوسيان لابرو يطلب مقابته .
 هتف جورج داريه بابتهاج :
 - إنه صديق لي من عهد الدراسة . . ولم نلتق منذ خمسة أعوام .
 فقال المصور إتيين كاستل :
 - لابرو؟ يخيل إليّ أنني سمعت بهذا الاسم من قبل !
 وبعد لحظات دخل الزائر فتصافح الشايان بحرارة وقدمه المحامي إلى وليّه المصور إتيين . . ثم راحا يتذاكران عهد الدراسة .
 وقال جورج داريه :
 - عهدي بك مولعاً بالميكانيكيات فكيف حالك الآن؟ أرجو أن تكون مديراً لأحد المصانع !

فهزّ لوسيان رأسه وقال :

- الواقع أن الحظ لم يتهبأ لي .

- كيف ذلك .. وقد كنت أعلم أنك بارع في فنك؟

- ولكن براعتي لم تغن عني شيئاً فاضطرت أن أحترف رسم الآلات التماساً للرزق .

فهتف جورج دارييه :

- كان ينبغي أن تحضر لزيارتي قبل ذلك حتى أبادر إلى السعي

لك عند من أعرف من أصحاب المصانع .

ثم قال معقّباً :

- أترضى بأن تتولى إدارة مصنع لصنع آلات السكك الحديدية؟

- هذا جل ما أتمنى .

- حسناً جداً .. إن من عملائي فرنسياً عاش في أمبركا زمناً

طويلاً .. ثم هبط فرنسا في العهد الأخير وأنشأ فيها مصنعاً ..

وأحسب أنه لن يرفض لي رجاء .. إنه يدعى بول هرمان .

- بول هرمان شريك نيومي مورتيمر؟

- هو بعينه .. أتعرفه؟

- كلا .. ولكن له اسماً داوي الشهرة .. إنه مخترع آلة الخياطة

الصامته .. ومخترع آلة الصقل الحديثة وهي شبيهة بالآلة التي كان

أبي منهمكاً في اختراعها قبيل مصرعه كما أنبأتني عمتي بذلك .

فانبرى المصور إيتين يقول :

- أكان أبوك من المخترعين؟ هل أنت ابن جول لابرو الذي احترق

مصنعه منذ أكثر من عشرين عاماً؟

- تماماً يا سيدي .. وقد مات أبي قتيلاً في أثناء الحريق .

فقال جورج باستغراب :

- عجباً .. إنك لم تحدثنني مطلقاً عن هذه النكبة !

- هذا لأنني لم أعلم بنيتها إلا بعد وفاة عمتي .. ولكن خبرتي يا

سيدي أكنت صديقاً لأبي؟

- لا لم أعرفه .. ولكني سمعت الناس يرددون اسمه بعد هذا

الحادث فانطبع في ذاكرتي .

ثم قال في نفسه :

- يا للمصادفة ! ها هوذا ابن القاتلة يصبح صديقاً لابن القاتل !

وقال جورج متسائلاً :

- وهل قبض على القاتل؟

فقال لوسيان مجيباً :

- لقد ارتكبت امرأة هذه الجرائم وعوقبت بالسجن المؤبد .

- امرأة؟

- نعم .. وقد فرت هاربة عقب الحادث ولاذت بيت كاهن قرية

شيفري ولكن الجند لحقوا بها وقبضوا عليها .

فأرسل جورج بصره إلى المصور بنظرة استفسار فقال هذا :

- نعم .. إنها المرأة نفسها التي حدثتك عنها والتي أنوي أن

أرسمها في اللوحة .

فقال لوسيان :

- إذا فقد رأيت هذه المرأة يا سيدي؟

- رأيتها وتحدثت إليها .

- هل اعترفت بجريمتها يا ترى؟

- بل أنكرتها بإيمان وإصرار .. ولكن إنكارها لم يعجدها نفعاً إذ

حكم عليها ..

فقال لوسيان :

- ليس الحكم دليلاً على صحة التهمة .. فلطالما أخطأ القضاء .

- ولكن الأدلة كانت دامغة حاسمة !

- ربما كانت الظروف هي القاهرة .. ولكن ما هو رأيك الشخصي في هذه التهمة ما دمت قد تابعت أطوار القضية؟

فسكت المصور هنيهة ثم قال :

- ربما كانت مذبذبة .

فهتف لوسيان :

- ربما ! إذا فأنت لست موقناً كما أيقن القضاة ! أمّا أنا فلناني موقن من براءتها ! لقد قرأت يا سيدي تفاصيل الحادث في الصحف التي كانت عمتي تحتفظ بها .. وقد أيقنت بعد قراءتها أن جان فورتية بريئة من هذه التهم الثلاث .. ولقد كان هذا هو اعتقاد عمتي أيضاً .

وقال جورج متسائلاً :

- وبم دافعت عن نفسها؟

فقال لوسيان :

- لقد اتهمت مرافق المصنع بارتكاب هذه الجرائم .. وهو يدعى جاك جارود .. وأكدت أنه كتب إليها رسالة غرام يدعوها فيها إلى مرافقته عند فراره من فرنسا .. ولكنها لم تستطع أن تقدم هذه الرسالة إلى المحكمة .

فقال المصور إيتين :

- وهل غاب عنك أن جاك جارود مات شهيداً لإخلاصه وشهامته؟

فقال لوسيان بإصرار :

- إنني موقن من أنه هو الجاني .. وما موته إلا خدعة جازت على الناس جميعاً .. وسوف لا يهدأ لي بال حتى أميط اللثام عن هذه الجريمة وأسعى إلى إنقاذ هذه المسكينة من سجنها المؤبد !

- وما جدوى إثبات الجريمة الآن على جاك جارود ومحاكمته فقد أصبحت غير جائزة لمضي المدة؟ !

فقال لوسيان بانفعال :

- سأعرف كيف أنتقم لنفسي .

- ترى ألا تزال جان فورتية على قيد الحياة؟

- هذا ما لا أعرفه .. ولكنني سأستفسر ..

فانبرى الحامي جورج داريه يقول :

- يمكنك أن أتولى عنك هذا الأمر فهو حين عليّ بحكم مهنتي .

وتطرق بينهما الحديث إلى ذكر الزواج فقال لوسيان :

- إن لي خطيبة تدعى لوسي ولولا أسباب الفقر لاقرنت بها في غير إهمال .

- ومن تكون هذه الفتاة؟

- إنها فتاة يتيمة نشأت في أحد ملاجئ الأطفال ولا نعرف اسم أسرتها .. ولكنها من أكرم الفتيات .

- يلوح لي أنك تحبها؟

- حباً جنونياً .

- إذا أرجو أن أهنئك عاجلاً بالزفاف .

كانت لوسي تنتظر عودة خطيبها وقد ألحت عليها اللهفة .. فلما رجع ابتدرته بقولها :

- ماذا فعلت؟

- لقد أحسن استقبالي .. وألقى إليّ وعداً بمساعدتي .

وروى لها ما جرى بينه وبين صديقه القديم .

فهتفت لوسي باغتياب :

- آه .. لقد صدقت الأحلام .. آه .. لو صدقت .. !

في صباح اليوم التالي انطلق جورج دارييه إلى منزل جاك جارود ليتحدث إليه في شأن صديقه لوسيان لابرو .

ولكن رب الدار كان غائباً .. قيل له إنه مسافر ولن يعود إلا بعد أسبوعين أو ثلاثة .

وساءت هذه الغيبة جورج إذ كان متلهّفاً إلى إسداء تلك الخدمة إلى صديقه .

ولكنه كان يعرف أن لماري هرمان كلمة مسموعة عند أبيها فقال في نفسه :

- ولم لا أتحدث إليها في الأمر وأسألها العون ..

وطلب مقابلتها من قوره .

استقبلته الفتاة باسمه فقال يسألها :

- كيف حالك يا آنستي الآن؟

- إن صحتي على ما يرام .. !

ولكن السعال فاجأها فقطع عليها الحديث فقالت :

- ولولا هذا السعال البغيض لكنت على أوفر عافية .. !

وكان جورج يعلم أنها مصابة بالسل الرئوي .. وأنها تجهل حقيقة دائها . فتفجع وقال :

- والأطباء .. ماذا يقولون؟ !

فضحكت باستخفاف وقالت :

- الأطباء ! ألا تبأ لهم ! لقد برمت بأدويتهم ! إن هذا السعال ناشئ من التهاب بسيط في الحلق .. ومع ذلك يصفون لي عشرات من الأدوية .

ثم غيّرت مجرى الحديث وقالت :

- أحسبك جئت تزور أبي؟ إنه غائب عن باريس لن يعود إلا بعد ثلاثة أسابيع .. في أوائل الشهر المقبل .

- إذا فهل لي أن أنشد عونك يا آنستي في تعيين شاب بارع من أصدقاء المدرسة مديراً لمصنع أريك الجديد؟ إنه خريج مدرسة الفنون والصنائع .

- أهو صديق حميم لك؟

- نعم يا آنستي .. تعرفت به حين جمعتنا المدرسة .. وفي طفولته قتل أبوه وسرقت أمواله فكفلته عمته .. فلا يسعه أن يعيش دون عمل يعتمد عليه .

فقالت الفتاة ببراعة :

- إنني أكون سعيدة يا سيدي بأن أمد إليك يد المعونة في هذا الشأن .. قل لصديقك أن يوقن من النجاح .. إن أبي لا يمكن أن يرد لي طلباً .. فليحضر صديقك إلى زيارتي في اليوم الثالث من الشهر القادم .. لأن أبي سيعود في اليوم الثاني .

وشكرها جورج وانصرف مغتبطاً .. وكتب إلى صديقه لوسيان يزف إليه البشرى .

- ١٧ -

وهكذا شامت الأقدار أن تجمع بين الأشخاص الذين اشتركوا عن

بعد أو قرب في مأساة مصنع لافرو . . وبدأت الصلات تنعقد بينهم
لتشند وتقوى .

ولم يبق غائباً منهم إلا جان فورتيه .

هرت جان من السجن وهي بملابس الراهبات . . وأسرعت إلى
حانوت لبيع الثياب فابتاعت ثوباً عادياً . . وفي ركن متزو من الغاية
القرية ارتدت ثيابها الجديدة ثم سارت إلى محطة السكة الحديد
واستقلت القطار إلى باريس .

ولم تكن جان بالغية البلهاء . . كانت تعلم أن اكتشاف فرارها
لن يطول . . وأن البوليس سيكتشف حتماً أنها سافرت إلى باريس
فيترب ووصولها والقيء مهياً لها ينتظرها .

فلما بلغ القطار إحدى المحطات القريبة من باريس هبطت منه
واستقلت إحدى سيارات الأجرة إلى المدينة .

بهذه الخدعة استطاعت أن تغفل من مطارديها . . وفي زحمة المدينة
الخائفة كان من المستحيل الاهتداء إليها إلا بعد جهود شاقة خارقة .

لم تلبث جان في باريس إلا فترة وجيزة تناولت فيها الطعام . .
ثم سافرت من فورها إلى قرية شيفري . . ومضت إلى بيت الكاهن .
وفي الطريق إليه استعادت في ذاكرتها تلك الصورة التي انطبعت
منذ أكثر من عشرين عاماً .

رجال الشرطة يسوقونها إلى السجن . . وولدها جورج محتضن
جواده الكروتوني . . وكلاريس - أخت الأب لوجييه - تحاول أن
تسري عن الطفل المسكين أحزانه وهمومه .

وطرقت جان باب الكاهن وطلبت مقابله . . فلما مثلت في
حضرته قالت له :

- سيدي الأب . . إن امرأة في باريس عهدت إلي بأن أستفسر
منك عن مسألة تعنيها .

- سلي ما بدا لك يا ابنتي .

- ألم يكن للكاهن السابق أخت تدعى كلاريس؟

- نعم يا ابنتي . ولكنها ماتت قبل وفاة الأب لوجييه بأسابيع
قليلة !

- وكانت هذه الأخت تتولى تربية طفل صغير؟

- هوذاك . . إنه ابنها كما قيل لي .

وأجفلت جان !

ابنها ! رباه ! أتكون هي الأم ولا تجرؤ أن تقول؟ !

واسترسلت قائلة :

- أتعرف أين هذا الغلام الآن؟

فهز رأسه وقال :

- كلاً . . كل ما بلغني أنه مقيم في باريس وأنه زار شيفري عند

وفاة خاله ثم ما لبث أن سافر مسرعاً مع أحد أصدقاء الأب لوجييه .

- أتعرف اسم هذا الصديق؟

- كلاً .

- ربما كان عمدة القرية على علم به؟

- محال . . فقد مات العمدة السابق وحل مكانه اثنان .

- وأين خادمة الكاهن؟ ألا تعرف عنها شيئاً؟

- لقد ماتت هي أيضاً .

- أماتت أخت الكاهن في هذه القرية؟

- نعم .

- إذاً فلا ريب أن اسمها مدون في سجلات الكنيسة . . فإذا
اطلعت عليها أمكن أن نعرف منها اسم الأخت ولقبها فياني لا أعرف
إلا أنها تدعى كلاريس . . وبهذه الطريقة يمكن أن نهتدي إلى اسم
ابنها ولقبه !

- والحرب يا سيدتي؟ أنسيت أن الحرب هدمت ثلاثة أرباع منازل
القرية وأن سجلات الكنيسة احترقت فلم يعد باقياً منها شيء .

بدت أمارات اليأس على وجه جان وقالت بمرارة :

- رياه ! ألا يسعني إذاً أن أعلم شيئاً؟

استغرب الكاهن ما تبدي هذه المرأة من اهتمام وحزن فقال :

- وما الذي يدعوك أنت شخصياً إلى هذا الاهتمام بهذه المسألة؟

وأثار سؤاله خوفها . . لقد خشيت أن تكون بإلحاحها قد أثارت
ريته فقالت مستدركة على عجل :

- إنني قادمة إليك يا سيدي بالنيابة عن صديقة لي في باريس
عهدت إليّ بالاستفسار ووعدتني بأجر جزيل إن جثتها بما تريد من
بيانات . . فهي تحب أن تعرف الاسم الذي كان يدعى به ابن السيدة
كلاريس أخت الكاهن .

خرجت جان من عند الكاهن دون أن تحصل شيئاً من المعلومات
التي تريدها .

ركعت عند باب الكنيسة وراحت تصلي بحرارة والعبرات تنهمر
من عينيها وتقول :

- رياه ! ما يكون الآن وما العمل؟ إنّ ولدي يقيم في باريس كما
فهمت من الكاهن . . مع صديق للاب لوجييه . . ولكن نرى أي

اسم قد اتخذ ما دامت كلاريس قد نسبته إليها واتخذته ابناً لها؟ !

لو أنني سألت أهل القرية لرايهم أمري . . وربما تكون الصحف قد
ذكرت الآن نبأ فراري . . فلا أنال من هذا الإلحاح إلا إثارة الشبهات
وتسريع اعتقالي من جديد !

ثم تنهدت وقالت :

- يلوح لي أنني بدأت أفقد الرجاء في العشور على ولدي !
فلأبحث إذاً عن ابنتي لوسي .

وانطلقت من فورها إلى القرية التي كانت تقيم فيها الموضع التي
أرضعت ابنتها قبلغتها عند ظهر اليوم التالي .

كانت تعلم أن الموضع غير موجودة في القرية ما دامت مصلحة
البريد قد أرجعت إليها الرسالة التي كتبتها إليها وهي في السجن . .
ولكنها كانت ترجو أن تستفسر عنها من أهل القرية .

سارت إلى بيت الموضع . . وحين أشرفت عليه جمدت مكانها
حائرة مذهولة !

لقد اختفى المنزل ولم يعد باقياً منه أي أثر . . وفي مكانه قام
منزل رحب كبير .

وراحت جان تتحدث إلى البوابة . . أنبأها المرأة أنها من أهل
القرية وأنها كانت تعرف مرضعاً تدعى السيدة فرمي وأنها ماتت في
سني الحرب وكذلك مات ابنها .

فقالت جان :

- إنها كانت تتولى تربية طفلة تدعى لوسي منذ عشرين عاماً فهل
تعرفين مصير هذه الطفلة الآن؟

- في ذلك العهد لم أكن مقيمة في جواني ولكن لا ريب أن

السيدة فريحي سلمت هذه الطفلة إلى الشرطة حين تخلف أهلها عن الحضور لاستلامها فأودعت أحد الملاجئ .. فعليك بإدارة الشرطة .

وللمرة الثانية طغت موجة جديدة من اليأس على جان فورتيه ! عليها بإدارة الشرطة ! نعم إنها تعلم أن تلك هي الوسيلة الوحيدة للاعتداء إلى ابتها ولكنها في الوقت ذاته الوسيلة الوحيدة لفقدائها إلى الأبد ! فلو أن شرطياً رآها لقبض عليها وساقها إلى السجن تَوَّأ ! وفي اليوم نفسه غادرت قرية جواني واليأس يعصر فؤادها .

استأجرت جان لنفسها غرفة صغيرة تقيم فيها .. وقد كانت مقترعة على نفسها خشية أن ينفد ما معها من مال قليل قبضته أجراً لها حين كانت تعمل ممرضة في مستشفى السجن .

وعلى رغم اليأس الذي انتابها كانت معولة على أن تواصل البحث عن ولديها علماً تهتدي إليهما .. ولكنها في الوقت ذاته كانت تريد عملاً تقنات من أجره إذ أوشك ما لديها من مال أن ينفد .

غادرت مسكنها .. وسارت تبحث عن حانة متواضعة تتناول فيها طعاماً .. وعلى عشرات من الأمتار أخذت عينها حانة عند بابها لوحة تحمل هذه الكلمات : «ملتقى الخبازين» .

- ١٨ -

حملت لوسي ثوب الرقص إلى بيت ابنة جاك جارود دون أن يخطر لها بهال أن الهامي جورج داريه وعد خطيبها لوسيان بأن يجد له عملاً في مصنع والد هذه الفتاة .. فقد كتم لوسيان اسم صاحب المصنع عن لوسي عملاً بوصية جورج إذ سألها أن يتكتم الأمر عن الناس جميعاً .. وإن كان قد كاشفها بما وعده جورج .

- 142 -

وحين طرقت لوسي الباب كانت ماري هرمان تقول في نفسها :
- إنني شديدة الشراء فلم لا أحاول أن أستخدم هذه الثروة في إسعاد الفقراء من الناس وتبديد أحزانهم .

كانت علتها المزمة تبعث في نفسها الإشفاق والرحمة فتتمنى لو انتشلت البيوساء من وهدة الفاقة .. ولكن في بعض الأحيان حين تشتد بها نوبات السعال .. كانت تنقلب على الدنيا بأسرها .. تتمنى لو أنها ألقت بالعالم كله إلى أتون متقد .

وقطع عليها دخول لوسي تصوراتها فاستقبلتها مرحبة .. وراحت وهي تجرب الثوب تتحدث إليها .. فعلمت منها أنها يتيمة الأبوين وأنها نشأت في أحد الملاجئ .. فقالت ماري باستنكار :

- كيف هذا .. أتودعك ملجأ ويطاوعها قلبها على أن لا تراك؟!
فقالت لوسي بأسى :

- ما من أم ترضى بأن تتخلى عن ابنتها بملء إرادتها .. وما يُدْريني أي شيء حال بيني وبين أُمِّي فيحرمني عطفها وحنوها؟
- ولكن ألم تحاولي أن تستفسري من الملجأ عن حقيقة نسبك؟
- حاولت يا سيدتي .. ولكن أنظمة الملاجئ تحرم إعطاء هذه البيانات .. فنشأت أجهل اسم أسرتي .

وبعد برهة قصيرة قالت ماري :
- لقد أنبأتني السيدة أوغستين أنك أبرع عاملاتها .. فلم لا تنشئين لنفسك محلاً للخياطة؟

فابتسمت لوسي وقالت :
- لا بد لهذا من رأس مال كبير .
- إنك وافرة الأعمال فلم لا تتزوجين رجلاً يمنحك من المال ما

تبقين؟

تضرج وجه لوسي حين سمعت هذه الكلمات .. فابتسمت ماري وقالت :

- يلوح لي أنك تفكرين فعلاً في الزواج وإلا لما تخضب وجهك احمراراً .

- هو ذاك يا سيدتي .. ولكن خطيبي فقير لا يمكن أن أرجو منه معونة مالية .. هذا إلى أنه يأبى عليّ أن أشتغل بعد الزواج .
فقلت ماري هرمان :

- يسرني عندما تتزوجين أن أدفع عنك كلفة الجهاز (البائنة) على شريطة أن يأذن لك زوجك بأن تخيطي لي ثيابي !

- إني موقنة يا سيدتي من أنه لن يرفض رجائي إذا ما سأله .
- أيمكنك أن تنجزني هذا الثوب يوم الخميس القادم؟ فإني ذاهبة إلى إحدى الحفلات الراقصة .

- سأفجّزه يا سيدتي .
- وما هو عنوانك فقد يطيب لي أن أزورك بنفسى؟

- ٩ شارع بوربون يا سيدتي .
- حسناً .. إلى اللقاء إذأ .. وسأكون في انتظارك يوم الخميس .

حين خلت ماري هرمان بنفسها عرتها موجة من الاكتئاب وراحت تقول لنفسها :

- مسكينة هذه الفتاة ! إنها لقبطة لا تعرف لها أباً أو أمّاً ! إنها كانت خليقة أن تكون أنثى الفتيات إذ حرمت عطف الأم وحنانها ! ومع ذلك فهي سعيدة هائلة .. لماذا؟ لأنها تحب .. ولأنها وجدت من يحبها .. أما أنا الفتاة الغنية فما زلت حتى اليوم لا أجد من

يحبني ! رياه ! حقاً إن الحياة بلا حب عذاب وجحيم !

وفاجأها السعال في هذه اللحظة .. وكانت وطأته شديدة .. فوضعت منديلها على فمها وقد امتنع وجهها .
وحين رفعت منديلها راعها أن رأت فيه بقعاً دموية صغيرة .
هتفت مذعورة :

- رياه ! من أين هذا الدم ؟ إني أحس كأنما في صدري أنون متأجج !

ونهضت بإعياء وتناولت جرعة من الدواء .. ثم عادت إلى مكانها أمام المدفأة .. وأسلمت نفسها إلى التصورات والأحلام .
تصورات فتاة تبحث عن الحب وتتمناه .. ولا تعلم أنها على حافة القبر !

كانت حانة «ملتقى الخبازين» مجمع الخبازين حقاً .. إذ كانوا يقدون عليها بعد فراغهم من أعمالهم يتناولون فيها طعاماً وشراباً .

وجلس جان فورتيه تتناول طعامها .. وأحاديث القوم تنتهي إلى أذنيها إذ كانوا يتكلمون بصوت مرتفع .

وفهمت من حديثهم أن إدارات الخباز تشعر بحاجة ماسة إلى موزعات للخبز على الدور فلا تجدهن لارتفاع أجر النساء .
وقالت جان :

- ولم لا أعمل يائسة للخبز ؟ إني بذلك أنال ثلاثة فرنكات ونصفاً في اليوم .. وأعمل الشطر الأول من النهار ثم أمضي بقية اليوم في البحث عن ولدي .

وتقدّمت مسرعة إلى الخباز الذي كان يتحدث عن أزمة التعاملات وأنبأته بأنها تبحث عن عمل .. فقال لها :

- إنني موقن من أن صاحبة الخبز سترحب باستخدامك .. ولكن
أتعرفين باريس جيداً؟

- حق المعرفة .. ولن يعسر عليّ أن أعرف المنازل التي أوزع عليها
الخبز في خلال أيام قليلة .

وكتب الخباز اسمها في مفكرته .. ودعاها إلى الحضور إلى الخبز
في اليوم التالي في موعد عيّنه لها .. ولكنها لم تذكر بطبيعة الحال
أنها تدعى جان فورتية .. وإنما أنبأته بأن اسمها ليزا بيرين .

في صباح اليوم التالي ذهبت جان إلى الخبز .. وبعد حديث
قصير مع صاحبة عيبتها موزعة للخبز على أن تتقاضى في اليوم
ثلاثة فرنكات ونصفاً .

وقالت لها صاحبة الخبز :

- وسترافقك خادمتي في خلال اليومين الأولين ريثما تنطبع أرقام
المنازل في ذاكرتك .

في صباح اليوم الثالث حملت جان فورتية الخبز وراحت توزعه
على الدور .

وكانت الخياطة لوسي إحدى عميلاتها .

حين رأت بائعة الخبز لوسي شعرت على الفور بميل شديد إليها .
لم تكن تعرف أن تلك الفتاة إنما هي ابنتها التي تنشدها وتبحث
عنها .. ولكنها كانت تعرف أن هذه الفتاة وجدت لنفسها مكاناً في
قلبها .

وكذلك بادلتها لوسي الشعور نفسه .

وقالت الفتاة وقد لاحظت أن جان تنفّس بصعوبة :

- بلوح لي أن صعدو السلم أرهقك ! إذا كان الأمر كذلك فلك

أن تتركي خبزي عند البواب .. قولي له إنه للآسة لوسي .

أجفلت جان عند سماعها هذا الاسم ! لوسي ! يا للمصادفة ! إنه
هو اسم ابنتها ! ولو كانت ابنتها الآن على قيد الحياة لكانت في مثل
سن هذه الفتاة .. ولكان لها جمالها !

وقالت بائعة الخبز :

- كلاً يا ابنتي .. إنني لست متعبة .. سأحمل إليك الخبز بنفسني
كل صباح ولن أتركه عند البواب ! لقد بدأت أحبك .

ولكن لم تقل لها إنها أحببتها وإنها تمنى أن تراها كل يوم ..
لأنها تذكرها بابنتها تلك التي حرمت من لقائها منذ أكثر من عشرين
عاماً !

وفي كل يوم كانت جان تتردد على لوسي .. تحمل إليها الخبز ..
وهي سعيدة راضية عن هذا العمل .

لقد شعرت بميل شديد إلى هذه الفتاة .. وكانت ترقبها وهي
منهمكة في خياطة الثياب بعينين محبتين متلهفتين . وما جسرت يوماً
على أن تسألها عن ماضيها .

وفي بعض الأحيان كانت تجد لوسيان لا يرو يتحدث إليها ..
ولكن ما خطر ببالها يوماً أن هذا الفتى هو ابن ذلك الرجل الذي
اتهمت بقتله والذي زجت بسبيه في السجن عشرين عاماً !

في اليوم الثاني من الشهر التالي بعث الهامي جورج دارييه إلى
صديقه الرسام لوسيان يدعوه إلى مقابله .

وحين دخل عليه ابتدره بقوله :

- لقد كتبت إليّ الأيسة هرمان لأطلب إليك أن تذهب إلى زيارتها
غداً في الساعة العاشرة صباحاً حتى تقدمك إلى أبيها .

- شكراً لك أيها الصديق -

- وقد كتبت رسالة إلى السيد هرمان أطريك فيها وأنبته بما أعرف من أمرك ومن سجايك .

- إنني عاجز عن أن أقدم إليك الشكر .

وفي صباح اليوم التالي دخل لوسيان على خطيته وهو يقول :

- إنني ذاهب الآن إلى مقابلة صاحب المصنع .. لقد سألتني جورج أن أكتب اسمه إلى أن أقال المنصب .. ولكن ليس بيتنا سر يكم .. إنه يدعى بول هرمان .

فقالت لوسي على عجل :

- المقيم في شارع موريل . . ؟

- هو بعينه .. أتعرفينه ؟

- بل أعرف ابنته الأكسة ماري .. وهذا الثوب الذي بين يدي لها ! وأرجو أن تنال يا عزيزي ما تصبو إليه .

في الساعة العاشرة كان لوسيان لابرو جالساً في قاعة الاستقبال يتحدث إلى ماري هرمان .

حين رآته أدهشها منه ما يبدو عليه من نبيل الوجه وأناقة الثياب .. وقالت له بأسمة :

- لقد أوصاني بك صديقنا الحامي جورج داربييه .. وأطراكَ كثيراً .. ولهذا يسرني أن أتحدث إلى أبي في شأنك .

- إنني شاكر لك يا آنستي اهتمامك بمستقبلي .. وهذا المنصب الذي أطمح إليه سيتقضي من متاعبي المالية التي أعانيها .

فقالت ماري :

- لا أكتب عنك أن هناك كثيرين يتزاحمون على هذا المنصب ..

ولكن أبي لم يقطع في الأمر برأي بعد .. وأعتقد أنه لن يخيب رجائي .. إن من عادتي أن لا أتدخل في أعمال أبي .. ولكنني أنوي هذه المرة أن أتدخل إكراماً للسيد داربييه .

وعاد لوسيان بيدي لها الشكر .

ثم تطرق بينهما الحديث إلى مواضيع أخرى .

وكانت ماري تصغي إلى حديثه بقلب خائف .. وقد اضطرم في عينها لهيب غريب ..

وقالت :

- لقد دعوتك اليوم يا سيدي لأقدمك إلى أبي .. ولكن جاءني

منه برقية منذ ساعة يخطرني بأنه تخلف يوماً في بلجيكا .. فليكن موعدنا الغد إذا .

ثم ضحكت وقالت :

- من العجيب يا سيدي أنني لا أعرف اسمك حتى الآن . ؟

- لوسيان .. لوسيان لابرو .

فابتسمت وقالت :

- لن أنسى هذا الاسم .. ويمكنك أن تطمئن يا سيد لابرو .

انصرف لوسيان وخلت ماري بنفسها .. قالت :

- لوسيان .. اسم جميل ! ولكن ما هذا الشعور العجيب الذي عراني ؟! كنت في حضرته أصغي إلى كل كلمة ينطق بها بإعجاب

وتقدير .. وكان يخيّل إليّ أن خفقات قلبي قد اشتدت !

نعم .. لا بد أن أحمل أبي على أن يعهد إليه بإدارة مصنعه ! ..

في ذلك المساء وصل جاك جارود إلى داره كما أنبأ ابنته برقية .

وحين دخل عليها تفطر قلبه حشرات .. لقد رآها شديدة التحول

شاحية الوجه .. فأيقن أن العلة الدفينة أخذت تفتك بها !
وتحرك قلب هذا السفك الذي لم ينبض له عرق يوم ارتكب
جريمته الثلاثية !

كان دائماً يخادع نفسه ويقول : كلا .. إنها ستعيش !
أما اليوم فقد تجلّت له الحقيقة .. وعرف أن الموت بسط ذراعيه
ليحتضن فتاته الوحيدة .

ضمّتها إلى صدره وقال بيأس :

- كيف حالك يا ابنتي ؟

- إنني بخير .. وقد تحسّنت صحتي !

وعاودتها نوبة من السعال .. كانت مكذبة لقولها !

وأحس الأب المسكين أنه يوشك أن يجن .. وكان عذابه ممضاً لا
يطاق ولا يحتمل !

- ١٩ -

في صباح اليوم التالي دخل جاك جارود إلى مكتبه وراح يقرأ
الخطابات الواردة إليه .

وكانت بينها رسالة تحمل الطابع الأميركي .

فضّتها على عجل وأخذ يتلوها إذ عرف أنها من أوليفر .

في هذه الرسالة أنباء أوليفر أن ديون القمار أثقلت كاهله .. وأنه
أساء إدارة المصنع قاضطراً إلى بيعه أخيراً .

واختتم أوليفر رسالته بقوله :

«وقد بت أشعر يا ابن الخال العزيز أنه لا طاقة لي على فراقك
فعولت على القدوم إلى فرنسا لأقيم قريباً منك» .

حين قرأ جاك هذه الرسالة تولاه الغضب وقال مغمغماً :

- تَبّاً له ! لقد أوصد هذا الشقي أبواب مصنع كان خليقاً أن يدر
عليه مئآت الألوف ! وها هو ذا ينوي الحضور إلى فرنسا ! لقد حسبت
أنني بإهدائه المصنع قد تخلصت من وعيده ! ولكن يلوح لي أنني لن
أرتاح منه وأنه سيعود لي رهقني بطلباته .

وقبيل الساعة العاشرة بقليل دخل الخادم على ماري هرمان ينبئها
بأن السيد الذي كان في زيارتها بالأمس حضر مرة أخرى .

خفق قلب ماري حين سمعت هذا .. وتضرّج وجهها احمراراً ..
وقالت في نفسها :

- ما هذا؟ هل بدأ الحب ينفذ إلى قلبي ؟!

وأمرت الخادم بأن يدعوه إليها .

وقالت تخاطب لوسيان حين دخل عليها :

- إنني لم أتحدث إلى أبي في شأنك بعد يا سيدي .. ولكنني
عرفت أنه لم يعين أحداً في هذا المنصب حتى الآن .. فأرجوك أن
تنتظرني هنيهة حتى أدعوك .

ولم يطل انتظاره .. فما كانت في حاجة إلى إقناع أبيها .. إنه لن
يرفض لها رجاء .. ولا سيما أن صديقه المحامي داريه قد أطرى هذا
الشاب إطرأً شديداً .

وبعد لحظات كان لوسيان في حضرة جاك جارود يدفع إليه
الكتاب الذي بعث به إلى جورج داريه .

وقال جاك يسأله :

- كم تبلغ سنك ؟

- إنني في السابعة والعشرين يا سيدي .

- وأين ولدت ؟

التهمة :

فارتعد جاك وقال :

- ولكن ما تقول في الأدلة التي قامت على إجرامها؟ !
- إنها من تدبير الظروف القاهرة .. لقد أنبأتني عملي أن القاتل لا بد أن يكون رجلاً له غاية معينة من قتل أبي .

- ومن يكون هذا الرجل؟

- مراقب المصنع .. فقد كاشفه أبي بسر اختراع جديد ينوي إخراجه فقتله غيلة وحرق المصنع ليسرق رسومات الاختراع .. إنه يدعى جاك جارود ..

وما إن سمع جاك هذه الكلمات حتى خيل إليه أن قلبه قد كف عن الخفقان .. ولكنه تمالك روعه بجهد ملموس وقال :

- ولكنني أذكر مما قرأت أن هذا الرجل مات شهيداً شهادته حين أراد أن يتشل أموال أبيك من النيران !

- تلك خدعة يا سيدي ! لا ريب أنه اقتحم النيران ثم غادر المكتب دون أن يراه أحد !

- أليدك برهان على ما تقول؟

- كلا بكل أسف .

- إذا فهذه كلها ظنون وأوهام لا تستند إلى أساس .. وما دام حكم القضاء قد صدر فقد دمع الحقيقة .

- كلا يا سيدي ! إنني أعلم أن الحقيقة لم تنكشف بعد .. ولن أبخل بجهد في سبيل تبرئة هذه المتهم البريئة .

تصيَّب جبين جاك عرقاً وقال :

- وما يجديك ذلك الآن وقد انقضت مدة طويلة لا يمكن معها أن

- في ألفورتنيل .

وشعر جاك أن الدماء جمدت في عروقه حين سمع اسم هذه البلدة ... ألفورتنيل ... ؟ إنها البلدة التي فيها مصنع السيد لابرولا البلدة التي ارتكب فيها جرائمه الرهيبة !

وعاد يقول وقد غادره روعه :

- وهل أبواك على قيد الحياة؟

- بل ماتا يا سيدي .

- وما كانت مهنة أبيك؟

- كان مهندساً ميكانيكياً .. وكان له مصنع في ألفورتنيل .

امتنع وجه جاك وعرفته الرعدة وقال :

- ما اسم أبيك .. ؟

- جول لابرولا

فقال جاك مردداً على غير وعي منه :

- لابرولا .. لابرولا

فقال لوسيان وقد رأى اضطراب جاك جارود :

- أكنت تعرف أبي يا سيدي؟

- لقد كان من أعز أصدقائي .. وهذا ما أحتاج اضطرابي حين

سمعت اسمه على غير انتظاري ولقد قرأت وأنا في أميركا نبأ الفاجعة الأليمة التي حلت به .

- فأنت تعرف كيف مات يا سيدي إذا؟

- نعم .. قتلته بوابة المصنع في أثناء الحريق .

فقال لوسيان :

- هذا ما قاله القضاء أما أنا فأعتقد أن البوابة بريئة من هذه

يقدم القاتل الحقيقي إلى القصاص؟

- سأنتقم لنفسي .. لا شك أن هذا الرجل قد أثرى بما أصاب من أرباح ذلك الاختراع الذي سرقه من أبي .. قلو أبي فضحته وشهوت به لغضبتي على مستقبله .. وكان في ذلك انتقامي الأكبر!
وساد الصمت برهة .. كان جاك بادي الاضطراب والخوف معاً .. وكان يقول في نفسه :

- رباه ..! أبعد هذه السنوات الطوال ألتقي بابن الرجل الذي قتلته .. وأسمع منه أنه مرتاب مصر على الثأر لأبيه!
ثم تحوّل إلى الشاب فجأة وقال :

- حسناً .. لقد اخترتك مديراً لمصنعي إكراماً لأبيك الذي كان من خيرة أصدقائي .. ولما كان إنشاء المصنع لم يتم بعد .. فأحب أن تعمل في داري هذه إلى أن يتم تشييد المصنع .. وقد جعلت راتبك ألف فرنك في الشهر .

فراح لوسيان يشكره ويقول :

- إنني ذاهب الآن لأتناول طعام الغداء على أن أعود فوراً لأشعر في مراجعة الرسوم .

- بل نتناول الغداء معاً .. فأرجوك أن تذهب إلى ماري في قاعة الاستقبال وتبنيها بذلك حتى تهين لك مقعداً على المائدة .
ولما خلا جاك جارود إلى نفسه قال :

- ويلاه .. إنه إن كشف أمري فلن يهتك السر عني فحسب وإنما سيقتل ابنتي المحبوبة أيضاً! ومحال أن أدعه يفعل هذا! سأجعله يقيم إلى جواردي وبذلك يسهل عليّ أن أرقب حركاته وسكناته! فإذا بدرت منه بادرة تنطوي على الشك قتلته على الفور كما قتل أبيه

من قبل! محال أن أتركه يشهر بي فيقتل ابنتي!

مضى لوسيان إلى قاعة الاستقبال وقال لماري :

- ينبغي أن أشكرك يا آنستي فقد عيّنتني أبوك مديراً لمصنعه .

وحين سمعت ماري هذه الكلمات عراها اضطراب شديد فاستندت إلى الكرسي فقال لها لوسيان وقد أدركه الجزع عليها :

- ما الذي أصابك يا آنستي؟

- لا شيء .. لقد أثر في الفرح تأثيراً شديداً .. إنه عارض بسيط يا سيدي وقد زال ..!

فعاد لوسيان يشكرها وتناول يدها فقبلها وهو يقول :

- محال أن أنسى فضلك يا آنستي ..!

وأصابتها من قبله رجفة شاملة ..!

وقالت في نفسها :

- رباه .. إني أحبه حباً شديداً .

وأنبأها لوسيان بأنه سيتناول معهما الغداء فانسحبت لكي تأمر بإعداد المائدة .

مضت ماري إلى أبيها وراحت تشكره على أن حقق رجاءها .

وفي عينيها رأى عبرات تلتع ..!

وفجأة .. ملأ الرعب قلبه .. قال في نفسه :

- ترى هل أحببت ابنتي لوسيان؟ رباه!! لو وقع هذا لكأنت هذه هي النكبة الكبرى .. ابنة القاتل تحب ابن القاتل!

رباه ..! أكون هذا ؟! اللهم رحمة بي ..!

كانت جان فورتيه تمنى أن تطيل جلستها مع لوسي إذ أحست نحوها بذلك الحب الشديد الذي يبعثه شعور الأمومة الخفي ..

فتوسلت إلى ذلك بأن حملت إليها قطعة من القماش وسألتها أن تخطيها لها ثوباً .

وفيما كانت جالسة معها راحت تستفسر منها عن ماضيها فقالت لها :

- أتحرفين الخياطة منذ زمن طويل؟

- منذ سبعة أعوام .

- وأين تعلمتها؟

- في الملجأ الذي نشأت فيه .

ارتعدت جان وقد ذكرت أن ابنتها هي أيضاً ربيت في ملجأ . .
وأن هذه الفتاة تشترك معها في الاسم وقالت لها :

- إذا فقد نشأت في ملجأ؟

- نعم . . وقد نزلته صغيرة وما عرفت أبي أو أمي .

- ومتى كان ذلك؟

- منذ إحدى وعشرين سنة .

- وكم كانت سنك إذ ذاك؟

- عام وبضعة شهور .

- ومن الذي أودعك الملجأ؟ أهلك؟

- لا أدري !

- وهذا الاسم الذي تحملينه . من أطلقه عليك؟

- لا أدري أيضاً . . فإن إدارة الملجأ حريصة على أن تكتفم أسرارها .

وفي هذه اللحظة قرع الباب فتهتف لوسي :

- ها هو ذا خطيبي لوسيان قد رجع . لقد ذهب في هذا الصباح

للقابل رجلاً من رجال الأعمال وقد وعده بأن يجد له عملاً مناسباً . . فإن فعل استطعنا أن نتزوج بعد عام .

وقصّ لوسيان على خطيبته ما كان بينه وبين جاك جارود . . أي السيد بول هرمان . . فتهتفت الفتاة :

- أقول حقاً ألف فرنك مرتباً شهرياً؟ هذه ثروة !

- فابتسم لوسيان وقال :

- أو على الأقل بداية الثروة . . فلاني أنوي أن أجدّد مصنع أبي في الفورتفيل .

سرت الرجفة في أوصال جان حين سمعت هذه الكلمات وقالت بصوت المأخوذة :

- أكان لأبيك مصنع في ألفورتفيل؟

- وإذ أحنى رأسه إيجاباً قالت :

- وما اسمه؟

- جول لابرو . . وقد مات قتيلاً في أثناء حريق شب في

المصنع . . وكان ذلك منذ واحد وعشرين عاماً . .

أحسّت جان فجأة أنها توشك بأن تنهاوى على الأرض متخاذلة القوى . . إنها هاربة من السجن . . وفجأة تجد نفسها إزاء ابن الرجل الذي ألهمت ظلماً بقتله .

ولمّا رأى لوسيان ما تبدي جان من اهتمام بأمر أبيه قال :

- لا ريب أنك سمعت عن هذا الحادث يا سيدتي إذ لم يكن

للمصحف من حديث سواه في ذلك العهد ! وقد اتهمت بوابة المصنع . . ولكنني أعتقد أنها بريئة وأن القاتل هو ذلك الرجل الذي

قبل إن النار اتهمته فذهب شهيداً مروهته !

وروى لها ما سمع من عمته وكيف أنه يشاطرها اعتقادها في أن جاك جارود هو القاتل وأن قصة موته ليست إلا خدعة .

وكان لهذا الحديث في نفس جان فورتييه أثر شديد . . هز أعماقها هزات عنيفة . . وهمّت بأن تصيح به :

- سيدي ! هأنذا تلك المتهمة البريئة !

ولكنها أمسكت . . وقد شاع في قلبها الابتهاج إذ عرفت أن ابن القتييل لا يشاطر القضاء حكمه القاسي ضدها .
وقالت تسأله :

- ولكن ما الذي تنوي أن تصنع بالقاتل حين تكشف أمره .

- أسعى إلى الإفراج عن تلك المسكينة جان فورتييه . . وقد عهدت إلى صديق لي من كبار المحامين بأن يتحرى عنها وهي لا تزال على قيد الحياة وسأستصدر أمراً بمقابلتها وأتحدث إليها . . فإن أيقنت من براءتها بذلت جهدي في إمالة اللثام عن الحقيقة .

وللمرة الثانية همّت أن تصيح بأنها هي المتهمة البريئة !

ولكنها أمسكت وأرغمت نفسها على الكتمان .

وبعد برهة قالت :

- لقد قرأت أنه كان لهذه المسكينة ولدان فما الذي حل بهما يا

تري ؟

- لا أدري .

وشحب لونها ! رياه . . أهكذا قضي عليها كلما سألت عن ولديها ألا تعلم إلا جواباً واحداً : لا أدري . . لا أعلم ؟ !

وتحوك لوسيان إلى خطيئته وقال :

- إن هذا العمل الجديد سيحرمني من لقائك يا عزيزتي إلا في

يوم الأحد .

- ولماذا ؟

- لأن السيد بول هرمان يصر عليّ أن يخصصني بجناح في قصره حتى يسهل عليه الاتصال بي حين يشاء .

- لا بأس . . ما دام عملك يقضي بذلك فلن أتذمر .

- وسأخطر صاحب المنزل برغبتي في إخلاء غرفتي منذ الغد .

فانبرت جان فورتييه تقول :

- وكم إيجارها يا سيدي ؟

- مائة وخمسون فرنكاً في الشهر ؟

- إذا سأحل مكانك فيها .

- فهنت لوسي :

- أكون سعيدة بذلك إذ أجد في قربك ما يسري عني ما أحسه

من ابتعاد لوسيان .

وفي اليوم التالي شغلت جان فورتييه الغرفة المجاورة لغرفة لوسي

دون أن يخطر لها ببال أن هذه الفتاة هي ابنتها التي تبحث عنها في

باريس حجراً حجراً .

- ٢٠ -

في ذلك اليوم أقام لوسيان لابرو في منزل جاك جارود يدرس

الرسومات ويضع التصميمات . . وكانت ماري لا تنفك تدخل عليه

مكتبه من حين إلى آخر متوسلة إلى ذلك بجميع الحجج والمعاذير .

ولم يكن هناك خفاء في أن صحة ماري تحسنت تحسناً محسوساً

في خلال تلك الأيام القليلة . . ولم يكن جاك من الغباوة بحيث

يفوته إدراك السبب في هذا التطور الملموس .

لقد أيقن أن ابنته أحبت لوسيان .. وأن الأقدار تلعب لعبتها
الجريئة الرهيبة فتجتمع بين قلبي ابنة القاتل وابن القاتل !

وظلن لوسيان بدوره إلى الأمل

وبعد شهر أيقن أن ماري تحبه فساءه الأمر وحزن حزناً شديداً ..
كان يحب لوسي حباً لا يملك معه أن ينقض عهدها .. وفي الوقت
ذاته كان يشعر نحو ماري بعاطفة من الاعتراف بالجميل لا يملك
معه أن يسحق قلبها .

على أنه كان لا يفتأ يمني النفس بقرب الفراغ من تشييد المصنع ..
فإذا تم ذلك أقام في ضواحي باريس قريباً من مكان عمله وندرت
فرص اللقاء بينه وبين ماري .

ولكن غاب ظنه !

ما كاد لوسيان يتقل إلى المصنع حتى راحت ماري تتردد على
المصنع مرات غير قليلة في الأسبوع منتحلة لذلك مختلف
الأسباب .. على حين كان لوسيان يتحاشى لقاءها قدر الطاقة ويندر
أن يذهب إلى منزل أبيها .

وفي يوم جاءت رسالة من صديقه جورج داريه الهامي يدعوه فيها
إلى تناول الغداء معه .

فلما التقيا قال الهامي :

- لقد دعوتك لأثبتك بما كان من أمر جان فورتية المتهمه بقتل
أبيك وإحراق مصنعه !

- ماذا جرى لها .. هل ماتت؟

- كلاً .. ولكنها فرت هاربة من السجن .

- فرت هاربة ؟!

وروى له جورج ما كان من أمر جنونها عقب صدور الحكم
عليها .. وكيف شقيت وارتدت إليها ذاكرتها حين رأت النيران تلتهم
المستشفى .. وكيف أنها استطاعت أن تهرب بعد أن أمضت نحو
عشرين سنة في سجنها .

فقال لوسيان :

- ألم يقبضوا عليها بعد؟

- كلاً .. ولكن الأمر لن يطول فقد أذيعت نشرة بأوصافها على
جميع رجال الشرطة .

- مسكينة هذه المرأة .. منذ أيام سمعت حديثاً عنها وقيل لي إنها
كانت من أنبل النساء !

- ومن سمعت هذا الحديث؟

- من بائعة الخبز التي تتردد على لوسي .. إنها امرأة تدعى ليزا
بيرين .. وقد ذكرت لي أن لجان فورتية ابناً وبتاً .

بعد أن فرغ لوسيان من تناول الطعام مضى إلى مقابلة خطيبته
لوسي .. وإذ دخل عليها ألقي بائعة الخبز برفقتها فلما تناهضت
للاتصراف استبقاها لوسيان إذ كان قد بدأ يحس نحوها ميلاً
وعطفاً .. وقال :

- بل ابقيني معنا .. وإني أرجو إذا ما تزوجنا أن أفرد لك غرفة في
دارنا .

فقالت لوسي :

- وأنا أتمنى هذا من كل قلبي .. وعساى أجد فيها عوضاً عن
تلك الأم التي فقدتها وأنا لا أزال رضيعة أحمل على الاكتاف .

وقال لوسيان :

- أنذكرين هذه المتهمة البريئة جان فورتبييه التي تحدثنا عنها منذ أيام؟

وروى لها ما قصه عليه المحامي جورج داربييه عن جنونها وشغائنها وفوارها من السجن .. وقال مستطرداً :

- ولكن لا مفر من أن تظفر بها الشرطة مرة أخرى .. فإنها ترصدها في كل مكان .. ولا سيما أنها تتوقع أن تمضي للبحث عن ولديها ولهذا أرصدت بعض رجالها في فريتها لمراقبتها عند قدومها . وامتقع وجه جان حين سمعت هذه الكلمات وأشاحت بوجهها إخفاء لاضطرابها .

في صباح ذلك اليوم نفسه كانت ماري هرمان جالسة في فراشها شاردة الذهن بادية الاكتئاب .

كانت تقول لنفسها :

- إنني حسناء ثرية .. وأبي من كبار الأغنياء .. ومع ذلك فلوسيان لا يحفل بي ولا يكاد يبالني بغرامي ! فما السر في هذا؟ وجعل اليأس والكبرياء يتنازعان قلبها .

وقالت في نفسها :

- ترى .. أبعده عني ما بيننا من فروق اجتماعية شاسعة؟ لعله لا يجسر على مكاشفتي بهواه لعلمه بفقره وثرائي؟

لا .. لا .. لا ريب أنه يحبني .. ولا يصرفه عن مبادلتني الهوى إلا شعوره بأنه دوني مكانة ومركزاً!

ثم لا نليث أن تراودها الشكوك فتقول :

- كلاً .. إنه لا يحبني .. ويلاه .. إنه إن لم يكن مغرماً بي فقد قضى عليّ بالموت .

وفيما هي في هذه الخواطر جاءها أبوها إلى مخدعها يقول :

- ما بالك لزمتم غرفتك اليوم .. هل أنت متوعدة يا ابنتي؟ فابتسمت وقالت :

- كلاً يا أبته .. ولكنني أفكر .

- وفيم تفكرين؟

فسكتت هنيهة ثم قالت :

- أبت .. دعني أطرح عليك سؤالاً .

- سلي ما بدا لك يا ابنتي !

- لقد أوفيت اليوم على التاسعة عشرة .. فهلأ خطر لك أن تزوجني؟

فطبع على جبينها قبلة أبوية رحيمة وقال :

- أتكرهين أن تظلي بقربي يا ابنتي؟ ألا تعلمين أن وجودك إلى

جانبي هو الذي يبعث في نفسي الشجاعة والجلد على العمل؟ !

- وهل من المستحيل أن تجمع بين الزواج وبين بقائي بقربك؟ لو

أن أحداً سمعك تقول هذا لوقع في روعه أنك تكره أن تراني

متزوجة !

فابتسم وقال :

- لا أكتملك يا ابنتي أن هذا الخاطر طاف بذهني مراراً .. وفي

كل مرة كنت أحس أنني أشقى الناس .

- وأنا يا أبته .. ألا ترى أنني أنا أيضاً شقية منكودة الحظ؟ أم

لعلك تحسب أن المال هو أساس السعادة؟ ! إنني أريد أن أسعد بالحب

يا أبته .

- وأي نبيل يمكن أن يراك ولا يهيم بك غراماً؟ !

فقلت بازدره :

- في الحب يا ابتاه ليس من الضروري أن يكون الحب نبيلاً .. لو
أني أحببت عاملاً صغيراً لكنت أيضاً سعيدة .

وخفق قلب الأب إذ أدرك ما ترمي إليه ابنته بهذا الحديث .

لم يعد خافياً عليه أنها إنما تعني لوسيان لايرو !

وساد السكون طويلاً .

ثم قال الأب :

- إنني ذاهب اليوم إلى مكتب المحامي جورج داريه فقد انقضى

زمن لم أره !

أشرق وجه الفتاة وقالت :

- وسأصحبك يا ابتاه .

ولا عجب فقد كانت تعلم أن الحديث بين الرجلين لا بد أن يدور

حول لوسيان .. ولشد ما كان يسرها أن تسمع الناس يتحدثون عنه !

بعد نصف ساعة كان جاك جارود وابنته في زيارة جورج داريه

المحامي .. وكما توقعت ماري دار الحديث حول لوسيان واشترك فيه

المصور إتيين كاستل الذي كان حاضراً .

قالت ماري :

- أليس للوسيان أسرة ؟

- كلاً .. فقد حدثت جريمة ذهب أبوه ضحيتها .

فقلت الفتاة :

- جريمة ! إنه لم يحدثني بشيء من ذلك . ارووا لي القصة رجاء .

وأنبأوها بإيجاز بما كان من مصرع والد لوسيان وكيف أنه لم يم

موتاً طبيعياً في أثناء الحريق وإنما قتل قتلاً .. وكيف اتهمت جان

بقتله .. مع أن لوسيان ابنه يرتاب في إجرامها .

وقالت ماري :

- ولكن كيف يرتاب في إجرام هذه المرأة جان فورتبييه ما دام

القضاء قد أدانها ؟ .

- إنه يعتقد أن القضاء قد أخطأ .. وكان صمم على مقابلتها في

سجنها للاستفسار منها عن الحقيقة .. ولكن الأمور بات مستحيلة .

فقلت ماري مستسرة :

- ولم بات مستحيلة؟ أمأت هذه المرأة ؟

- كلاً .. ولكنها فرت هاربة !

امتنع وجه جاك جارود وقال بصوت المضطرب :

- أهرت .. ؟

- نعم .. ولكن لا بد من القبض عليها عاجلاً فإن رجال الشرطة

يترصدونها في كل مكان .

فقلت ماري :

- ولكن ما تجدي لوسيان معرفة القاتل والاقتصاص منه مع أن

ذلك مستحيل لمضي المدة ؟

- حسبه أن يشهر به ويفضحه بين أصدقائه .. لا شك أنه أصبح

الآن من الأغنياء بما أصاب من وراء الاختراع المسروق .

فقلت ماري :

- الحق إنه انتقام رهيب ولا سيما إذا كان لهذا الجاني الأثيم أسرة

يحبها .. ولكنه انتقام عادل . وإني لأتمنى أن يظفر لوسيان بقاتل

أبيه !

وكان جاك يحس من هذه الكلمات مثلما يحس المقتول وسكين

خصمه تجري على عنقه !
لا أفجع على قلب الأب الذي يحب ابنته أن يسمع من بين
شفتيها مثل هذا الحكم القاسي يصدر ضده .

وبعد صمت قصير قال جورج :

- إن لوسيان يحاول أن يقتصد الآن ما يستطيع من مرتبه حتى
يجدد مصنع أبيه الذي احترق في الفورنيل . . وتلك هي الأمنية
التي يجيش بها صدره .
فقلت ماري :

- إنها أمنية صعبة المثل . . ولا بد له أن يتظر طويلاً . . إلا إذا
أراد أبي أن لا يطول انتظاره .

فتحول إليها أبوها يقول :

- كيف يكون الأمر منوطاً بإرادتي؟

- فقالت الفتاة :

- لقد أنبأتني منذ أيام أنك تنوي أن تنشئ مصنعاً جديداً . . فهلأ
يستطيع لوسيان إدارته؟

- طبعاً . . وسوف أعهد إليه بالأمر .

فقلت ماري ببساطة :

- إذاً اجعله شريكاً لك . . !

أذهلت هذه الكلمات جورج والمصور إثنين . . وأراد أبوها أن
يعترض ولكنها بادرت بمقاطعة بقولها :

- ولم الاعتراض يا أبي؟ ! إنها شركة على قدم المساواة . . أنت
تقدم المال . . ولوسيان يقدم عمله وإدارته . . وبعد فإنك بحاجة إلى
شيء من الراحة . . ولوسيان فيما سمعت منك جدير بالثقة .

- إنه جدير بكل ثقة يا ابنتي . . ولكن المشروع خطير لا يقدم
عليه المرء إلا بعد التروي وإنعام الفكر . . على أنني أوافق مبدئياً على
ما أشرت به .

وحين نهض الأب وابنته مزمرعين على الانصراف قالت الفتاة
لخاطب المصور :

- إني سعيدة بلقائك يا سيدي ويسرني أن أزين قصر أبي ببعض
لوحاتك الخالدة . . فهل ترسل إلي بعضها مع لوحات أخرى
للمصورين الآخرين على أن تختارها بنفسك؟

- بكل ارتياح يا آنستي . . وإني شاكر لك ما أوليتني من ثقة
وشرف !

حين خلا المحامي والمصور أحدهما إلى الآخر قال جورج :

- ما الذي فطنت إليه في أثناء هذه الزيارة . ؟

- فطنت إلى أن ماري هرمان مفتونة بلوسيان .

- أصبت . . ولا شك عندي أنها ستزوجه .

فقال المصور :

- إني لا أشاطرك رأيك هذا . . ألم تظن إلى أن أباه كان بريماً
بهذا الحديث ؟!

- ولكنه يحبها ويكره أن يرفض لها طلباً .

- يجوز . . ولكنني أعتقد أنه يحقت فكرة زواجها من لوسيان مقبلاً
قد يظني حتى على حبه لابنته . . ومع ذلك فسوف نرى .

في خلال ذلك كانت المركبة تشق الطرقات حاملة جاك جارود
وابنته وكل منهما غارق في خواطره لا يلقي إلى صاحبه كلمة .

كانت ماري تفكر في ذلك الاقتراح الجريء الذي ألقت به إلى

أبيها .. وكيف سألته في غير تردد أن يتخذ لوسيان شريكاً دون أن
تبالي بما قد يثيره هذا الاقتراح في ذهن المحامي والمصور من ظنون .
وكان جاك يفكر فيما سمع عن فرار جان فورتييه من سجنها ..
وكيف أنها جاءت باريس تبحث عن ولديها .
وجعل يقول لنفسه :

- ليت شعري ما يكون من شأني إذا كشفت جان شخصيتي قبل
أن يقبض عليها؟ ولكن لا .. ينبغي أن تقبض عليها الشرطة .. قبل
أن تفضحني وتقتل ابنتي !
وذكر في هذه اللحظة الرسالة التي جاءته من أوليفر سوليفر ينذره
فيها بقدومه .. وقال في نفسه :

- رباه ! ما هذه التنبؤات التي توشتك أن تتوالى .. أياكون في
باريس شخصان يعرفان سرّي؟! ولكني لا أخشى أوليفر .. إن في
وسعي أن ألجم لسانه بالمال .. أما جان فورتييه .. !
وتصّبت جبينه عرقاً ..

القسم الثاني

الثكفير

- ١ -

في ذات صباح وصل أوليفر سوليفر باريس قادماً من أميركا ..
فذهب من فوره إلى دار «ابن خاله» جاك جارود فقبل له إته ذهب
إلى مصنعه فمضى إليه من فوره .

قرع أوليفر باب المكتب ودخل .. وما إن وقعت عليه أنظار جاك
حتى بهت وشحب لونه .. وقال في اضطراب :

- أهذا أنت؟

- نعم .. ولكن لمّ تستقبلني بهذا البرود؟! أساءك قدومي يا ابن
الخال العزيز؟

وتمالك جاك روعه وبسط يده يصافح أوليفر ودعاه إلى الجلوس .
ثم قال يسأله :

- ولكن لمّ جئت تزورني؟

- لأسألك أن تجد لي عملاً في مصنعك! ..

فصاح بغضب :

- تيّاً لك ..! أهكذا تضعيك ذلك المصنع العظيم الذي تنازلت لك
عنه في نيويورك؟

- إنه القمار ..! هو الذي أفسد حياتي .. وجعل إدارتي سيئة ..! .
فقد أتت المائدة الخضراء على كل أموالي فلم يعد ياقياً لدي إلا
بضعة دولارات لا تغني من الأمر شيئاً .. ولهذا أرجوك أن تعيّنني

واسترحت من شرورك فتؤول ثروتي إلى ابنتي ولا تنال منها شيئاً !
فمن الخير لك أن تكتم سرّي . . لأنك قد تنال مني في حياتي ما لا
تناله بعد مماتي !

وساد الصمت برهة . .
وعرف أوليد أن جاك صادق في قوله . . وأن اليأس قد يدفعه إلى
الانتحار . . ولن يستفيد شيئاً من موته .
وقال :

- ولكن كيف يطاوعك قلبك على أن تتخلى عني ؟!
- ولكني لن أتخلى عنك . . سأمدك بالمال على أن لا تحاول
مقابلي . سأنتدك كل شهر ألف فرنك .
- ألف فرنك ؟! هذا قليل !

- إذا أفلعت عن المقامرة كان فوق الكفاية . . وبعد . . فليس في
وسعي أن أعطيك أكثر من هذا ! وسأعطيك الآن مرتب الشهر الأول
مع خمسة آلاف فرنك تؤثت بها دارك .

وفتح خزانته ودفع إليه ستة آلاف فرنك .
وفيما هما في الحديث قرع الباب ودخل الخادم ينيئ سيده بأن
السيد لوسيان لا برو يطلب مقابله .

ونفض أوليد لينصرف ولكنه قبل أن يغادر الغرفة ألقى على
لوسيان نظرة فاحصة وقال في نفسه :

- إذا فقد تصادق القاتل وابن النقييل ؟! ألا ما أعجب تصاريف
القدر !

حين خلا جاك جارود بنفسه راح يقول :
- يا لحظي ! هل تخلت عني الأقدار ؟ وهل بدأت العاصفة تنذر

مديراً لمصنعك .

- محال . .

- وما السبب ؟!

- إن مدير مصنعي الحالي هو ابن الرجل الذي قتلته . . ابن جول
لابرو . . ! وإذا اجتمعتما فقد يجري لسانك بكلمة تكون فيها
فضيحتي والقضاء عليّ .
فقال أوليد :

- ولكنني سأكون حذراً .

- على أية حال لا أستطيع أن أجد لك عملاً في مصنعي . . لقد
منحتك مصنعاً هائلاً وخمسين ألف دولار . . فإذا كنت ضيبت كل
هذه بحماقتك وسوء تصرفك فلا يمكن أن تحسبني مسؤولاً ومطالباً
بأن أعوض عليك ما خسرت .
فقال أوليد بصوت هادي :

- إذا فقد عولت على أن تتخلى عني ؟!

- بلا ريب ! أنت الذي جنيت على نفسك !

- وأنت الذي ستجني على نفسك !

فقال جاك بوحشية :

- أتحسبني أبالي بتهديدك ؟! إني أعلم ما يجوز في خاطرك . .
إنك تقول لنفسك : إذا أبى أن يعطيني من المال ما أشاء توعده
بalfضيحة فيضطر أن يحشو فمي بالمال حتى لا أتكلم !

- كلاً يا صاح ! لو أنك فضحتني لما أصبت مني فرنكاً واحداً !

- وكيف ذلك ؟

- إذا عرفت أنك مصر على هتك سرّي أطلقت النار على نفسي

بالهبوب؟

جان فورتييه هربت من السجن .. وأوفيد سوليغر يتوعدني ..
ولوسيان لا يبرو يبحث عني ليفضحني !

رباه ! ما أشد حرج الموقف ! لا ينفذني من هذا المأزق إلا أن أقتل
هؤلاء الثلاثة .. ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ !

راح جاك يتروى في الأمر ويحاول أن يقع على وسيلة يقضي بها
على خصومه الثلاثة .

وإذ أدركه اليأس انفرجت أساريره فجأة وقال في نفسه وهو يهز
كتفيه بغير اكتراث :

- ولم الخوف؟ وأي شر أخشى وقد ألجمت لسان أوفيد
بأموالي .. ولوسيان مقيد بما أغمره به من فضل ومساعدات .. أما
جان فلا ريب أن السجن مصيرها . كلا ! ليس ثمة ما أخشى من
الثلاثة .

في غضون ذلك كانت حالة ماري الصحية تسوء يوماً بعد يوم ..
كان الحب في أول الأمر بلسماً لعلتها المزمنة .. أما الآن فقد
انقلب شراً يضاعف منها !

ولم يكن هناك خفاء في أن الحب الذي أفادها في عهده الأول
قد بدأ الآن يقتلها ويقضي عليها لما رأت من انصراف لوسيان
وأعراضه عنها .

وكان أبوها أشد إدراكاً لعله ابنته من سائر الأطباء ولكن ما
حيلته؟ وأي دواء يمكنه أن يقدم إليها فيشفئها ؟ !

وفي ذات يوم لم تجد ماري بداً من مكاشفته بما في نفسها .
دخل عليها يوماً فرآها شاحبة فأخذ بيدها وقال برفق :

- ما بك يا ابنتي؟ أمرضة أنت؟

وعرتها نوبة من السعال فقال :

- أنتالين يا ماري؟

فأجابت :

- كل الأكم يا أبتاه !

ومن عين «السفك الدموي» انحدرت دموعاً وشفافاً وقال :

- وأين تحسین الأكم؟

- هنا .. فوق موضع القلب !

تألم جاك وعصر الحزن فؤاده .. فوق موضع القلب ! ترى هل

أنبلت الساعة الرهيبة؟

وقال :

- ولكني ما سمعت منك هذا إلا اليوم !

- لأن علتي لم تشتد إلا منذ عهد قريب منذ غشي الحب فؤادي .

نظر إليها برهة ثم قال :

- أهو لوسيان لا يبرو الذي تحبته؟

غضت من بصرها وأحنت رأسها إيجاباً .. وقالت :

- لقد سري حبه في دمائي يا أبتاه ! ومحال أن أنساه ..

امتقع وجه الأب وقال بغضب مكتوم :

- ولكن هذا الحب جنون !

فانفجرت ماري تبكي وقالت ونشيج البكاء يقطع كلماتها :

- ليس في العالم قوة يمكن أن تنزع هذا الغرام من قلبي يا أبتاه .

ثم ما لبثت أن أردفت تقول :

- ولكن لم تكره أن أتزوج لوسيان ؟! إن كان فقيراً فقد كنا نحن فقراء في مستهل حياتنا وما حاجته إلى المال ولدينا من المال ما يكفي ؟! وهو بعد ليس بالفتى الحامل .. إن له مستقبلاً باهراً !
ومع ذلك فالحب يا أبتاه ليس سلعة تُعرض ! لو أنه كان ذميم الصفات لما ملكت إلا أن أحبه !

اتخذته لك شريكاً .. وزوجني إياه .. ولنعيش نحن الثلاثة معاً .
بذلك نصبح كلنا سعداء !
لثت جاك جارود صامتاً لا يجيب وقد استغرقته الخواطر .
وقالت الفتاة :

- إنني أعرف أنك تحبني يا أبتاه .. فإذا كنت لا تريد أن أموت فزوّجني لوسيان .
فهتف الأب بجزع :
- تموتين !

- نعم .. ألا ترى أن العلة تحز في بدني ؟! منذ أحببته ازدادت العلة وطأة علي ! ولا يشفيني إلا أن أتخذة زوجاً .
فقال الأب بصوت المذهول :

- سليني ما شئت يا ابنتي أحقق رجاءك .. ولكن لا تطلبي مني أن أزوجه لوسيان . إن من المستحيل أن يصبح لك زوجاً .
فقالت بإصرار :

- ولكنني لن أتخذ منه بديلاً !

وفجأة شحب لونها وارتمت أوصالها .. وغمغمت :

- قلبي .. أحس أنني أختنق !

وتهاوى رأسها على مسند المقعد وأغمي عليها .

وفي جنون وثب أبوها واقفاً وقد ظن أنها ماتت ..

أخذ بيدها بصوت يقطع نياط القلوب راح يقول :

- ماري .. حبيبتي ماري .. تكلمي .. إنني راض بكل ما تريدان !
سأزوجه من لوسيان ! أقسم على ذلك .. ولكن تكلمي ! حبيبتي !
ولكنها لم تتكلم ولم تحب !

ووثب يندق الجرس بعنف وهو يصيح :

- رباه ! لقد قتلتها ! ويحي !

وأسرعت إحدى الخادومات تلبي النداء .. وأدركت أن سيدتها مغنى عليها فبادرت تنضح وجهها بالعطر .

وتحركت ماري .. واختلج جفناها .

وانفرجت أسارير الأب وغمغم :

- إذا فقد كان مغنى عليها !

ويرفق حملها إلى فراشها وأرقدها على سريرها .

وحانت منه لفظة .. وبين شفيتها رأى نقطة من الدم .

وهنا أمام هذا المشهد .. مشهد ابنته الوحيدة تبصق دماً .. لم يملك ذلك الوحش إلا أن بكى ! ..

انهمرت العبرات من عينيه .. وبدا كالأطفال ينشج ويهتز بدنه بانفعال .

وفتحت ماري عينيهما ببطء .. جالت ببصرها في الغرفة ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع :

- لوسيان ! .. لوسيان ! ..

هتف أبوها بصوت مختنق :

- اطمئني يا ابنتي .. ستعيشين لكي تحيه .. وتسعدي إلى جانبه !

ودبت الحياة في أوصال الفتاة وقالت :

- أترضى أن أتزوجه ؟ .

- نعم يا ابنتي . . وأقسم لك على ذلك . . لكن عيشي لأجلي .
ولأجله !

فابتسمت وقالت بصوت يخالطه الإعياء :

- سأعيش وسأكون سعيدة ! . .

كان جاك يحب ابنته . . وكان موتها لاشك خليقاً أن يقضي
عليه . ولم تكن لديه رغبة في أن هذا الزواج ينبغي أن يتم بينها وبين
لوسيان .

وقال في نفسه :

- وما يدريني أن هذا الزواج سيكون درعاً تقيني من انتقام لوسيان
إذا انكشف له أمري . . إذ ليس معقولاً أن يشهر بوالد زوجته . . !

وصح عزمه على أن يفاخ لوسيان في أمر الزواج .

دعا إليه لوسيان وقال له :

- إني أريد يا بني أن أحدثك في أمر خطير !

وكان بادي الاضطراب لا يدري كيف يستهل الحديث .

وبعد سكتة قصيرة استطرد :

- لقد أخبرني جورج داربيه أنك تنوي أن تجدد مصنع أبيك في
الفورتنيل .

- هذا صحيح يا سيدي . وهذه الأمنية نجيش في صدري منذ
أعوام .

- اعلم إذا أن أمنيته وشيكة أن تتحقق . وسأكون لك عوناً على
تحقيقها . . !

- حقاً ؟

- نعم . . إني أنوي أن أنشئ مصنعاً جديداً . . وقد اخترت لبنائه
مدينة الفورتنيل . . وسأقيم على الأرض التي قام عليها مصنع
أبيك .

فقال لوسيان :

- إني آسف يا سيدي . . فانا لا أنوي أن أبيع هذه الأرض !

- وهل سألتك أن تبيعني إياها ؟

فبدت أمارات الدهش على وجه لوسيان وقال :

- ماذا تعني يا سيدي ؟

- أعني أنني سأأخذك شريكاً لي . أقدم إليك المال وأنت تتولى
الإدارة . . إني في حاجة إلى شريك أمين شريف . . فقد تقدمت بي
الأعوام وأصبحت في حاجة إلى الراحة .

ساد السكون هنيهة . . وكان لوسيان لا يكاد يصدق أذنيه . .
كيف هذا . . ؟ . . أيتخذ بول هرمان شريكاً . . ؟ وما الذي يحمله
على هذا ؟

وقال لوسيان :

- سيدي ! أنا لم أعمل بعد ما أستحق عليه هذه المكافأة !

قال جاك جارود بصوت هادئ :

- أتعلم يا سيد لافرو كيف انفتحت أمامي أبواب الثراء ! . وكيف
شاركت نيومي مورتيمر وقد كنت عاملاً بسيطاً ؟

- طبعاً . . بجهدك ونبوغك !

- هذا أمر طبيعي . . ولكن الخطوة الكبرى كانت حين زواجني
مورتيمر ابنته واتخذني له شريكاً . . فلم لا أجعل من مورتيمر قدوة

لي ؟! أتخذك شريكاً وأقدم إليك نصف ثروتي الباقي بائنة لابنتي عند زواجك بها !

وارتعد لوسيان وقال بصوت المتلعثم :

- أتعني أن أتزوج الأكمة ماري؟

- هو ذاك ! وأي حائل يقوم دون هذا الزواج ؟ إن ابنتي تحبك وقد اختارتك زوجاً لها .

ساد الصمت هنيهة .. وبصوت متحشرج قال لوسيان :

- سيدي .. إن هذا العطف الذي تبديه نحوي يجعلني عاجزاً عن شكرك .. ولكن يؤسفني أن أراني مضطراً إلى الاعتذار عن قبول هذا الاقتراح .

بدت أمارات الدهش على وجه جاك وقال :

- ماذا تقول ؟ أرفض أن أتزوج ابنتي ؟ وما السبب ؟

- لأنني يا سيدي رجل ذو كرامة يأبى أن يمرغها في التراب .

فقال جاك جارود على عجل :

- ما هذا الذي تقول ؟! يلوح لي أنك أسأت فهم حديثي ..

أتحسبني أحاول أن أغريك بالمال ؟! ألم أقل إن ماري هامت بك حباً واختارتك زوجاً ؟

فقال لوسيان :

- فهمت هذا يا سيدي .. ولكنني لا زلت مصرّاً على الرفض .

- وما السبب ؟

- إني أحب فتاة أقسمت أن أتزوجها .. ومحال أن أحت

بعهدي .

- وهذه الفتاة التي أحببت .. أتراها فقيرة ؟!

- إنها لا تملك مالاً .

- وهل تحسب أن الحب يدوم مدى الحياة ؟! تزوج ابنتي يبق لك

المال حين يفنى الحب .

- إن حبي لا يفنى يا سيدي !

- وماري .. ألا تعلم أن رفضك هذا يمكن أن يقتلها ؟!

- إنها لا تلبث أن تنساني يا سيدي .

- وهذه الثروة التي أعرضها عليك ! إنك بهذا الرفض تطأ

مستقبلك بقدمك !

- إني آسف يا سيدي .. إن قلبي ليس بالسلعة المعروضة للبيع !

ثم انحنى أمام جاك وغادر الغرفة .

حين خلا جاك بنفسه صاح كالهجين :

- إنه لا يحب ابنتي ! .. يؤثر عليها فتاة فقيرة !

ولكن هذا لن يكون . إذا أبى أن يتزوجها قتلها !

ومحال أن أسمح لمخلوق بأن يقتل ابنتي ! محال !

- ٢ -

بعد ظهر ذلك اليوم ذهبت ماري إلى زيارة خياطتها السيدة

أوغستين فليماً وجدت عندها لوسي أقبلت عليها تقول بلهجة عتاب :

- أين أنت يا لوسي ؟! لِمَ انقطعت عن زيارتي بعد أن أئجرت

فستان الرقص ؟! إن حديثك يروقني !

فشكرتها لوسي على تلفتها .. واستطردت ماري تقول :

- وفي نيّتي أن أزورك يوماً ما .. أنت تقيمين في شارع بوربون

رقم ٩ أليس كذلك ؟

- هو ذاك يا سيدتي .. وفي زيارتك شرف لي !

وأضمت ماري أكثر من ساعتين عند الحياطة وأوصت على الكثير من الثياب .

وأخيراً رجعت إلى دارها .

رجعت لكي تتقرب ما يحمل إليها أبوها من الأنباء .

وحين رجع في المساء أقبل عليها يقول وهو يعانقها :

- أراك الآن خيراً عما كنت في الصباح يا ابنتي !

- لقد أفادني النوم كثيراً . . ولكن خبّرني أي نبأ لديك؟ هل

تحدثت إلى لوسيان؟

- تحدثت إليه يا ابنتي . . ويمكنني أن أقول إن الحياة ليست قائمة

مظلمة كما كنت تتوهمين .

- إنك طبعاً لم تنبئه بأنني أحبه !

- وهل تفوتني يا ابنتي مراعاة التقاليد؟ لقد قلت له إنه إن خطبك

فلن أتردد في القبول .

- وما كان جوابه؟

- إنه لم يكذب صدق . . قال إن ما بيننا من تباين الثروة والمركز

الاجتماعي يجعل الأمر يبدو شبه مستحيل .

- وإلى أي شيء انتهى الحديث بينكما؟

- لقد رضي أخيراً ولكنه اشترط شرطاً !

- أي شرط؟

- إنه رجل نبيل الصفات يكره أن تكون لي يد عنده . . ولهذا

سألني أن أمهله حتى يصيب ثروة يرجوها من اختراع بوشك أن

يبرزه .

فكانت الفتاة :

- إن هذه الصفات النبيلة تحملني على تقديره . . ولكن أنراه

يحبني كما أحبه؟

فقال أبوها مجيباً :

- ومن ذا الذي يملك أن لا يحبك؟!

نظرت ماري إلى أبيها وقالت :

- أبي ! أترأوني؟ ليس في قولك هذا ما يمكن أن يعدّ جواباً على

سؤالي !

فقال أبوها بشيء من الارتباك :

- إنه لم يحبني بصراحة . . ولكنني كنت أقرأ في عينيه من الحب

آيات صارخة !

خفق قلب الفتاة وقالت :

- أأست وأهمل؟

- محال ! فالعين مرآة الحب .

وسكتت الفتاة هنيهة ثم عادت تقول :

- ولكن هل يطول الانتظار؟

- لا أدري . . بضعة شهور في الغالب .

- وفي خلال هذه الفترة . . أأكون ما بيني وبين لوسيان مثلما

يكون بين خطيبين؟

- وهل غاب عنك أنه شديد الحياء؟

- ولكن أيرده الحياء عن مكاشفتي بحبه؟

- إنه سيتدبّر على دارنا كثيراً على أي الأحوال .

وقالت الفتاة وقد غمت نبرات صوتها عن الابتهاج :

- أبي . . أرجو أن تبادل بإعلان خطبتنا .

- سأفعل يا ابنتي !

وجلسا يتناولان العشاء معاً .

كانت ماري طيلة السهرة مشرقة الوجه باسمه الثغر . . وكان أبوها كلما نظر إليها يقول في نفسه :

- لا بد أن أحتال على تزويجها بلوسيان . . لو أنه لم يتزوجها لمائت حزناً وغماً !

في صباح اليوم التالي دعا جاك جارود مدير مصنعه لوسيان لأبوه إلى مكتبه وكاشفه بأن في مدينة بلغراد صفقة عظيمة ينبغي أن يسافر أحدهما لإبرامها وقال :

- ولدي من الأسباب ما يحول دون سفري فهل تحب أن تنوب عني ؟

فقال لوسيان :

- بكل ارتياح يا سيدي . . فمضى تريد مني أن أسافر ؟

- غداً . . وسأمنحك خمسة آلاف فرنك مكافأة إضافية لنفقات هذه الرحلة . . وأرجوك أن تبعث إليّ في كل يوم برسالة تنبئني فيها بما عقدت من صفقات وأبرمت من عقود .

وإذ خلا جاك جارود بنفسه قال :

- ستستغرق هذه الرحلة أسبوعين على الأقل . . وفي خلال هذه الفترة أكون قد اهتمت إلى هذه الفتاة التي يحبها لوسيان فأتدبر الأمر معها . . فإن أثبت الابتعاد عنه قتلها بغير تردد .

والأمر لا يحتمل إهمالاً . . فلما حباة ابنتي وأما حباة هذه الفتاة . . وأي أب يرضى بأن يضحى بابنته ؟

أما أوليفر سوليفر فسيكون أداتي في ارتكاب هذه الجريمة . . وهو

في سبيل المال لا يمكن أن يحجم عن شيء !

وبعد . . فإن إقدامه على قتل الفتاة خليك أن يجعله في قبضة

يدي كما أنا الآن في قبضة يده !

وفرك كفيه ابتهاجاً .

في ذلك المساء بعث جاك جارود إلى أوليفر سوليفر يدعوه إلى مقابلته .

وفي صراحة كاشفه بما في نفسه .

حدثه عن غرام ابنته بلوسيان لأبوه . . وإعراضه عنها لغرامه بفتاة فقيرة . . وكيف عرض عليه نصف ثروته فأبى أن يحث بعهدته للفتاة .

وقال :

- وأنا رجل لا أحب في هذه الدنيا غير ابنتي . . ومن أجلها لا أحجم عن أن أضحي بكل شيء . . ولا يمكن أن أظل مكتوف اليدين وأنا أراها تذبل وتذوي أمامي !

- وماذا تبغي ؟

- أريد أن أزوج ابنتي بلوسيان لأبوه !

- ولكنه منصرف عنها إلى فتاته !

فقال جارود بوحشية :

- إذا ينبغي أن تقتل فتاته !

- وهل انتدبتني لأداء هذه المهمة ؟

- بلا شك . . وستنال الأجر الذي تبغي !

- ولكن ما اسم هذه الفتاة ؟ وما هو عنوانها ؟

- هذا ما لا أدريه . . ولكن عليك أن تتدبر الأمر . لقد أقصيت

لوسيان بأن أوفدته إلى بلغراد في مهمة تستند منه أسبوعين على الأقل . . . وسيسافر غداً أو بعد غد . . . ولا بد أن يمضي الليلة أو غداً إلى مقابلة خطيبته وتوديعها قبل سفره . . . فإذا ترصدت خطواته أمكنك أن تهتدي إلى عنوان الفتاة .

وذكر له عنوان لا برو .

وقال أوفيد باسمًا :

- يمكنك إذا أن تعتمد عليّ في القضاء على هذه الفتاة . . . ولكن لا تنس أنني سأسألك أجراً كبيراً !

- ولن أسألك !

وانصرف أوفيد سوليفر وهو يمتي نفسه بالأجر الضخم الذي سيصيه عاجلاً .

كانت ماري هرمان من أسعد الفتيات .

بانت ليلتها تحلم بقرب زواجها من لوسيان لا برو . . . وعلى رغم العلة الويلة التي تنخر في صدرها سرى في وجنتيها تورّد بعثه الحب .

ولكنها حين عرفت أن لوسيان مسافر إلى بلغراد . . . وأن غيبته ستطول أسبوعين أو ثلاثة . . . امتنع لونها وأدركها الشحوب .

ولكن أباهما استدرك الموقف بقوله :

- إني ما أوفدته إلى بلغراد يا ابنتي إلاّ تمهيداً لإشراكه معي . يجب أن يتحمّل مسؤولية تصريف الأمور وحده . . .

وسرّي عنها . . . ووجدت في هذه الحجة ما خفّف عنها لوعة الفراق .

وفي الساعة نفسها التي جرى فيها هذا الحديث بين الأب وابنته

كان أوفيد سوليفر يرصد باب لوسيان لا برو وقد تنكر في زي كهل ليس من السهل اكتشاف حقيقة أمره .

وبعد ساعة غادر لوسيان داره فانطلق أوفيد في أثره وهو يقول في نفسه :

- ترى من تكون هذه الفتاة التي يحبها لوسيان . . ؟

ومضى لوسيان إلى الدار التي تشغل لوسي غرفة منها وصعد إليها على حين انزوى أوفيد على قرب يرقب ما يجري .

استقبلت لوسي خطيبها بابتهاج وقالت تعاتبه :

- لقد أبطأت يا لوسيان . . وقد كاد الجوع يقتلني !

فضحك وقال :

- إذا هيا بنا فقد كاد يقتلني أنا أيضاً !

ثم ما لبث أن أردف :

- على أنه ينبغي أولاً أن أكاشفك بنبي هام وإن كنت أعلم أنه يسووك .

فقالت وقد سرى القلق إلى نفسها :

- أي نبي يا ترى ؟

- إني مسافر إلى بلغراد .

وحذّثها بالأمر .

فابتسمت وقالت :

- هذا النبأ يسووني ويسعدني في آن واحد . . يسووني منه فراقك

ويسعدني أنك أصبحت أهلاً لشقة السيد هرمان . . ومن أجل هذا سأصبر على هذه الأسابيع الثلاثة لا أتذمر ولا أشكو .

فابتسم وقال :

- أمّا أنا فأشكركم !

- مني ؟

- بل من عملي وفي نيتي أن لا ألبث طويلاً في خدمة السيد هرمان .

دهشت لوسي وقالت :

- ولكن ما السبب ؟

- إنه سبب خطير . . . وسأثبثك به فيما بعد .

- ولم لا يكون الآن ؟

- لأنني أريد أن أتحدث إليك الآن في شؤون أخرى .

ثم قال على الفور مغبراً الحديث :

- كنت أتمنى أن تلازمك السيدة ليزا بيرين في أثناء غيابي .

- هذا متعذر الآن . . . فإن صاحبة المخبر لا تزال طريحة الفراش

وهي مضطربة لهذا أن تسهر على تمريضها . . .

فيما كان هذا الحديث يدور بين الخطيبين طرق الباب ودخلت

بوابة المنزل تنبئ لوسي بأن سيدة تنتظرها في مركبتها عند الباب .

وهبطت لوسي مسرعة لتري هذه الزائرة فألفتها الأتمة ماري

هرمان .

تبادلت الفتاتان التحية وقالت ماري :

- إني ذاهبة يا لوسي لأنتزعه في غابة بولونيا فهل لك أن ترافقيني

فتؤنسي وحدتي . . . !

بدا الارتياح على وجه لوسي وقالت :

- ما كان أحب إليّ من هذا . . . ولكن في زيارتي ضيفاً لا أستطيع

أن أدعه وأنصرف .

فقلت ماري باسمه :

- وهل هذا الضيف عزيز عندك إلى هذا الحد . ؟

فارتسمت ابتسامة على شفتي لوسي وقالت :

- ذاك سرّي . . . فإن أردت أن تتبينه فاصعدي معي . . . وإني موقنة

من أن الأمر سيكون عندك مفاجأة مذهشة .

وأثارت هذه الكلمة فضول ماري هرمان .

نزلت من مركبتها وأخذت ترتقي السلم . . . وكانت غرفة لوسي

واقعة في الطابق الأخير . . . والسلم عال مرتفع . . . وأنهكها الصعود

ولكنها تابرت وتحاملت على نفسها إذ لم تكن تعرف أنها

مصدورة . . . !

وأخيراً بلغت الغرفة .

دفعت لوسي الباب وقالت :

- تفضلي يا سيدتي بالدخول .

ووقع بصر ماري على لوسيان . . . ورآها كما رآته . . . وصاح الاثنان

صيحة دهش . . . وألقت ماري يديها فوق قلبها وقد سرى الإعياء

إليها فجأة .

وقالت لوسي دون أن تظن إلى ما عرا صاحبها من اضطراب :

- إنك تعرفينه طبعاً يا سيدتي ؟ !

لم تجب ماري على هذا السؤال . . . كانت كمن لا يسمع أو

يفهم . . . وإنما التفتت إلى لوسيان وقالت :

- لم أكن أتوقع أن أراك هنا يا سيدتي !

جمد لوسيان صامتاً لا يجيب . . . ولكن لوسي انبرت تقول عنه :

- إننا صديقان يا سيدتي . . . وقد اعتاد أن يزورني كل يوم أحد .

فقالت لوسي وهي تغالب عواطفها :

- أتعرفينه منذ عهد طويل ؟

- منذ عامين .. فقد كان يقيم في هذا المنزل .. وقد استحال
صداقتنا حباً وهو الآن خطيبي .. وعاجلاً أزف إليه .

وكان لوسيان واقفاً كالمصعوق .. كان يعلم أن كل كلمة تنطق
بها لوسي إنما هي طعنة مسددة إلى قلب هذه الفتاة المسلولة ..
ولكن ما حيلته في الأمر .. وما الذي يسعه أن يفعل ليتلافى هذا
الموقف ؟

إنه يحب لوسي لا ماري .. وليس في وسعه أن يخادع الفتاة أو
أن يقدم إليها قلبه كأنه سلعة تباع وتشترى .

وعجبت لوسي حين رأت ما عرا ماري من شحوب واضطراب
وأقبلت عليها تقول بحنان :

- ما بك يا سيدتي ؟ هل أرهقك صعود السلم ؟ تفضلي
بالجلوس .

غالبت ماري ما بنفسها وقالت :

- ليس بي شيء ! إنني منصرفة ما دام ليس في وسعك مرافقتي ..

ثم تحوكت إلى لوسيان وقالت :

- لقد سألتني لوسي أن أصعد إلى غرفتها وقالت إنني سألقى فيها
مفاجأة تدهشني .. وقد صدقت يا سيدي ! ولكنني موقنة من أن
الأمر عند أبي سيكون مفاجأة أجل وأعظم !

ثم أولته ظهرها ومشت إلى الباب .

كانت لوسي في عجب مما رأت .. تسائل نفسها عن سر هذا
الاضطراب الفجائي الذي انتاب ماري .. وما شغل الموقف بغنة من

برود غير طبيعي ..

وكان لوسيان حزينا مكتئباً يعلم أن هذا الموقف قد دفع بالفتاة
المسكينة إلى القبر !

وقالت لوسي تسأله :

- ما الذي أصاب ماري حتى طرأ عليها فجأة هذا التغيير
العجيب ؟

فقال مراوفاً :

- ربما أرهاقها صعود السلم !

فغمغمت لوسي :

- مسكينة ! إن السل يكاد يقتلها !

فغمغم لوسيان :

- مسكينة !

وفي سره قال :

- إن الحب يوشك أن يقتلها !

- ٣ -

كان أوليد سوليفر وهو في مكته يرى من يدخل بيت لوسي أو
يخرج منه .. وقد رأى ماري وهي تصعد الدرج .. ثم رآها وهي
تعود بسرعة وقد عراها اضطراب شديد .

وقد عجب للأمر وراح يسائل نفسه عن سر هذه الزيارة .. وأية
علاقة بين ماري هرمان ومنافستها خطيبة لوسيان لاهرو ؟

وتقدم من البواب وقال يسأله :

- من تكون هذه السيدة التي دعت صاحبة المركبة إلى الصعود ؟

- إنها خياطة تدعى لوسي .. وهي فتاة شريفة .. فإذا كنت تطمع في هواها فخير لك أن تقطع الرجاء .. إن لها خطيباً يدعى السيد لوسيان لا برو .

والتقى عليه أوفيد بضعة أسئلة ثم انصرف وهو يقول في نفسه :

- لا بد أن أحمل إلى جاك نبأ زيارة ابنته الخطيبة لوسيان .

حين استقلت ماري مركبتها انطلقت مسرعة إلى دارها .. ودخلت على أبيها تسير في إعياء .

رفع رأسه إليها وإذا رآها شاحبة الوجه هب واقفاً وهو يقول :

- ابنتي ! .. ابنتي ! .. ما بك أيتها العزيزة ؟

تهالكت على أحد المقاعد وقالت بصوت ضعيف :

- لقد خدعتني ! .. لقد كذبت علي ! .. إن لوسيان لا يحبني ..

إنه يحب فتاة أخرى ! وستزوج هذه الفتاة ! .

وصاح الأب المسكين :

- وكيف عرفت هذا؟ من كشف لك هذا السر؟ إني ما كنت

عنك هذا الأمر إلا لبقيني من أنني سأقتل هذا الحب من قلب

لوسيان ! ولكن من أفضى إليك بهذا السر؟

- من أفضى به إلي ؟! الفتاة نفسها ! .. إنها سعيدة مزهورة بحبها !

- إذا فقد رأيتها؟ من تكون هذه الفتاة؟

- خياطة تدعى لوسي ! .. لقد رأيته واقفة إلى جانب

خطيبها ! .. وكدت أموت غماً ! .. ولا أدري كيف لم أمت ! .

فقال جاك جارود :

- إنه لا يحب هذه الفتاة يا ابنتي ! . ولن يتزوجها ! .

- ولكن لم كذبت علي يا أبتاه ؟! لم كنت عني الحقيقة ؟

وصاح الأب وقلبه يتمزق :

- ماري .. ابنتي العزيزة .. اعلمي أنني أحبك .. وأنني ما كذبت

عليك إلا لأني لم أكن أظن أن أرى دموعك وعذابك ! .

- إذا فقد كنت تعرف أنه يحب فتاة أخرى ؟!

- إنه هو نفسه الذي كاشفني بذلك .. وقد رجوته أن يتروى في

الأمر وأن يقارن بين الزواج بامرأة فقيرة وامرأة تملك الملايين .. وقد

كذبت عليك لأني موقن من الفوز .. سأفهر منافستك وأرغمها على

الخروج من حياة لوسيان بأية وسيلة .. فما كنت لأدعك حزينة

يائسة وأنا واقف مكتوف اليدين ! عاجلاً سترينه يا ابنتي جاثياً عند

قدميك يتوسل إليك أن تحبيه وأن تسعديه ! وستكونين إذ ذاك أسعد

النساء .

فهزت كتفها وغمغمت بلهجة يائسة :

- سأكون أسعد النساء ! . كانت السعادة عندي حليماً وتبدد ! .

فصاح جاك جارود وهو يتفجع :

- أقسم لك بذكرى أمك أنك ستزوجين لوسيان ! .

فقالت لوسي :

- أبي .. أقبل هذا تغذني من الموت ! .. إنه يحبها .. ويؤثرها

علي .. فتاة لحيطة نشأت في الملجأ .. لا أب لها ولا أم .. تشقيني

هذا الشقاء كله ؟!

فقال أبوها :

- اطمئني .. إنه لا يحبها .. ربما كانت صديقه .. وسيتخلى

عنها إذا ما تزوجك ! .

وامتفع وجه ماري وهفت بصوت مختق :

- لشد ما أبغض هذه الفتاة ..! لقد قضت على هنائي؟! ..
 فقال أبوها متوسلاً :
 - لقد أقسمت لك بذكرى أمك أنك ستصبحين زوجة لوسيان ..
 ومحال أن أحنت بهذا القسم ..!
 - وهذه الفتاة؟
 - سيهجرها .
 - وإن لم يهجرها؟
 - أبعدا عنه بوسيلة ما .. فهبّا اذهبي إلى غرفتك يا ابنتي
 ودعيني أتدبر الأمر .
 ما كادت ماري تغادر مكتب أبيها حتى جاء أوليد سوليفر يزوره .
 روى له أوليد ما كان من زيارة ابنته لخطيبة لوسيان وقال
 متسائلاً :
 - وقد جئت أسألك عن سر هذه الزيارة العجيبة .
 فقال جاك جارود مجيباً :
 - لقد أنبأتني ابنتي بكل شيء .. إن هذه الفتاة هي خياطتها ..!
 وروى له ما عرف من أمر الفتاة وكيف أنها لقيطة لا تعرف لها أباً
 أو أمّاً .
 وقال يسأله :
 - وعلام عزمت الآن ؟ .
 - لا أدري .. ولكنني سأراقب لوسي مراقبة دقيقة ثم أضع خطتي
 بعد ذلك .. ولكنني لا بد لتحقيق هذا الأمر من نفقات كثيرة .
 - لا تبال بالأمر .. أنفق كما تشاء . كل ما أبغي هو أن أزوج
 ابنتي بلوسيان ولو أنفقت على تحقيق هذه الغاية نصف ثروتي ..!

ودفع إليه أوراقاً نقدية قيمتها عشرون ألف فرنك وقال :
 - هذه لنفقاتك .. أما مكافأتك قلها حساب آخر .
 أمضت لوسي صحابة نهارها مع خطيبها لوسيان يتنزهان في
 إحدى الحدائق .
 وفي المساء رجعا إلى دارهما فقال لوسيان وقد رأى غرفة ليزا
 بيرين مطفأة الأنوار :
 - إن بائعة الخبز لم تعد بعد ..!
 - هذا لأنها تتولى تمريض صاحبة الخبز ..
 وفيما هما يتناولان العشاء قرع الباب ودخلت عليهما جان
 فورتيه .
 أنبأها لوسيان بسفره إلى بلغراد وقال :
 - ترى هل شُفيت صاحبة الخبز حتى أعهد إليك بملازمة لوسي
 في أثناء غيبيتي؟
 فقالت جان في أسف :
 - ما كان أحب إليّ أن أفعل هذا .. ولكن لا يسعني أن أتخلى
 عن صاحبة الخبز وهي في محتنتها .. على أنني سأحاول دائماً أن
 أزورها كلما تهيأت لي الفرصة .
 وشكرها لوسيان .. وفي صباح اليوم التالي كان في طريقه إلى
 بلغراد .

- ٤ -

كان أوليد سوليفر رجلاً بلا قلب .
 في سبيل الحصول على المال لم يكن يحجم عن شيء .. ولقد
 وعد جاك جارود بأن يقتل لوسي .. وأقسم أن يبر بوعده دون أن

تأخذه رحمة يشابها أو جمالها !

ولكن ما كان في وسعه أن يقتلها إلا إذا راقبها ودرس حركاتها وسكناتها وعرف متى تغادر دارها ومتى تعود إليها عند ذهابها إلى مشغل السيدة أوغستين .

وتنكر في زي الحمّالين ومضى إلى المشغل وطلب مقابلة لوسي . . فقبل له إنها تعمل في منزلها ولا تحضر إلى المشغل إلا لتقدم ما تنجز من ثياب . . فقال :

- وأين منزلها؟

- في شارع يوريون . . أترك تحمل رسالة إليها؟

- كلاً . . ولكن أحد النبلاء أوفدني إليها لأسرّها كلاماً .

وضحكت العاملة التي كان أوليد يتحدث إليها وقالت بتهكم :

- اذهب إذاً إليها في دارها ! والله لقد كنا نحسبها فتاة طاهرة .

فإذا بها على شاكلتنا مستهترّة لها علاقات خفية بالنبلاء ! وأرجوك أن تبلغها عني أنه لا يجمل بها بعد هذا أن تخادعنا وتتظاهر بالعفاف !

ولمّا انصرف أوليد أقبل على بوابة المشغل وراح يستفسر منها عن اسم العاملة التي كان يتحدث إليها .

ونظرت إليه البوابة بازدراء . . فنقدها قطعة ذهبية أطلقت لسانها فقالت :

- إنها تدعى أماندا . . ولست تستفسر عنها لحسابك الخاص

بطبيعة الحال . . فإنها باهظة النفقات .

- كلاً . . وإنما لحساب أحد النبلاء .

- إذا كان على استعداد لأن يبذل فسينال منها كل ما يريد !

- إنه واسع الثراء لا يبالي بالإففاق .

وفي مساء ذلك اليوم . . حين همت أماندا بمغادرة المشغل دعنها البوابة وأسرت إليها بفحوى الحديث الذي جرى بينها وبين الحمّال وقالت :

- فلك إذاً أن تتظري صديقاً جديداً .

فقالت أماندا ضاحكة :

- وهل أطريقتي عنده؟

- كل الإطراء !

- حسناً . . إذا تحقق ما أصبو إليه حشوت جيوبك بالمال .

وما كادت أماندا تبعد عن المشغل حتى شعرت بأن هناك من يتعقبها .

ولم يداخلها شك في أن مطاردها هو ذلك النبيل الذي حدثتها عنه البوابة بأنه أوفد حمّالاً يستفسر عنها في الصباح .

وتمهلت أماندا في سيرها حتى لحق بها الرجل . . ألفتة كهلاً في الخمسين من العمر . . ولكنه كان أنيق الثياب تدل سمته على الثراء .

وما كان هذا الرجل إلا أوليد متكرراً .

حيّاه برشاقة فردّت عليه تحيته . . ثم أردفت تقول :

- ولكنني لم أتشرف بمعرفتك من قبل يا سيدي ؟

فقال مجيباً في لباقة :

- هذا لأن المعجيين بك كثيرون فيستحيل أن تعرفهم جميعاً .

وسرّها منه هذا الجواب الطريف اللبق فابتسمت . . فقال :

- وهذه الابتسامة هي في ذاتها بطاقة أقدمها إليك ! . . والآن وقد

بثنا صديقين أسمحين لي بأن أدعوك إلى تناول الطعام معي ؟

وبعد ربع ساعة كانا في مطعم أنيق يتناولان العشاء . .

وحين فرغا من العشاء استقلّا مركبة وأمر أوليد السائق بأن يمضي بهما إلى دار أماندا .

وعند الباب قال وهو يودّعها :

- غداً نلتقي .

- أين؟

- عند الظاهر . . وفي المطعم الذي اعتدت أن تتناولي فيه طعامك .

- أتعرفه إذا؟

- كما أعرف كل شيء عنك .

وعند ظهر اليوم التالي التقيا في المطعم فقالت أماندا :

- ينبغي أن أعجل بتناول طعامي . . فباني ذاهبة إلى إحدى العاملات بثوب للرقص لكي تنجزه .

- وهل منزلها بعيد؟

- في شارع بوربون .

وعلم أنها ذاهبة إلى لوسي .

وفي الطريق إلى شارع بوربون راح يستدرجها في الحديث فعلم أن هذا الثوب لزوجة عمدة كارين دي كولومب إذ أنها مدعوة إلى الحفلة السنوية التي تقيمها زوجة مدير مقاطعة السين .

وقال أوليد :

- ولم لا تعهد السيدة أوغستين بهذا الثوب إلى عاملة أخرى؟

- لأن لوسي سريعة في إنجاز عملها . . تصور أنها ستفرغ من هذا الثوب بعد غد وتذهب إلى كارين دي كولومب لتجربه زوجة العمدة .

- ولكن هذه البلدة بعيدة !

- إنها نزهة جميلة بالسكة الحديد . . فإذا ما هبطت من القطار قطعت الغابة سيراً على الأقدام . . على أنني أبغض هذه النزهة لبلاد إذ تنعدم أقدام المارة في الغابة . . أما في النهار فهي من أمتع النزهات . . وهذه السيدة شديدة التألق وقد أبقنتني مرة أنا ولوسي حتى الساعة العاشرة مساء .

فضحك أوليد وقال :

- لا ريب أن الخوف استولى عليكما !

- لو كنت مكاننا يا صديقي لمت رعباً . . فالطريق مظلمة مقفرة .

وعندما وقفت المركبة بباب لوسي صعدت إليها أماندا على حين بقي أوليد في المركبة يترقب عودتها .

وبعد نصف ساعة رجعت أماندا إلى المشغل بعد أن اتفقت مع أوليد على اللقاء في المساء .

كان لوسيان وهو في طريقه إلى بلغراد لا يفكر مرة في خطيبته لوسي إلا تراوت لعينه صورة ماري هرمان . . معذبة . . مسلوطة . . تبصق دماً !

أيامها معدودة على ظهر الأرض . . وتنشد قبل أن تموت أن يسعدها الحب ولو يوماً واحداً .

وكان كلما ذكرها كلما أخذته الحزن وعصر فؤاده .

وقال في نفسه :

- إن هذه الفتاة على حافة القبر . . فلم لا أجاملها في حياتها القصيرة بأن أنظاها بالعطف عليها بل بحبها حتى نقضي ما بقي لها من أيام ؟! عندما أرجع إلى باريس سأحدث إلى لوسي في الأمر .

بيدك كما ترى . . فهل تدعها تموت ؟!

في صباح اليوم التالي سافر أوفيد سوليفر إلى كارين دي كولومب وعابن الطريق من محطة السكة الحديد إلى بيت العمدة . . فألفاها كما ذكرت له أماندا مقفرة تقطع غابة لا يمر فيها من الناس إلا القليلون في النهار فما بالك في الليل . . فقال في نفسه :

- عندما نهم لوسي بالعودة من بيت العمدة بعد أن تجرب الثوب لزوجته أكون في انتظارها في هذه الغابة المقفرة المظلمة . . فأعاجلها بطعنة تكون القاضية .

ولمّا رجع من كارين دي كولومب انطلق من قوره إلى مقابلة جاك جارود وقال له :

- لقد آن الأوان !

وأدرك جاك ما يرمي إليه بهذه الكلمات فقال :

- أحقاً حانت ساعة الضربة القاضية ؟

- وستكون قاضية . . لا ريب في ذلك !

وروى له ما كان من أبحاثه وكيف تعرف بإحدى زميلات لوسي بعد أن تقدّم إليها باسم البارون أرنولد دي ريس فاستقى منها المعلومات التي ستهون عليه مهمته .

ثم قال مسترسلاً :

- وعليك في الغد أن تبقى في مصنعك حتى منتصف الليل . . وسأحضر لزيارتك نهائياً فتزعم أن بيني وبينك عملاً هاماً خطيراً . . ونحبس أنفسنا في مكتبك حتى منتصف الليل . . ولكنني في المساء أتلسل سراً فأضرب ضربتي القاضية ثم أرتد إليك سراً دون أن يشعر أحد . . فإن ذلك سهل ميسور !

وعندما بعث إلى يول هرمان برسالته الأولى ذيلها بسطرين تحدث فيهما عن ابنته ماري . . فسأله أن يبلغها أطيب تمنياته . . وأنها على ما بينهما من بعد المسافة ماثلة في ذهنه وأن من المحال أن ينسى يوماً واحداً أنه مدين لها بما أصاب في حياته من منصب ذي شأن .

وما كاد جاك يقرأ هذه الرسالة حتى اغتبط بها اغتباطاً شديداً ورأى في كلمات لوسيان بشيراً بالحب المنتظر . . فطار بها إلى ابنته وأطلعها عليها . . وهو يقول :

- أرايت ؟! ها هو ذا قد بدأ يحبك .

فقال ماري في أسي :

- أنتظن ذلك يا أبتاه؟ إنه في هذه الرسالة لا يتحدث عني إلا من ناحية اعترافه بفضلي عليه ! . ولكنني أريد حديثاً غير هذا ! . أريد حديث الحب لا حديث الاعتراف بالجميل ! .

- ولكن ألا ترين يا ابنتي من خلال سطوره أنه بدأ يفكر فيك؟ إن هذا التفكير يوشك أن يطفئ على تفكيره في لوسي ! .

فقالت ماري بمرارة :

- لا تخدع نفسك يا أبت !

ولم يزد أبوها على ذلك شيئاً وإنما قال في نفسه :

- ما يدريني أنها على صواب فيما تقول . . وأنه لم يدفعه إلى كتابة هذه الكلمات إلا شعوره بفضلها عليه لا شعوره بالحب لها ! . ولكن لا بدّ من أن أجمع بينهما ! . لا بدّ من إزالة لوسي من الطريق ! .

وجلس إلى مكتبه فبعث برسالة إلى لوسيان اختتمها بقوله :

«إن ماري مريضة جداً . . والحب هو علاجها الوحيد ! . فالدواء

- ميسور جداً .

- حسناً .. هذا تدبير أريد به إقصاء الشبهة عن نفسي .. حتى إذا وقع المستحيل وانتهجت إليّ الشبهات أمكنتي أن أثبت أنني كنت معك من بعد الظهر إلى منتصف الليل نعمل معاً .. ومحال أن يتطرق الشك إلى شهادة رجل الأعمال العظيم السيد بول هرمان !

فضحك جاك وقال :

- إذا غداً تموت لوسي؟

- وبعد ذلك لا يكون أمام لوسيان إلا أن يتحوك إلى ابنتك .

وفي الساعة الخامسة من مساء اليوم التالي التقى أوليد بصاحبه أماندا عند مغادرتها المشغل إذ كان في انتظارها على ناصية الشارع .
قالت له :

- إنني ذاهبة يا بارون أرنولد إلى مقابلة لوسي في شارع بوربون .
فقال لها :

- سأرافقك إذا .

ودعاها إلى المركبة التي كانت في الانتظار .

والآن خطوة إلى الوراء .

حين كانت لوسي في طريقها إلى محطة كارين دي كولومب راجعة من منزل العمدة التقت بجان فورتية .

دهشت المرأتان من هذا اللقاء غير المتوقع .. وسألتهما جان عما أتى بها إلى هذه الضواحي البعيدة .. فكاشفتها بأمرها وقالت :

- وأنت؟ ما الذي جاء بك إلى كارين دي كولومب؟

- جئت أستدعي والدتي صاحبة الخبز .

- ماذا أصابها؟ هل اشتدت عليها وطأة الداء؟

- نعم .. لقد شعرت بأنها تعاني سكرات الموت فأرادت أن ترى أمها .. ومنذ عام لم تلتق المرأتان إذ شجر خلاف بين الأم وزوج ابنتها فأقسم أن لا تزور حماته بيته .. ولكنني سأرجوها الآن أن تتغاضى عن هذا الخصام وأن تحضر لتودع ابنتها الوداع الأخير .
وقالت لوسي :

- كنت أحب أن أرافقك يا سيدة بيرين .. ولكنني مضطرة إلى أن أمضي إلى داري من فوري فأصلح هذا الثوب ثم أعود به إلى صاحبه مرة أخرى في الساعة التاسعة .

وتصافحت المرأتان واتخذت كل منهما طريقها .

حين مضت جان فورتية إلى منزل والدتي صاحبة الخبز لم نجد أن مهمتها سهلة ميسورة كما توقعت .

أبت الأم أن تمضي إلى زيارة ابنتها المريضة الطريحة على فراش الموت وقالت بغضب :

- يهيئتي زوجها ويطرديني من داره .. ثم أعود إلى زيارته دون أن يعتذرا ! أهون عندي أن تموت ابنتي دون أن أراها من أن أذهب إليها قبل أن يبعث إليّ زوجها برسالة يعتذر فيها .

وألحّت عليها جان .. وحاولت .. وتوسّلت بكل الوسائل .. ولكنها كانت محاولات غير مجدية .

ومضت إلى المختصرة تقص عليها النبأ وتكاشفها بخيبة مسعاها .

بكت المرأة المسكينة وغمغمت بصوت يخالطه عذاب الموت :

- ربّاه ! أقضي عليّ بأن أسوت دون أن أتزوّد من أمي بالنظرة الأخيرة؟

وفي الساعة السادسة من مساء هذا اليوم نفسه مضى أوليد

سوليفر إلى مصنع جاك جارود .. وجلسا يتباحثان في مكتبه . فدعا جاك الخادم وقال له :

- إن لديّ ما يشغلني الليلة .. وسأبقى حتى منتصف الليل أتباحث مع هذا السيد المهندس .. فإذا حان موعد انصرافك المعتاد فلا تتظرني .

وحين أوصد باب المكتب عليه وعلى أوليد أخرج هذا من طيات ثيابه مدية كبيرة وقال هو يتسم :

- ستغيب هذه المدية في صدرها وقد اشتريتها من دكان تقع تحت بيت لوسي وأنا في انتظار أماندا حين صعدت إليها .
فارتعد جاك وقال :

- إنها مدية رهيبة !

- ولكنّ حياة ابتك معلقة بها إنها مدية الحياة والموت في آن واحد !

- وهل تذهب لوسي الليلة إلى بيت العمدة ؟

- نعم .. في الساعة التاسعة .. فكن مطمئناً .

حين رجع زوج صاحبة الخبز من عمله في المساء وعلم بما كان بين جان فورتيه وحماته تولاها الغضب وقال :

- ويحها ! ابتها على سرير الموت وتأبى أن تحضر لوداعها .

فراحت جان تتوسل إليه أن يبعث إلى حماته بكتاب اعتذار وقالت :

- إنك تفعل هذا من أجل زوجتك التي تحبها .. لا من أجل حماتك .. أتريد أن تجعل زوجتك في ساعاتها الأخيرة أشقى النساء ؟ !

وما تردّد الرجل لحظة .. تناول القلم وكتب رسالة اعتذار إلى حماته دعاها فيها إلى زيارة ابنتها .

وطارت جان فورتيه بالكتاب إلى كارين دي كولومب فبلغتها في الساعة العاشرة مساء .

رأت الحماة رسالة الاعتذار فطابت نفسها وقالت :

- انتظري حتى أرتدي ثيابي فأرافك .

وفي غضون ذلك كانت لوسي في كارين دي كولومب أيضاً تخرب ثوب زوجة العمدة .. فلما أتممت مهمتها انصرفت عائدة إلى المحطة تشق طريقها في هذا الطريق المظلم .

وهناك .. في الغابة كان أوليد سوليفر ينتظرها ومدبته مشرعة في يده .

وكانت طعنة أطلقت لوسي على أثرها صرخة داوية ..

ولكن أوليد لم يرحم هذه المسكينة المضرجة بدمها بل رفع المدية وأهوى بها على صدرها للمرة الثانية .

وأصاب نصل المدية جسماً معدنيّاً فانكسر .. ولكنه لم يحفل بذلك .. كان موقناً أن الطعنة الأولى قضت عليها .

ومدّ يده يتحسّس هذا الجسم المعدني الذي انكسر عليه النصل فألفاه ساعة وسلسلتها فقال في نفسه :

- فلاسرقها حتى يقع في الأذهان أن السرقة هي الدافع إلى الجريمة .

وما كاد يدس الساعة في جيبه حتى سمع وقع أقدام فانطلق يعدو مسرعاً إلى الغابة وتوارى في ظلماتها .

وكان وقع الأقدام التي تقترب لامرأتين .. لقد سمعتا الصرخة

الداوية فأسرعنا إلى مصدر الصوت لتبين ما حدث .

وصاحت إحدى المرأتين :

- انظري ها هوذا رجل يركض هارباً ! .

وقالت الأخرى :

- ترى ما الذي فعل ! .

وجالتا يبصرهما هنا وهناك قرأتا لوسي عمدة على الأرض والدماء تنزف من جرحها بغزارة .

انحنى المرأتان فوق المصابة . . ثم ما لبثت إحداهما أن صاحت
بجزع :

- رياه ! إنها لوسي ! .

فما كانت هاتان المرأتان إلا جان فورتية ووالدة صاحبة الخبز وهما
في طريقهما إلى المرأة المحتضرة .

مالت جان فورتية فوق لوسي وراحت تقول :

- رياه . . لقد قتلها ذلك الشقي ! ولكن ها هو ذا نبضها لا يزال
يدق ! أسرعى إلى مركز الشرطة ليبحث إليّ بطبيب . . وسأبقى
بجوارها .

- إنك تعرفينها إذاً ؟

- نعم إنها جارة لي .

بعد نصف ساعة كان رجال الشرطة قد حضروا ونقلوا المصابة
إلى مركز الشرطة وتولى المفتش التحقيق .

وإذ فرغ الطبيب الذي حضر من فحصها قال :

- إن الجرح عميق ويبلغ الخطورة . . ولكنني أرجو أن لا يكون
قاتلاً . . فإن نصل المديّة لم يبلغ الرئة لحسن الحظ .

فقال مفتش الشرطة :

- وإلى أين تنقل المصابة فليس في هذه القرية مستشفى ؟

فقال الطبيب :

- يمكن أن أفرد لها غرفة في داري وأنولى العناية بها على أن

تلازمها هذه المرأة (وأشار إلى جان) فإنها صديقة لها فيما أرى .

فقالت جان :

- سألازمها ليل نهار يا سيدي الطبيب . . ولكنني أتوسل إليك أن

تنقذها .

- إنني أرجو أن يكون لها من شبايها ما يرد عنها غائلة الموت .

أما المفتش فوضع تقريراً عن الحادث أبدى فيه رأيه بأن السرقة هي
الدافع إلى الجريمة .

وبينما كانت هذه الحوادث تجري في ضاحية كارين دي كولومب
كان سوليغر قد بلغ المصنع وتسلل إليه من باب الخلفي دون أن يراه
أحد . . ودخل المكتب حيث كان جاك في انتظاره متلهفاً .

قال أوليد باقتضاب :

- قضي الأمر ! .

ورفع جاك عينيه إلى السماء شاكراً .

وأسرع أوليد فخلع ثيابه القروية التي كان متتكرراً فيها . . وارتدى

ثيابه العادية التي كان قد أودعها لدى جاك . ثم قال :

- والآن نغادر المكتب معاً وكأننا قضينا السهرة كلها في البحث
والمشاورة .

وبعد لحظات غادر المصنع وتولى البواب إغلاق الباب خلفهما

ودعا إحدى المركبات لهما ! .

في صباح اليوم التالي تولى رجال الشرطة تفتيش الغابة على مقربة من مكان الحادث .. ولكنهم لم يهتدوا إلى شيء ذي بال .
وعند الظهر أفاقت لوسي من إغمائها .. وإذ رأت جان فورتيه إلى جوارها ابتسمت وحركت عينيها شاكرة .

واغتنم مفتش الشرطة هذه الفرصة فطرح عليها طائفة من الأسئلة لم تسفر عن شيء جديد .. نعم .. إنه كان على صواب حين اعتقد أن السرقة هي الدافع .. لقد سرق منها كيس نقود به ثلاثون فرنكاً وساعة ذهبية وسلسلتها .

كلاً .. إنها لم تر وجه القاتل إذ فاجأها في الظلام .. ولا ترناب في أحد وليس لها أعداء .

رقم الساعة؟ كلاً .. إنها لا تذكر هذا الرقم .. وخطيبها لوسيان لافرو هو الذي أهداها هذه الساعة .

وجاء الطبيب بفحصها مرة أخرى فقال :

- جرحك ليس خطراً يا ابنتي .. وسأضمه لك الليلة مرة أخرى .. وبعد ذلك يمكنك أن تعودى إلى بيتك إذا شئت .

وغمغمت لوسي تقول :

- ليزا بيرين .. إنك متيقين معي .. أليس كذلك؟

فهتفت جان فورتيه :

- وهل يطاوعني قلبي أيتها العزيزة على أن أفارقك؟! ولكني سأغيب ساعة واحدة أرى فيها صاحبة الخبز لأطمئن عليها ثم أعود إليك .

وانطلقت جان إلى صاحبة الخبز فألقت زوجها يكمي بكاء مرأ فصرقت أن الكارثة قد وقعت .. وأن المنية أنشبت أظفارها في

المسكينة .

في غضون ذلك كانت السيدة أوغستين الحياطة فريسة القلق .. لقد ذهبت لوسي بشوب الرقص إلى زوجة العمدة ولكنها لم تعد إليها لتنبئها بما تم هناك .

وعهدت إلى العاملة أماندا بأن تنحري الأمر .. فلما غادرت هذه الأخيرة المشغل وجدت أوفيد أي البارون أرنولد دي ريس كما كانت تظن في انتظارها وصحبها إلى دار لوسي .

أنبأتهما البوابة أن لوسي لم تعد منذ خرجت في الليلة السابقة فرجعت أماندا بالنيل إلى ربستها .. واطمأن أوفيد إلى أن مديته قضت على الفتاة بلا ريب وإلا فلو أنها كانت على قيد الحياة لحضرت الشرطة إلى دارها .. أما وهو يجهل شخصيتها فلا سبيل له إلى معرفة مسكنها .

- ٥ -

كان الطبيب قد قرر نقل لوسي إلى دارها في المساء .. ولكنه حين عادها للمرة الثانية وجدها قد أصيبت بالحمى على غير انتظار .. فلم ير بدأ من إيقائها حتى تزول الحمى عنها .

وكانت جان فورتيه قد رجعت من باريس فأقامت إلى جانب المصابة تسهر عليها .

وقالت لوسي بصوت خافت :

- إنني أترقب رسالة من لوسيان فأرجو أن تحضري إلي الرسائل التي وردت باسمي إلى داري .. واتصلي بالسيدة أوغستين وأنبئها بما حدث .

فقال المفتش :

- إنني أشير بضرورة الكتمان . . فلا تقولي لها إنها أصيبت
بطعنة . . اذكرى لها أية حادثة تشائين .

ومضت جان إلى باريس وأنبأت بوابة البيت أن لوسي عثرت في
الطريق فأصيبت بالتواء القدم وأنها في منزل صديقة لها وستعود بعد
بضعة أيام .

وساقت السبب نفسه إلى السيدة أوغستين .
وفي صباح اليوم التالي رجعت إلى كارين دي كولومب تحمل
إلى لوسي رسالتين وجدتهما في دارها .

كانت الرسالتان من خطيبها لوسيان . . وقد أفلقه أنها لم تجب
على رسالته الأولى فألحقها بأخرى .
وقالت لوسي :

- لا بد أن أكتب إليه بنفسي . . وإلا أزعجه أن يرى الرسالة بغير
خطي .

وتحاملت على نفسها وخطت إليه رسالة موجزة وهي مستلقية
على ظهرها . . وقد كاشفته بما أصابها وقالت :

والدليل على أن جرحي بسيط أنني أكتب إليك هذه الرسالة
بنفسي .

وفي الوقت الذي كانت فيه لوسي مبتهجة أشد الابتهاج برسالتى
خطيبها كانت أماندا ثائرة هائجة حين فرغت من تلاوة رسالة جاءتها
من أوليف .

في هذه الرسالة كاشفها البارون أرنولد دي ريس بأن مهمة عاجلة
دعته إلى السفر . . وأن رحلته قد تطول .

وأودع الرسالة ورقة نقدية بألف فرنك .

وعرفت أماندا . . من تجاربها السابقة . أن الرحلة المزعومة ما هي
إلا حجة تُلمس تسويفاً للمقاطعة .

وساءها الأمر كثيراً فقد كانت تمنّي نفسها بأن تنال من البارون
مالاً غير قليل لما رأيته من بذخه وإسرافه .

أما أوليف فقد اتصرف عنها إذ لم تعد له حاجة إليها . . اتصل بها
ليجمع معلومات عن لوسي . . أما وقد قتلها فما حاجته بعد ذلك
إلى الاتصال بهذه الفتاة ؟ !

حين تلقى لوسيان رسالة لوسي كاد يجن إشفافاً عليها . . وخطر
له أن يقطع رحلته فوراً وأن يعود إلى باريس .

ولكن الحكمة لم تلبث أن تغلبت عليه . . فإن الأمر ليس خاصاً
به وحده ومن الحماقة أن يحبط هذه المفاوضات التجارية وأن يخون
الأمانة التي عهد بها إليه جاك لأن خطيبته مريضة !

أما ماري هرمان فلم يكن هناك شك في أنها كانت تتعذب لفراق
لوسيان . . فقد ازدادت شحوباً وازدادت العلة تمكناً من بدنها .

على أن أباهما كان يمنّي النفس بقرب زواجها من لوسيان ما دامت
العقبة القائمة في الطريق قد أزيلت .

فما دامت لوسي قد ماتت فلن يكون أمام لوسيان إلا أن يتزوج
ماري .

وفي يوم كان جاك جالساً يتحدث إلى ابنته حين دخل الخادم
ينبئ سيده بأن الخياطة لوسي أنت تحمل الثياب الجديدة .

وثب جاك واقفاً وقد امتقع وجهه وصاح :

- لوسي ! أهي لوسي التي حضرت ؟

ولم تدرك ماري السر الحقيقي لانفعال أبيها . . وظنته احتاج غضباً

إذ حضرت لوسي إلى دارها بعد أن علمت ابنته أنها صديقة لوسيان .. وقالت :

- هون عليك يا أبتاه .. فإني لن أستقبلها !
ومالك جاك روعه .. وغالب اضطرابه وقال في نفسه :
- كيف هذا ؟ هل خدعني أوليد وابتز أموالي ؟ ألم يقل لي إنه قتل الفتاة ؟

وأقبل على ابنته يقول :
- إني أبغض هذه الفتاة يا ابنتي .. وقد أهاج الغضب انفعالي رغماً عني .. ولكن لا داعي لأن توصدي بابك في وجهها فإنها لم تحن ذنباً وليس من اللائق أن ننحدر إلى مستواها .
- أصبت يا أبي .

وأمرت الخادم بإدخالها .
ودخلت لوسي تسير بخطوات بطيئة .. بادية الإعياء .. شاحبة الوجه .
وقالت :

- معذرة يا سيدتي إذا كنت قد تخلفت عنك أياماً .. فقد اعتدى عليّ أحد اللصوص وطعنني بمديته .. فلما شفيت بادرت إليك بالثياب .

فقالت ماري :
- ولم طعنك بالمديّة ؟
- ابتغاء السرقة .

وروت لها ما وقع .. وجاك جارود بصغي إليها بانتباه شديد :
وقال جاك يسألها :

- إذا فهو لص ؟ فهل عرفته ؟

- كلاً يا سيدي .

وفجأة حملق جاك في الفتاة ! عجباً ! إنه يذكر هذا الوجه .. وهذه الملامح .. بل هذا الصوت أيضاً !

إنها شبيهة بامرأة كان يعرفها في شبابه .
وتحسّمت الصورة أمام عينيه .
وقال في نفسه :

- آه .. إنها شبيهة بجان فورتيه !
وذكر في هذه اللحظة ما عرف من أمر هذه الفتاة وكيف أنها لقيطة نشأت في أحد الملاهي فقال في نفسه :

- ربّاه ! أتكون هذه الفتاة هي ابنة جان فورتيه ؟ !
وإذ فرغت لوسي من قصتها قالت لها ماري بخشونة :

- حسناً .. اتركي الثياب فإني لن أجربها الآن .. وإذا أردت شيئاً أخطرت السيدة أوغستين بأن تبعث إليّ بأماندا أو سواها !
وانصرفت لوسي وهي تسائل نفسها عن السر في غضب ماري هرمان عليها وخشونتها معها .. وهي لم تُسئ إليها مطلقاً ..

في مساء اليوم نفسه أرسل جاك جارود يدعّر أوليد سوليفر إلى مقابله .. فلما دخل عليه ابتدره بقوله :

- اليوم رأيت لوسي !
فهب أوليد واقفاً وصاح :
- ماذا تقول ؟ لوسي !
- نعم ! إنها على قيد الحياة .. لم تكن الطعنة قاتلة !
وروى له ما حدث .

وهتف أوليد :

- يا لسوء الحظ ! على أن من حسن حظي أنها لم تتبين وجهي
وأن الشرطة تعتقد أن السرقة هي دافع الجريمة .

وبعد صمت قصير قال أوليد :

- إذا ينبغي أن أقوم بالمحاولة مرة أخرى .

- لو أننا فعلنا لاستهدفنا للأخطار وأثرنا الشبهات . . فما تكون
فتاة واحدة هدفاً للصوم مرتين في خلال عشرة أيام . .

- إذا هل رجعت عن عزمك ؟

- وكيف أراجع وحيات ابنتي معلقة على زواجها بلوسيان ؟

- وعلام عزمت إذا ؟

- لوسي لقبضة . . وأودعت الملجأ في عام ١٨٦١ أو ١٨٦٢
وقيدت في السجل برقم ٩ وأريد أن أعرف جميع البيانات الخاصة
بها والمدونة في السجل . . حتى ولو دعا الأمر إلى سرقة هذا السجل
نفسه .

- وأية فائدة تجنيها من هذا العمل ؟

- اليوم قابلت لوسي للمرة الأولى . . فهل تعلم أنها تشبه جان
فورتية شبيهاً شديداً ؟

فقال أوليد باستغراب :

- أتعني أن . . .

- نعم . . من المحتمل جداً أنها ابنة جان فورتية ! الشبه واحد
والسن واحدة . . وقد أودعت الملجأ كابنة جان . . فإذا ثبت ذلك
فمحال أن يتزوج لوسيان لابرو ابنة المرأة التي قتلت أباه .
- ولكنه يعتقد كما أثباتني أن جان فورتية بريئة !

- ولكن هذا الاعتقاد لا يغير من حكم القضاء ولا من حكم

الناس . . وإذا تزوج ابنة جان قضى على سمعته قضاء مبرماً ! فإذا
كنت أخفقت في قتل لوسي فسوف أقتلها بطريقة أخرى ! .

وفرك كفيه ابتهاجاً وقال مستطرداً :

- يجب أن تتزوج ابنتي من لوسيان ! . هذا هو هدفي في هذه
الحياة وسأبلغه بكل وسيلة ممكنة . . مشروعة كانت أو غير
مشروعة ! . .

بعد أن انصرفت لوسي أحست ماري هرمان بانقباض شديد . .
فأمرت بإعداد مركبتها وذهبت إلى زيارة صديقها المصور إيتين كاستل
عليها نهد في مشاهدة صورهِ ولوحاته ما يسري عنها هذا الحزن الذي
شاع في نفسها .

وأزاح إيتين الستار عن لوحة كبيرة بالحجم الطبيعي وقال :

- أتروك هذه اللوحة يا ترى ؟

- إنها تحفة رائعة . . ولكن هذا عجيب ! يخيل إلي أنني رأيت من
قبل هذه المرأة التي يحيط بها رجال الشرطة . . أو على الأقل رأيت
فتاة تشبهها شبيهاً عجيباً .

فقال المصور متسائلاً :

- ومن تكون هذه الفتاة ؟

- عاملة عند الخياطة أوغستين تدعى لوسي . . أتعرفها ؟

- كلاً يا سيدتي . . وأين تقيم هذه الفتاة ؟

- في رقم ٩ بشارع بوريون .

- إن هذا يحدث كثيراً . . .

ثم انتقل الحديث إلى ناحية أخرى . . إذ سأله أن يرسم لها

صورة بالحجم الطبيعي حتى تهديها إلى أبيها في يوم مولده . .
فوعدها المصور بأن ينجزها قبل انقضاء الشهرين الباقيين .
وتطرق بينهما الحديث إلى المصانع والاختراعات فقال إيتين :
- لقد كان جدك مورتيمر من كبار المخترعين فيما عرفت .
- هذا صحيح . . وكذلك أبي . . ومن أعظم اختراعاتهما آلة
الخياطة الصامتة وآلة الصقل .

فقال إيتين باستغراب :

- آلة الصقل ؟

- نعم . . وهي تصقل حتى الأجسام المقعرة وغير المستوية .
- وهل أقام أبوك في أميركا كثيراً ؟

- نحو اثنين وعشرين عاماً . . لقد استقرّ فيها سنة ١٨٦١ .

ولمّا انصرفت ماري وقف إيتين يتأمل اللوحة ويقول في نفسه :

- عجباً . . إذا فلوسي تشبه جان فورتييه شَبهاً عجبياً ! . وقد
نشأت لوسي في الملجأ . . فهل تكون يا نرى ابنة جان ؟

- ٦ -

لم يكد يمضي يوم واحد على الحديث الذي دار بين أوليد وجاك
جارود حتى كان أوليد قد هبط قرية جواني يتحرى عن لوسي
ويعود إلى صاحبه بنيناً عن ماضيها .

أمضى أوليد في الفندق ساعة تحدث فيها إلى صاحبه وسأله أن
يرشده إلى امرأة عجوز من أهل القرية . . إذ أنه في حاجة إلى
الاستفسار عن حادث قديم العهد .

وذهب أوليد إلى زيارة هذه المرأة وقال لها :

- 214 -

- إنك تعرفين طبعاً أسماء جميع المرضعات اللاتي كنّ في هذه
القرية منذ عشرين سنة . . ولقد كان عند إحدى هذه المرضعات
طفلة أودعتها أم تدعى السيدة فورتييه . . فهل تعرفين اسم هذه
المرضع ؟

فقالت المرأة :

- هذا سؤال صعب .

- سأعينك على التذكر . . إنّ الأم اتّهمت منذ عشرين سنة
بالسرقة والقتل وإحراق مصنع السيد لابرو ! .

فهتفت العجوز :

- آه . . لقد تذكرت هذا الحادث . . إنه كان حديث أهل القرية . .

نعم . . لقد كان لهذه الشقية طفلة عند المرضعة السيدة فرمي .

- وأين السيدة فرمي فإني أحب أن أتحدث إليها ؟

- لقد ماتت . .

- وابنة جان فورتييه ! ما كان مصيرها ؟

- أغلب الظن أنها أودعت ملجأ اللقطاء كما جرت بذلك العادة

إذا ماتت الأم أو انقطع أجر المرضع . . فاذهب إلى دار العمدية
فلديهم سجل واف يتضمن جميع البيانات التي تسأل عنها .

مضى أوليد سوليفر إلى دار العمدية وهو يقول في نفسه :

- والآن ما العمل ؟! لو أنني طلبت هذه البيانات لأثرت الشبهات

ولظن القوم أنني موفد من قبل جان فورتييه الهاربة . . فأضع نفسي
بذلك في مأزق حرج .

ولكن لم يكن في وسعه إلا أن يستفسر .

دخل دار العمدية . . ولكنه لم يحض مباشرة إلى قسم السجلات

- 215 -

وإنما دخل مكتباً رأى فيه موظفاً شاباً جالساً على انفراد .

حيّاه وقال :

- أسمح يا سيدي بأن أوجّه إليك سؤالاً؟

- بكل ارتياح .

- أتعلم اسم العمدة الذي كان يتولى الأمر في هذه القرية في عام

١٨٦١؟

- بكل تأكيد يا سيدي . . إنه يدعى دشمان . . وهو عمي .

- أهو في جوانبي؟

- كلا . . إنه مقيم في ديجون .

- إن لي سؤالاً آخر عن حادث وقع في سنة ١٨٦١ .

- قد يكون في وسعي أن أدلي إليك بما تطلب من بيانات .

وفي هذه اللحظة فتح الباب ودخل رجل قروي ما إن رآه الفتى

حتى شحب وجهه وبدأ عليه الفزع وقال بارتباك :

- إني يا سيدي . .

فقاطعه الزائر بوحشية :

- دعك من الألقاب وأعد إليّ مالي . . !

- أرجوك أن تمهلني قليلاً .

- أمهلك . . ؟ إنك منذ ستة شهور لا تسألني إلا أن أمهلك . . غداً

آخر موعد بيننا . . فإذا لم تنقذني الألف فرنك قدّمت إلى الشرطة

السند الذي زوّرت عليه توقيع عمك . . وهذا هو إنذارني الأخير .

اغتنم أوليّد هذه الفرصة وقال :

- يؤسفني أنني حضرت هذا الحديث المزعج . . ولكن ما الذي

حدث؟

فقال الفتى مجيباً :

- إن هذا السيد شريك لعمي في تجارة الخمر . . وقد حملني

الطيش على أن أزور توقيع عمي على سنتين دفعتهما إليه وأخذت

منه الألف فرنك . . وأنا أرجو أن أتمكن من إيفائه حقه في موعد

السداد قبل أن يقدم السنتين إلى عمي ويطلبه بقيمتيهما . . وهو الآن

يتوعدني بأن يكشف أمري ويلقي بي في السجن .

وقال تاجر الخمر :

- هأنذا للمرة الأخيرة أمهلك يوماً واحداً .

وانصرف على الفور . . فقال أوليّد :

- وما الذي دفعك إلى هذه الفعلة الشائنة؟

- غرامي بامرأة لا تستحق إلا أن نجلد بالسياط . . حين نصبت

أموالي غضبت عليّ وتبذتني . . والآن ليس لي إلا أن أختار بين

السجن أو الانتحار .

فسكت أوليّد هنيهة ثم قال :

- هل حان موعد انصرافك؟

- نعم .

- إذاً هيا نذهب إلى تاجر الخمر . . !

- وما الفائدة والألف فرنك ليست معي . . إني لا أحب أن

أستهدف مرة أخرى لإهاناته .

فابتسم أوليّد وقال :

- إن الألف فرنك ليست معك . . ولكنها معي ! . .

- ماذا تقول يا سيدي؟

- سأوفي عتك الدين . .

- ولكن ...

- لا تعترض .. إنني لقاء ذلك سأسألك أن تسدي إليّ خدمة صغيرة .

وبعد نصف ساعة أخرج أوليفد من محفظته أوراقاً نقدية بألف فرنك ووضع مكانها السنتين المزورين .

قال أوليفد سوليفر يخاطب الفتى وهما جالسان يتناولان الطعام في أحد المطاعم :

- إذا فقد تركتك هذه المرأة بعد أن تورطت في الديون !

- نعم يا سيدي .. فلا زلت مطالباً بألفي فرنك .

- سأوفيهما عنك أيضاً .

- لا داعٍ لذلك يا سيدي .. فقد وعدني الدانتون بإمهالي ! ..

- وإذا حلّ موعد السداد وعجزت .. ما يكون من أمرك .. ؟

كلاً .. إنني سأفي عنك دينك كله على أن تؤدي لي هذه الخدمة .

- إنني رهن إشارتك يا سيدي .

- منذ اثنين وعشرين عاماً كانت لي عشيقة رزقت مني طفلة ..

فلما علمت أن زوجها يوشك أن يعود من رحلته أودعت هذه

الطفلة عند إحدى الممرضعات في جواني .. وقد غادرت فرنسا إذ

ذاك في رحلة طويلة وعندما رجعت من سفري لم أجد أثراً لعشيقتي

ولست أعلم لها مقراً .. أما الموضع فتدعى فرمي .. ورجائي إليك

أن تساعدني في البحث عن ابنتي .

فقال الفتى :

- هذه البيانات مدونة يا سيدي في سجل العمدية .

- أيمن أن تأتيني بصورة منها؟

- إنك نسألني أمراً خطيراً يا سيدي .. ولكنني لن أتردد في إجابتك إلى ما تبغي فقد أسديتني جميلاً لا يجحد .

فقال أوليفد باسم :

- ولكن إياك أن تعود ثانية إلى حماقتك فترغمي عند قدمي هذه

المرأة .. أكانت جميلة؟

- إنني لم أر يا سيدي من هي أجمل من أماندا أو أرشق منها !

وهتف أوليفد :

- أماندا ! هذا عجيب !

- أتعرفها يا سيدي؟

- صفها لي أولاً !

فلما وصفها الفتى قال أوليفد :

- هي بعينها .. ولكنها ليست في جواني الآن .

- لقد بارحتها إلى باريس منذ شهرين بعد أن ارتكبت بعض

الجرائم !

- أية جرائم .

وعرف أوليفد من حديث الفتى أن أماندا كانت عاملة في

أحد المحلات في هذه البلدة فارتكبت جريمة سرقة وهمت صاحبة

الحل بأن تشكوها لولا أن توسلت إليها أماندا باكية فصفحت عنها

بعد أن استكتبتها اعترافاً بالسرقة وأمهلتها عاماً لإيفاء ثمن

ما سرقته .. وقد زوّرت السنتين وقدمت إليها الألف فرنك لتدفعها

إلى صاحبة الحانوت ولكنها بددتها .. ثم هجرتني ورحلت إلى

باريس .

- وما هو عنوان هذا الحانوت؟

- رقم ٧٤ بالشارع الكبير .

بعد ساعة كان أوليد في الحانوت رقم ٧٤ بالشارع الكبير .

قال لصاحبه :

- كانت عندك عاملة تدعى أماندا .. وقد سرقت منك بعض البضائع وقد أوفدتي إليك لاستعيد منك الإقرار وأنفدك ثمن ما سرقت .

وحدث هنا ما حدث في السنتين اللذين زورهما دشمان .. أخرج أوليد من محفظته ورقة نقدية بألف فرنك ومكانها وضع الإقرار الذي تعترف فيه أماندا بأنها سارقة .

وفي مساء اليوم التالي التقى أوليد بالفتى دشمان في الموعد المضروب فدفع إليه ورقة وهو يقول :

- إني لم أنسخ لك صورة من السجل وإنما انتزعت الورقة نفسها وجئت بها .. فقد كان لدي عمل كثير لم يدع لي وقتاً للنسخ .

لقى أوليد نظرة عجلى على ورقة السجل فوجد فيها جميع البيانات المنشودة .. ولم يعد يخالجه شك في أن لوسي هي ابنة جان فورتية .

دس أوليد السجل في جيبه وصافح الفتى وشكره بحرارة .. فقال هذا في تردد :

- ولكن أسمح لي قبل انصرافك أن تعطيني السنتين المزورين ! ..

فقال أوليد باستغراب :

- السندان المزوران ! آه ! لقد مزقتكما فكهن مطمئناً .

ولكنه كان كاذباً في قوله .. لقد احتفظ بالسنتين كما احتفظ

بإقرار السرقة وهو يقول في نفسه :

- ما يدريني أنني قد أحتاج إلى هذه الأوراق يوماً ما ! . إنها في يدي تصبح سلاحاً أرغم به دشمان وأماندا على الرضوخ لإرادتي وعدم الوشاية بي .

- ٧ -

عثر رجال الشرطة في أثناء تفتيشهم الغابة التي وقع فيها الاعتداء على لوسي على قطعتي المديّة التي طُعن بها الفتاة المسكينة .

ضُمت القطعتان إحداهما إلى الأخرى فتطابقتا .. وكان اسم البائع وعنوانه مكتوبين عليهما .. وهذا نصه :

«روشار .. بائع أسلحة - ٩ شارع بوربون» .

ودهش مفتش الشرطة حين قرأ هذا العنوان وقال في نفسه :

- عجباً .. إنه عنوان لوسي أيضاً .. إنها تقيم في هذا المنزل ذاته !

وكان من رأي قاضي التحقيق أن الجريمة لم ترتكب عفواً كما

كان الرأي للوهلة الأولى .. والدليل على ذلك شراء المديّة من المنزل

نفسه الذي تقيم فيه لوسي .. وقال القاضي :

- فالمعتدي إذاً يعرفها حق المعرفة .. إلا إذا كانت المصادفة قد

لعبت دوراً عجيباً غير مألوف !

وانتقل التحقيق إلى حانوت بائع الأسلحة .

وراحت العاملة التي باعت المديّة تصف الشاري للقاضي فقالت :

- إنه كهل في الخامسة والخمسين متأنق الثوب له رشاقة الشبان ..

ولا تبدو على وجهه سمة المجرمين .

وصعد القاضي إلى مسكن لوسي المقيمة في الطابق الأعلى من

المنزل وأنبأها بما أسفر عنه التحقيق مع بائع الأسلحة فعجبت للأمر

وقالت :

- ولكنني موقنة من أن المعتدي عليّ كان رث الثياب !

- من المحتمل أنه كان متنكرًا .

- هذا جائز .

بعد أن انصرف القاضي ومفتش الشرطة مضت لوسي إلى مشغل السيدة أوغستين تحمل إليها ما أنجزت من ثياب جديدة .

قالت الخياطة الشهيرة تسألها :

- ألم يهتد رجال الشرطة بعد إلى المعتدي الأثيم؟

- كلاً . . ولكن الأمل قد اشتد في اعتقاله .

وروت لها ما كان من عثور الشرطة على المديّة ومعرفة أوصاف الرجل الذي ابتاعها من بائع الأسلحة الذي يستأجر حانوتاً في المنزل نفسه الذي تقيم فيه .

وكانت أماندا تصغي إلى هذا الحديث باهتمام شديد .

وقالت السيدة أوغستين :

- إني أشاطر القاضي رأيه . . إن هذا المعتدي يعرفك من قبل على ما أظن . . وما من شك في أنه يحقد عليك حقداً شديداً .

- ولكنني لم أسيء إلى أحد ! فلم يحقد عليّ؟

وتذكرت أماندا عند ذلك الحمال الذي جاء يوماً يسألها عن لوسي وعن عنوانها فقالت :

- أليس لك عشيق نبذته فنقم عليك بعد أن هجرته؟

فابتسمت لوسي وقالت :

- ما عشقني أحد حتى اليوم !

فقالت السيدة أوغستين :

- الحق أن هذا الحادث غامض مبهم . . ولكنني أرجو أن تنجلي هذه الظلمات عاجلاً .

- ٨ -

كان أوليد قد انقطع عن مقابلة أماندا حين ظن أنه قتل لوسي فلم يعد في حاجة إلى المعلومات التي تمده بها . . ولكنه حين عرف أن لوسي لا تزال على قيد الحياة عاد يتصل بأماندا عقب عودته من جواني مزوداً بإقرار السرقة التي اقترفتها .

وفي ذلك المساء كانا على موعد لقاء .

قالت له أماندا :

- أعلمت بما أصاب لوسي؟

فهتف متجاهلاً :

- ومن تكون لوسي هذه؟

- تلك الخياطة المقيمة في شارع بوربون والتي رافقتني إلى دارها يوماً ما . .

- ماذا أصابها؟

- أصيبت بطلعنة مديّة كادت تقضي على حياتها .

وروت له تفاصيل الحادث . . والتطور الجديد الذي طرأ على اتجاه القضية . . وقالت :

- وقد عثروا على المديّة وعرفوا من البائع أوصاف الشاري .

استمع وجه أوليد حين سمع هذه الكلمات وعراه اضطراب ظاهر . . فقالت أماندا :

- ما هذا الاضطراب؟ أمرض أنت؟

فضبط أعصابه بجهد كبير وقال :

- كلاً .. ولكن هذه القصة المحزنة هدّت أعصابي .

ثم قال مسترسلاً :

- ولكن أي دافع لهذا الكهل المتألق إلى قتل لوسي؟

- هذا ما سوف يكشفه التحقيق .. ولكن الشيء الغريب أن هذا الكهل اشترى الخنجر في الساعة نفسها التي كنت أنت فيها تنتظرني في المركبة عند باب لوسي فلا شك أنك رأيت .

فقال أولفيد بصوت هادئ :

- كان ينبغي أن أراه .. ولكنني لم أكن ملفياً بالآ إلى باب الحائوت .

وكانت أماندا ترقبه بدقة وهو يقول ذلك .. ولم يخف عليها أن عينيه كانتا ترسلان وميضاً من الخوف .

وعاد أولفيد يقول :

- وهل ترجو الشرطة أن توفّق إلى اعتقال هذا الكهل؟

- طبعاً .. والتحقيق يتقدم من يوم إلى آخر .. ولكن لم أراك شديد الاهتمام بأمر هذا الكهل؟ أترك تعرف شخصاً تنطبق عليه هذه الأوصاف؟

كان هذا التلميح أوضح من أن يحتاج إلى تفسير .. لقد أدرك أولفيد على الفور أن أماندا ترتاب في أمره .. وأنها تعتقد أنه هو الذي ابتاع المدينة حين كان في انتظارها على قيد خطوات من حائوت بائع الأسلحة .

وقال أولفيد :

- فلندع هذا الحديث جانباً وأعيرني سمعك لأروي لك ما شهدت من غرائب وعجائب في أثناء رحلتي .

- وماذا رأيت؟

- لقد جمعت نماذج من خطوط بعض المشاهير من الأحياء .

- حقاً؟ ومن أي الدول؟

- من فرنسا .. ومن جواني بالذات .

- ونظر إليها أولفيد متفرباً فراها ترتعد .

وقالت تسأله متظاهرة بعدم الاكتراث :

- أهي بلدة جميلة؟

- نعم .. وقد تعرفت فيها بصاحبة حائوت للثياب فزودتني

بأنموذج خطي نقدتها ثمناً له ألف فرنك .

شحب وجه أماندا وأخذتها رعدة شاملة .. فقال أولفيد مسترسلاً

كمن يروي حكاية ظريفة :

- وهذا الأنموذج مذيّل بتوقيع فتاة تدعى أماندا ريجامي .. أليس

هذا هو اسمك؟

ولم يعد ثمة مجال للمراوغة أو الإنكار .

قالت أماندا وهي ترتعد :

- ولم تسألني ما دمت تعلم كل شيء؟

- وما الذي يخيفك من ذلك؟ لقد علمت بالأمر مصادفة .. ولما

كنت لك صديقاً مخلصاً فقد بادرت إلى دفع دينك واسترداد الإقرار

حتى أردت منك العار .

فقالت الفتاة :

- شكراً .. لقد اقترفت هذه الفعلة في ساعة طيش وجنون ..

ولكن أين الإقرار؟

- في خزانتي .. إنني أحفظ به .

- ألا تنوي أن تعيده إليّ؟
 - كلاً . فإني أحب كما قلت لك أن أحتفظ بنماذج الخطوط .
 فقالت بغضب :
 - دع المراءغة جانباً يا بارون . . إن لك غرضاً خفياً من وراء الاحتفاظ بالإقرار الذي كتبه أعتز فيه على نفسي بالسرقة . .
 فما هو هذا الغرض الخفي؟ أتريد أن تشهر بي وترميني في السجن؟
 فقال باسم :
 - إنني أحبك . . ومحال أن يخطر ببالني أن أسوء إليك .
 - إذا؟
 - كل ما في الأمر أن التجارب علمتني أن أحذر النساء . . ولهذا سأحتفظ بهذا الإقرار ليكون في يدي سلاحاً أستعمله حين تدعو الحاجة .
 - إذا فقد أصبحت خاضعة لإرادتك !
 - وهل في هذا ما يضيرك؟
 فقالت تسأله بعد برهة :
 - كيف علمت بهذا الإقرار؟
 - مصادفة واثفاقاً .
 فقالت بلهجة ذات مغزى :
 - وكذلك ابتاع المعتدي على لوسي المذبة من الخانوت القائم تحت بيتها . . مصادفة واثفاقاً !
 وعند هذا التعريض لم يعد لدى أوليف شك في أنها تعرف أنه هو المعتدي فقال :
 له :

- مهما يكن من الأمر فإن المعتدي على لوسي لن يساق إلى السجن فإن لديه سلاحاً يرد به عن نفسه كيد خصومه !
 وحين همّ بالانصراف قالت له :
 - ما هو عنوانك فقد يدعوني الأمر إلى الكتابة إليك؟
 - حاذري أن تكتبي إليّ . . فإن لي زوجة وأولاداً !
 وحين خلت أماندا بنفسها قالت :
 - إن البارون يعلم علم اليقين أنني أرتاب في أمره . . ولكن كيف أنشي به وفي يده هذا الإقرار يتوعدني به في كل لحظة؟!
 ولكن ما هو سره؟ ولم حاول أن يقتل لوسي؟
 ينبغي من الآن فصاعداً أن أترصد خطواته وأعرف عنوانه . . وعند ذلك يهون عليّ اكتشاف سره .
 ذهب أوليفد سوليفر إلى مقابلة جاك جارود وأطلعه على الورقة التي انتزعها من السجل وقال :
 - لم يعد هناك شك في أن لوسي الخياطة هي ابنة جان فورتية .
 فقال جاك :
 - ومع ذلك فينبغي الاستيقاق من الأمر إلى غاية القصوى قبل أن نقدم على أي عمل .
 - سأذهب إذاً إلى الملجأ وأسأل عن الطفلة التي أودعت فيه يوم ٦ نيسان/ أبريل من عام ١٨٦٢ وما كان مصيرها بعد ذلك . ولكن أخبرني متى يعود لوسيان من رحلته؟
 - بعد أربعة أيام أو خمسة .
 وفي الساعة الخامسة مساء عاد أوليفد إلى مقابلة جاك جارود وقال له :

- لقد ذهبت إلى الملجأ واطلعت على السجلات .
- وماذا عرفت؟

- عرفت أن لوسي الخطابة هي ابنة جان فورتييه .
فقال جاك بابتهاج :

- الآن يمكن أن نضرب الضربة القاضية . . وسنرى إذا كان
لوسيان لابرو سيرضى بأن يتزوج ابنة المرأة التي قتلت أباه؟

- ٩ -

بعد أربعة أيام كانت في باريس فتاتان تنتظران عودة رجل
واحد . . وكل واحدة منهما تعتقد أنه يحبها وأنه لن يتزوج سواها .

أما هاتان الفتاتان فهما لوسي وماري هرمان . . وأما الرجل
فلوسيان لابرو العائد من رحلته إلى بلغراد .

استقبلته لوسي وقد تددت عيناها بالعبيرات . . فقال وهو يضمها
إلى صدره :

- رباه ! إنها كانت وشيكة بأن تكون فجيعة ساحقة . . لو أنني
تلقيت يوماً برقبة تنبني بموتك ! لو أن هذا حدث لمت حزناً !

فضحكت وقالت :

- فلندع هذه التثقولات . . وحسبك أن تراني أمامك على أتم
صحة !

- ولكن كيف وقع لك هذا الحادث؟
وراحت تروي له تفاصيل الاعتداء الذي كادت تذهب صحته .
وفي صباح اليوم التالي مضى لوسيان إلى المصنع فاستقبله جاك
مرحباً وقال له :

- إني سعيد بأن انتدبتك لهذه المهمة فقد أحسنت أداءها . .
وجاءتني من أصدقائي من رجال الأعمال رسائل كثيرة يطرونك
فيها .

ويعد أن روى له لوسيان نتائج رحلته قال :

- ولكن أخبرني أولاً يا سيدي . . كيف حال الأتسة ماري؟
- مسكينة . . لقد اشتدت وطأة الداء عليها .
- ولكنني أرجو ألا يكون الأمر خطيراً !

- إنك سترها الليلة فأنت مدعو لتناول العشاء عندنا . . والمسكينة
متلهفة إلى لقائك ولا حديث لها إلا عنك .

وفي المساء مضى لوسيان إلى منزل جاك جارود .
كانت ماري جالسة في صدر القاعة . . فلما رآته مقبلاً همت
واقفة . . ولكنها ما لبثت أن توجعت وتهاوت على مقعدها منهوكة

القوى وقد شحبت وجهها .
أسرع إليها أبوها جزعاً فقالت :

- إني أحس إعياء خفيفاً يا أبتاه . . ولكنه قد زال . . ما كدت
أرى لوسيان حتى تبددت أوجاعي . . فإن حبي له يطغى على
آلامي .

فقال لوسيان :

- وأنا سعيد برؤيتك يا آنستي .
- أنقول حقاً؟

- بكل تأكيد !
فأشرق وجهها وانفرجت أساريرها . . وقالت :

- لم إذا لا تزورنا كل يوم؟ إنه ليسرني أن أدعوك لتناول العشاء
- 229 -

- لقد ذهبت إلى الملجأ واطلعت على السجلات .
- وماذا عرفت؟

- عرفت أن لوسي الحياطة هي ابنة جان فورتيه .
فقال جاك بابتهاج :

- الآن يمكن أن تضرب الضربة القاضية . . وسنرى إذا كان
لوسيان لابرو سبرضى بأن يتزوج ابنة المرأة التي قتلت أباه؟

- ٩ -

بعد أربعة أيام كانت في باريس فستانان تنتظران عودة رجل
واحد . . وكل واحدة منهما تعتقد أنه يحبها وأنه لن يتزوج سواها .

أما هاتان الفستانان فهما لوسي وماري هرمان . . وأما الرجل
فلوسيان لابرو العائد من رحلته إلى بلغراد .

استقبلته لوسي وقد تندت عيناها بالعبيرات . . فقال وهو يضمها
إلى صدره :

- رباه ! إنها كانت وشيكة بأن تكون فجيعة ساحقة . . لو أنني
تلقيت يوماً برقبة تنبئني بموتك ! لو أن هذا حدث لمت حزناً !

فضحكت وقالت :

- فلندع هذه التثقولات . . وحسبك أن تراتي أمامك على أتم
صحة !

- ولكن كيف وقع لك هذا الحادث؟

وراحت تروي له تفاصيل الاعتداء الذي كادت تذهب صحته .

وفي صباح اليوم التالي مضى لوسيان إلى المصنع فاستقبله جاك
مرحباً وقال له :

- إني سعيد بأن انتدبتك لهذه المهمة فقد أحسنت أداءها . .
وجاءتني من أصدقائي من رجال الأعمال رسائل كثيرة يطرونك
فيها .

وبعد أن روى له لوسيان نتائج رحلته قال :

- ولكن أخبرني أولاً يا سيدي . . كيف حال الأتسة ماري؟

- مسكينة . . لقد اشتدت وطأة الداء عليها .

- ولكنني أرجو ألا يكون الأمر خطيراً !

- إنك سترها الليلة فأنت مدعو لتناول العشاء عندنا . . والمسكينة

متلهفة إلى لقائك ولا حديث لها إلا عنك .

وفي المساء مضى لوسيان إلى منزل جاك جارود .

كانت ماري جالسة في صدر القاعة . . فلما رآته مقبلاً همت

واقفة . . ولكنها ما لبثت أن توجعت ونهاوت على مقعدها منهوكة

القوى وقد شحبت وجهها .

أسرع إليها أبوها جزعاً فقالت :

- إني أحس إعياء خفيفاً يا أبتاه . . ولكنه قد زال . . ما كدت

أرى لوسيان حتى تبددت أوجاعي . . فإن حبي له يطغى على

آلامي .

فقال لوسيان :

- وأنا سعيد برؤيتك يا آنستي .

- أنقول حقاً؟

- بكل تأكيد !

فأشرق وجهها وانفرجت أساريرها . . وقالت :

- لم إذا لا تزورنا كل يوم؟ إنه ليسرني أن أدعوك لتناول العشاء

معنا كل ليلة .

فاشدد ارتباك لوسيان وقال :

- إنك يا آنستي تطوقين عتقي بأفضالك !

فظننت هذا القول منه قبولاً ولكنه ما لبث أن أردف :

- إن أعمالي تشغل كل وقتي يا آنستي فهلاً أعفيتني من ...

فقاطعته بقولها :

- ستزورنا في عطلة أيام الأحاد . وأرجو أن تزورنا أيضاً في هذه

الأيام .

ونظرت إليه نظرة ذات معنى . فأدرك أنها تشير بذلك إلى زيارته

للوسي أيام الأحاد فقال :

- ولكن لي أصدقاء يا آنستي لا يتسنى لي أن أزورهم إلا في أيام

الأحاد !

طغى اليأس على قلبها واشتعلت نيران حقدتها على غريماتها

وقالت :

- فأنت تردني خائبة إذا !

فتدخل أبوها في الأمر بقوله :

- إن من الإنصاف يا ابنتي أن ندع له يوماً من أيام الأسبوع يكون

فيه مطلق الحرية يفعل ما يشاء .

فقالت بيأس :

- أصبت يا أبتاه ! والآن قد عرفت أنني أسرقت في مطالبي . وما

كان ينبغي أن أمتي النفس بتحقيق هذه الأحلام .

ولاذت بالصمت . وسرت في وجهها سحابة من الاكتئاب .

وشعر لوسيان بالرتاء لها :

وحين غادر البيت عقب العشاء أحس كأن قرأ نفيلاً انزاح عن

كتفيه وراح بقول لنفسه :

- مسكينة هذه الفتاة . إنها لن تعيش طويلاً . ومن القسوة أن

أدعها تموت معذبة ! ولكن كيف أخادعها فأزعم لها أنني أحبها .

على حين أنني أحب سواها ؟ !

أما ماري فالتفتت إلى أبيها عقب انصراف لوسيان وقالت بمرارة

ويأس :

- أبت . . أرايت أنه لم يحبني بعد !

- وكيف يا ابنتي ؟ ألم يقبل بأن يتناول العشاء هنا كل ليلة ؟

- ولكنه قبل الدعوة مكرهاً .

ثم هتفت بيأس شديد :

- أبت . . لقد طال انتظاري . . وطال عذابي . . ولا بد أن أجد

وسيلة أقطع بها الشك باليقين . . نعم . . يجب أن أفعل شيئاً .

وارتاع جاك لما كان يبدو عليها من انفعال شديد وهي تتطرق بهذه

الكلمات وقال :

- ابنتي . . تريشي . . إن لوسيان سيتزوجك حتماً . . ونقي بما أقول .

ولكنها نهضت فجأة وغادرت الغرفة ولاذت بمخدعها .

غير أن النوم لم يطرق جفניה لحظة واحدة .

وكذلك بات جاك أرقاً لا ينام . . لقد خطر له أن ابنته تفكر في

الانشجار . . وأن هذا ما كانت تعنيه حين قالت إنه ينبغي أن تعمل

شيئاً ما .

في صباح اليوم التالي دعا جاك جارود مدير مصنعه لوسيان لايرو

إلى مكتبه وقال له :

- ينبغي أن أقدم إليك الشكر على تطفلك مع ماري بالأمس ..
ولكن خبرني ما رأيك في صحتها؟

فقال لوسيان :

- إنني أرى يا سيدي أنها بحاجة إلى عناية مضاعفة .

فهز الأب المسكين رأسه بئأس وقال :

- إذا فقد صدق الأطباء .. إن ابنتي في خطر يا لوسيان .. إنها
مقضي عليها بالموت وبأسها من غرامك يضاعف علتها .. ولا
سبيل إلى إنقاذها من الموت إلا بالزواج منك !
فقال لوسيان بارتياك :

- بالزواج مني !

- نعم .. إن حياتها رهينة بكلمة تخرج من بين شفثيك .. إنني
أهيك ثروتي كلها لكي تنقذ حياة ابنتي !
فقال لوسيان بلهجة المتوجع :

- سيدي .. إنني أقدر موقفك الأليم .. ولكنني أرجوك أن تدرك
أنني أتعذب مذ عرفت أن الأئمة ماري تحبني ! ولكن كيف يسعني
أن أتخلى عن حبي للوسي ؟ لو أنك في موقفني هذا يا سيدي
أكنت ترضى أن تحث بعهدك ؟

فقال جاك بمرارة :

- لا تسلني رأيي يا لوسيان .. إنه ليس إلا رأي رجل يرى ابنته
على شفا الموت فلا يبالي بما يقول أو يفعل في سبيل إنقاذها من
الموت ! إنني أراها كل يوم تذبل أمام عيني كالزهرة المسكينة ولا
أستطيع أن أمدّ يداً لإنقاذها ولو كان في بذل حياتي أو دمائي ما
ينجّيها لبدلتها في غير تردد .. إنني أحدثك يا لوسيان بلهفة الرجل

الذي يعلم أن موت ابنته إنما هو بمثابة موته هو نفسه .

وليث لوسيان صامتاً لا يجيب فقال جاك :

- فأنت مصرّ على الزواج بلوسي إذا ؟

- ولا يسعني أن أتراجع يا سيدي .

فقال جاك بصرامة :

- إذا دعني أكاشفك بأمر أعلم أنه سينال منك .. ولكنك أنت
الذي دفعتني إلى هذا الموقف ! زواجك من لوسي خليك أن يلوث
شرفك ويجعل اسمك مضغة في الأفواه .

فقطب لوسيان جبينه وقال :

- ماذا تعني يا سيدي ؟ يُخيل إلي أنك تهين الفتاة التي أحبها !

- بل هي التي تهينك حين تتقدم إليك بحبها !

- سيدي !

- أعلم من هي تلك الفتاة التي تنوي أن تسبغ عليها اسمك
الطاهر الشريف ؟

- إنها فتاة طاهرة شريفة .

- أخطأت يا لوسيان !

فانبعث الفتي واقفاً وقد احمر وجهه غضباً وصاح :

- سيدي ! أرجوك أن لا تهين زوجتي أكثر من ذلك .

- إنها لقيطة ريت في الملاهي لا تعرف لها أباً أو أمّاً .

- هذا الخبر ليس جديداً علي يا سيدي .. ومع ذلك فالعار إنما

يلحق أبويها !

- هذا قول لا يأخذ به إلا الشعراء وأصحاب الخيال .. ومع ذلك

فهل علمت ابنة من هذه الفتاة ؟

- ابنة من؟

فقال جاك جارود يهدوء :

- ابنة المرأة التي قتلت أباك .. ابنة جان فورتييه !

حملق لوسيان في جاك جارود كالمذهول .. وإذا وعى معنى كلماته انطلقت من فمه صرخة يأس داوية .. ثم هوى على الأرض مغمياً عليه .

بينما كان هذا الحديث يدور بين بول هرمان ولوسيان لابرو .. كانت ماري هرمان في دار لوسي تتحدث إليها .

قالت :

- ألك دخل غير ما يأتيك من خياطة الثياب؟

- كلاً .

- هل تريد أن أدفع إليك بثروة كبيرة تغنيك عن العمل؟

فقالت لوسي في دهش :

- ماذا تعنين يا سيدتي؟

- أتخمين أن أتحدث إليك بصراحة؟

- بلا ريب .

- سأعطيك ربع مليون فرنك .. بل أكثر من ذلك إذا شئت !

فاشتد استغراب لوسي وقالت في نفسها :

- ماذا دهاها ! أتراها جئت؟

ثم رفعت صوتها وقالت :

- ولكن لم هذا العطاء السخي يا سيدتي؟

- لكي تبرحي فرنسا فوراً على أن لا تعود إليها !

- عجباً ! إنني لا أدرك ما تعنين !

وساد الصمت برهة ثم قالت ماري :

- إنني أحب لوسيان لابرو .. وأريد أن أتزوجه .. فأرحمني عن

هذه البلاد وخذي من المال ما شئت ! .. لقد سلّبتني الهناء .. ويكاد

المرض يقتلني ! أما إن تزوجت لوسيان فقد أصبح أسعد النساء !

هبت لوسي واقفة وقالت :

- إذا فهذا سبب غضبك علي .. وقد كنت أسائل نفسي عن سره

فلا أثبتته ! سيدتي .. أتخمين أنني خليقة أن أرضى بهذه المساومة ؟!

- ولم لا ترضين؟ أتريد أن أضاعف المبلغ؟ إنني على استعداد .

فقالت لوسي بأنفة وكبرياء :

- إنني أرفض يا سيدتي حتى ولو منحني الملايين التي لا

تحصى .. أنعرفين السبب؟ إذا فاعلمي أنني أحب لوسيان .. وأن

الحب ليس سلعة تقدر بالمال ! إنني أحبه وهو يحبني . فلندع له إذا

حق الاختيار ! وبعد .. فأظن أن الحديث قد انتهى وأن في وسعك

أن تنصرفي .

ولكن ماري لم تنصرف؟

تلك الفتاة المتكبرة المتعجرفة نسيت في هذه اللحظة كبرياءها

وعجرفتها .

جثت على ركبتيها أمام لوسي .. وبسطت لها ذراعيها وقالت

بصوت مخنق وعبراتها تجري على وجنتيها :

- لوسي .. ألا ترين أنني أتعذب ؟! ألا ترين أنني أذوي وأموت ؟!

إن يأس الحب هو الذي يقتلني .. فدعيني أضرع إليك جاثية والشمس

منك أن تهينني الحياة . إنك إن رفضت فقد قضيت علي بالموت !

وأخذت لوسي بيد الفتاة وقد أدركتها الشفقة عليها وقالت :

- سيدتي .. انهضي .. إن قلبي ينقطع حشرات لأجلك .. ولكن لا يسعني أن أفعل شيئاً .. إن القلوب ليست سلعة تباع وتشترى !
فاتقدت عينا ماري غضباً وصاحت :

- إذا فأنت ترفضين ؟
- أرفض وأنا حزينة متوجعة لأجلك !
فصاحت ماري بوحشية :
- إذا .. سأنتقم .. ! سأنتقم !
وغادرت الغرفة على عجل !

لم تكد ماري هرمان تنصرف حتى أقبلت جان فورتييه تزور لوسي .

راعها ما رأيته في عينيها من أمارات الحزن فقالت لها :
- ما بالك يا ابنتي ؟

وكان لهذه الكلمة العطوفة هزة عميقة في نفس لوسي .. فما إن سمعتها حتى ترامت بين ذراعي جان .. وراحت تبكي كما تبكي طفلة صغيرة محزونة تشعر بدفء صدر الأم الحنون .

وحين سكن روعها قالت :

- إنني أتعذب !

وروت لها ما دار بينها وبين ماري هرمان .

- ١٠ -

أفاق لوسيان لافرو من إغمائه والتفت إلى جاك جارود وقال :

- سيدي .. ! إنها تهمة خطيرة تلك التي ألصقتها بلوسي .. فهل

لديك البرهان ؟

- بلا ريب .

ودفع إليه ورقة السجل المنزوعة التي تثبت أن لوسي هي ابنة جان فورتييه .

اطلع لوسيان على السجل ثم قال :

- صدقت .. انها ابنة جان فورتييه !

- أي ابنة المرأة التي قتلت أباك !

- ولكنني مقتنع ببراءتها !

- وهل يعفك اقتناعك من حكم القضاء وحكم الناس ؟

وما يقول عنك الناس إذا عرفوا أنك تزوجت بابنة المرأة التي قتلت أباك ؟

فهتف لوسيان بلهجة يائسة :

- أصبت .. إن زواجي بها بات مستحيلاً !

- أرايت يا بني أنني أسدبتك النصح !

وكان المسكين على حال من اليأس لا يمكن وصفها .. وكان وجهه شاحباً كمن قضى مريضاً شهوراً طويلة .
وقال الأب مسترسلاً :

- لقد أنقذتك يا بني من العار الذي كان خليقاً أن يلطخ اسمك

مدى الحياة .. ولقاء هذا أسألك أن تنقذ ابنتي من الموت .

- ولكنني لا أستطيع !

- إنني أعلم أنك رجل نبيل .. وقد أنقذتك فكيف لا تنقذ ابنتي ؟

- سيدي .. إن الأمر ليس هيناً إلى الدرجة التي تتصورها . إن

هذه الصدمة قاتلة ساحقة .. ولا بد لي من الاعتكاف أياماً أداوي

فيها جرح قلبي .
 - وابتي!! إن هذا الإعراض منك يقتلها!
 - أطلعها يا سيدي على السبب حتى تعلم أن ليس في وسعي أن أتزوج لوسي .
 - ولكن متى تتزوج ابتي؟
 - أمهلني يا سيدي! أمهلني أباماً أنروى فيها وأتدبر الأمر . . ألا ترى أنني أتعذب؟!
 - حسناً . . سنصبر إذاً!
 - أناذن لي بأن أحتجب عن العمل يومين؟
 - لك ما تشاء .
 وانصرف لوسيان وهو يقول في نفسه :
 - نعم . . يستحيل أن أتزوج ابنة المرأة التي قتلت أبي !
 مسكينة لوسي! إن هذه الصدمة ستقتلها! ولكن ما حيلتي؟! إني أتعذب! أتعذب أكثر من عذابها المنتظر!
 سار لوسيان هائماً على وجهه في طرقات باريس . . كان كالمذهول المشدود لا يدري ما يفعل!
 لم يكن هناك شك في أنه عدل عن الزواج من لوسي . . ولكن الصدمة - كما قال - سحقت قلبه وردته أشبه بالهجين .
 وقادته قدماءه إلى المخبز الذي تعمل فيه جان فورتية . . وإذا رآته وهي جالسة في الردهة أسرع إلىه تقول :
 - سيد لوسيان . . آئت في حاجة إلي؟ ولكن ما هذا الذي يبدو على وجهك من إشارات الانفعال والاضطراب؟! ماذا؟! أتبكي؟
 أخبرني بما جرى! إنك تريد أن تحدثني عن لوسي! رياه! كان قلبي

عند الصباح يحدثني بأن هناك نكبة نوثك أن تحمل بنا منذ زارت الأتيسة هرمان لوسي .
 فقال باستغراب :
 - أزارت الأتيسة ماري هرمان لوسي اليوم؟
 - نعم . .
 - وما السبب؟
 فروت له ما حدث . . فقال في هدوء :
 - إني أتمس للأتيسة ماري عذراً عن غرامها!
 فنظرت إليه جان بارتياح وقالت :
 - ماذا؟! أما من كلمة ماثلة عن لوسي؟! ألا تعلم أن هذه المقابلة كانت عذاباً لها؟
 - إنها طبعاً جديرة بالعطف!
 - جديرة بالعطف؟! ما هذه الكلمات؟ كأنني بعاطفتك نحوها قد فترت! ألم تعد تحبها؟
 - ربما .
 امتقع وجه جان وصاحت بياس :
 - ماذا . . ألم تعد تحب لوسي؟ أنت تهذي؟
 - هناك حائل يصدني عنها!
 - ولم لم يصدك بالأمس؟
 - لأنني لم أعلمه إلا اليوم .
 قالت جان بغضب :
 - إني أعرف مصدر هذه الأكاذيب والمفتريات . . ترى أي أكذوبة ألصقوها بها!

- ليست هناك أكاذيب أو مفتريات يا سيديتي .. وإنما حقائق ..
حقائق دامغة .

- ماذا تعني .. أفصح ؟!

- يستحيل أن أتزوج لوسي !

- ولكن لماذا؟ لماذا؟

- لأنها ابنة المرأة التي قتل أبي !

فصاحت جان فورتية بيأس وقالت :

- ابنة المرأة التي قتل أباك ! ابنة جان فورتية !

- نعم !

- لوسي .. ابنة جان الهاربة من السجن؟

- تماماً !

وكاد السر ينطلق من بين شفيتها .. كادت تصيح :

- إذا فلوسي هي ابتي التي أبحث عنها منذ شهور ! ابنتي إلى

جواني ! وعلى قيد خطوة مني وأنا لا أعلم !

ولكنها تماسكت وتجلدت .. وقالت :

- هذا نبا غريب .. وقد أذهلني .. ولكن أناخذ الفتاة بجريمة

أمها ؟!

- وهل يسعني أن أفعل غير هذا ؟! ما يقول الناس عني إذا عرفوا

أنني تزوجت ابنة تلك التي سفكت دماء أبي ؟!

- ولكنك تعتقد أنها بريئة .

- وهل ينبغي هذا الاعتقاد من اتهامات الناس ؟!

قبل أن أتزوج لوسي ينبغي أن أبرهن عن براءة أمها .

- سيديتي .. إن لي رجاء عندك .. اذهبي إلى لوسي .. وكاشفيها

بما عرفت مني ! قلبي لها إن بيتنا هوة عميقة يستحيل اجتيازها !

لقد تحطم قلبي لفرانها ! ولكن الشرف يقضي عليّ بذلك !

فقالت جان بمرارة :

- إنك تعهد إليّ يا سيدي بمهمة فوق الطاقة .. أتريد مني أن

أكشف لوسي بسر مولدها كأنما لا يكفيها بأس الحب حتى أضيف

إليه عار الفضيحة ؟!

كلّا يا سيدي ! لا تكل إليّ هذه المهمة أرجوك !

وأولته ظهرها وانصرفت مسرعة والحزن يقطع نياط قلبها .

إذا فلوسي ابتها !

لقد حدثها قلبها بهذا .. وهذا الحب الذي تحسه الفتاة إنما بعثه

في قلبها نداء الأمومة الخفي .

ولكن ما أفدح النكبة ! في أي ظرف أليم اهتدت إلى ابتها !

إنها بدلاً من أن تضمّها إلى صدرها وتعانقها ستجد نفسها مكرهة

على أن تتباعد عنها وتخفي عنها شخصيتها !

بدل أن تقول لها : أنا أمك .. ستضطر أن تصيح : كلّا .. كلّا ..

إنني لست أمك ..

ويا له من عذاب محض يوم تنكر الأم أمومتها !

- ١١ -

كان أوليفر سوليفر في خوف دائم من عشيقة أماندا .

عرف أنها ترتاب في أمره وتكاد تؤمن بأنه هو المعتدي على

لوسي .. ولكنه كان موقناً من أنها لم تهتد بعد إلى عنوانه وأنها

تظن أنه يدعى البارون أرنولد دي ريس .. ولكنه كان يخشى أن

تتعبه سرّاً فتكشف أمره .

وقال في نفسه :

- ينبغي أن أنتزع منها سرّها وأعرف ما تبطن .. وإلى أي مدى بلغت شكوكها بي .. فلم لا أستعمل إكسير الحقيقة كما استعملته من قبل .. يوم انتزعت من جاك جارود سره .

وإذ عزم على ذلك دعاها إلى قضاء أسبوع على ضفاف السين بالقرب من فونتينلو .

لبّت أماندا الدعوة فسبقها إلى القفريّة وحجز لنفسه غرفة في فندق «محلة الصيادين» وسألها أن تلحق به .

وفيما كان ينتزعه في غابة الملك رأى جماعة مستلقين على العشب يتبادلون الحديث .

وكان أحدهم يقول :

- وشاءت الأقدار أن نساfer إلى أميركا على باخرة واحدة في عام ١٨٦١ .. وقد تعرفت إذ ذاك بالاختراع الشهير نيومي مورتيمر وابنته ويفرنسي يدعى بول هرمان تزوج الفتاة فيما بعد .

فضحك أحد الحاضرين وقال :

- لقد ذكرتني بما حدث .. فقد سرق أحد اللصوص مالي ولكن بول هرمان رآه فأعاد إليّ المال المسروق .

- ولكني لم أسمع بهذا الحادث؟

- هذا لأن بول هرمان رجائي أن أعفو عن الرجل إكراماً لأسرته .

وعاد الرجل - وهو طبيب - يقول :

- وعلى هذه البخرة .. وكان اسمها لوردمير فيما أذكر .. لقيت كندياً حدثني عن دواء معروف باسم «إكسير الحقيقة» إذا شرب منه

الإنسان انطلق يتحدث بكل ما يبطن .

- وهل جرّته؟

- مراراً ونجحت التجربة .

ونظر أوليفد في ساعته فألقى أن موعد القطار قد دنا .. فانطلق إلى المحطة واستقبل أماندا عند قدومها ومضى بها إلى الفندق .

وفي اليوم التالي لزم أوليفد غرفته بحجة الصداع فخرجت أماندا وحدها تنتزعه .

على أنها ما كادت تغادر الفندق حتى بادر إلى زجاجة الشراب فمزج بها قدرًا من هذا السائل الهندي العجيب المعروف باسم إكسير الحقيقة .

وفيما كانت أماندا راجعة إلى الفندق رأت حشدًا من الناس يزحمون الطريق .. فافتريت من القوم فرأت شابًا عمدًا على الأرض والدماء تنزف منه وقيل لها إن سيارة صدمته .

ما كادت أماندا تتأمل وجه المصاب حتى هتفت باستغراب :

- عجباً ! دشمان !

فقال أحد الحاضرين يسألها :

- أتعرفينه؟

فقالت مستدركة :

- كلاً .. إنه شبيه برجل أعرفه !

وجاء الطبيب مسرعاً فقحص المصاب وأمر بنقله إلى الفندق .

أمر أوليفد سوليفر أن يرسل بالطعام إلى غرفته في الفندق ..

وجلس إلى المائدة وأماندا قبالة .

وراح يقدم إليها الشراب المزوج بإكسير الحقيقة .

وما كاد يستقر في جوفها حتى بدأت الأعراض المعهودة تبدو عليها .. ظمأ شديد .. وإعياء .. ثم ضحكات مرتفعة .

وما هي إلا لحظات حتى انطلق لسانها وبدأت تعترف بكل ما تبطن .

وعرف أوليد أنها عالمة بسره وأنه هو المعتدي على لوسي .. وأن في نيها أن تتعقبه وأن تفضح أمره .

وكانت هي تتحدث تتكلم بصوت مرتفع حاد النبرات فصاح بها أوليد :

- اصمتي .. خفضي من صوتك !

فصرخت :

- أنت .. كلاً .. محال أن أسكت .. يجب أن يعرف الناس جميعاً أنك لص قاتل .

ثم اشتد بها الانفعال فأصيبت بنوبة عنيفة .. وأخذت تهذي .. ثم تضحك ثم اخشع صوتها .. ولم تعد الكلمات تخرج من حلقها .

وفجأة هوت إلى الأرض غائبة عن الصواب .

أسرع إليها أوليد فجلس يدها فوجدتها باردة مثلجة ونبضها ضعيفاً فأدركه الخوف وخشي أن يكون الإكسبر قد قتلها .

أفرغ في الحوض ما بقي من زجاجة الشراب وفتح باب الغرفة فألقى صاحبة الفندق على قيد خطوات تتحدث إلى رجل كهل .

وقال أوليد يسألها :

- أريد طبيباً .. لقد أغمي على صديقتي .

فتقدم الكهل الذي كان يتحدث إلى صاحبة الفندق وقال :

- إنني طبيب يا سيدي .. وقد جئت إلى الفندق لأعالج جريحاً .

- أرجوك أن تفحصها إذا !

فحص الطبيب أماندا وسقاها دواء أخرجه من حقيته ..

ثم التفت إلى أوليد وقال :

- لو أنني تأخرت ربع ساعة لماتت هذه المرأة ! ولكن أخبرني ..

لم سقيتها من إكسبر الحقيقة ؟

فقال أوليد مراوفاً :

- إكسبر الحقيقة ؟

- دعك من الإنكار ! لا ريب أنك أردت أن تنتزع أسرار هذه

المرأة .. ولكنك تجاوزت المقدار فكادت تقتلها .

- إنني فعلت هذا يا سيدي .. لأسباب خطيرة .

- ليس من شأنني أن أبحث الأسباب !! لولاي لكنت الآن مسوقاً

إلى السجن ! إنني لن أبلغ الشرطة على شرط أن تعديني بأن لا تعود

إلى هذه الفعلة مرة أخرى .

- أعدك بذلك يا سيدي .

وانصرف الطبيب بعد أن وعد بالعودة مرة أخرى في المساء .

أبت جان فورتيه أن تكاشف ابتها لوسي بأن لوسيان هجرها ..

إذ لم يطاوعها قلبها على تحطيم فؤاد ابتها .

ولكن جاء يوم الأحد .. ولم يحضر لوسيان إلى زيارتها كالعتاد .

دبت الشكوك إلى قلب لوسي .. وبدأ الحزن يطفئ عليها ..

وحاولت جان أن تسري عنها .. ولكن الفتاة كانت متوجسة ..

جعلت تقول :

- لا ريب أنهم أغروه بالمال على هجري .. ما يدريني أنهم

عرضوا عليه ربع مليون أو نصف مليون كما عرضوا علي لقاء أن

يتخلّى عني؟
وتتابع ساعات النهار وهي في الانتظار .. تارة تثبُّ إلى النافذة
وتأخذ الطريق بعينها! .. وتارة ترتقي على فراشها وتسلم نفسها إلى
البكاء .

وهبط الليل .. ولم تطق المسكينة صبراً .. قالت :

- إني ذاهبة إلى داره لأرى ما صرفه عني !
ولقيها الباب بقوله :

- إن السيد لوسيان لا يرو مسافر منذ يومين .

- سافر! ألا تعلم وجهته؟

- كلاً .

- ومتى يعود؟

- لا أدري !

عادت لوسي وقد أدهشها هذا السفر الفجائي وأثار مخاوفها .

على أنها ما إن ابتعدت خطوات حتى لحت عيناها نافذة

لوسيان .. رأت الضوء ينبعث منها .. إنه لم يسافر إذا!

ورجعت إلى الباب غاضبة ثائرة .

وقال الرجل يدافع عن نفسه :

- إنه هو الذي أمرني بأن أنبئك أنه مسافر إذا سألت عنه !

- هو الذي أمرك بذلك؟

- نعم .. وقد وصفك لي .. ألسنت أنت الآنسة لوسي؟

وما كانت لوسي في حاجة إلى المزيد .

رجعت إلى غرفتها وهي تبكي بكاء مرّاً .. ترامت على صدر

جان وجعلت تقول :

- لقد هجرني . لقد تخلى عني !

وروت لها ما كان من أمرها مع الباب .

وهتفت بصوت مختنق :

- والآن ما قيمة الحياة بعد أن هجرني؟! إن الموت عندي أعذب

من الحياة .

وراحت جان تسري عنها بكلماتها .. وحنانها .. والمسكينة تبكي

بكاء مرّاً ملحاً .. وصاحت :

- لا بدّ لي من مقابلته .. ينبغي أن أعلم السر في هجره لي !

- لا داعي لذلك يا ابنتي .. إنّ علمك بالحقيقة قد يضاعف من

عذابك .

- ما هذا الذي تقولين؟! أتراك تعرفين شيئاً؟

- كلاً يا ابنتي .. إني لا أعرف شيئاً .

- ولكن لماذا هجرني؟ لأني لقيطة! لأني فقيرة! ولكنه كان يعرف

ذلك من قبل! لا بد أن أذهب إليه .. إني ذاهبة إليه فوراً ..

وسأرغمه على أن يكاشفني بكل شيء!

وحاولت جان أن تثني ابنتها عن الذهاب .. فقالت :

- إن لوسيان يحبك .. وما خانك .. ولكن زواجكما مستحيل .

- مستحيل؟! ولماذا؟ لا ريب أنك تعرفين شيئاً .. تكلمي! أكان

أبي لصاً! أو قاتلاً؟

فصاحت جان :

- لا تهيني أباك يا ابنتي فقد كان من أشرف الرجال !

- أأكون أُمي إذا هي أصل البلاء؟

ولاذت جان بالصمت .. لم يكن في وسعها أن تقول :

- نعم .. إن أمك هي سبب البلاء .. وإن كانت بريئة شريفة ..
وأنا هذه الأم التي سحقته فؤادك ..
- تكلمي .. ما بالك ساكنة؟! لماذا هجرني لوسيان؟! إنني أكاد
أجن ..
وكانت المسكينة أشبه بالمجانين ..

وصاحت :

- إذا عرفت السبب هانت عليّ نكيتي والتمست للوسيان عذراً ..
وأمام هذا الإلحاح لم تجد جان بداً من الكلام .. قالت :
- لوسيان لا يستطيع أن يتزوجك .. لأن ..

واستعصى عليها الكلام .. ولكنها ما لبثت أن قالت بصوت
مخفّف :

- لأن أمك هي تلك المرأة المتهمة بقتل أبيه !

فصرخت لوسي صرخة داوية .. وجمدت كالمصعوقة ..
وبعد برهة قالت :

- إذا فأني هي التي قتلت جول لابرو وأحرقت مصنعه ؟

- أمك بريئة يا ابنتي فلا تدنسي إيمانك بها !

- ولكنهم أدانوها !

- ظلماً ! أنسيّت أن لوسيان نفسه يعتقد أنها بريئة ؟

- ما دام هذا هو اعتقاده فلماذا هجرني ؟

- لأن حكم الناس وحكم القضاء أقوى من اقتناعه !

- أكنت تعرفين أمي يا سيدتي ؟

- إنها من أشرف النساء يا ابنتي ..

- وهل هي بريئة ؟

- إنها بريئة فلا تلعن بها !

- لست ألعنها ! إنني أطلب لها الرحمة ! ولكن كيف يسعني أن
أنسى أنها كانت مصدر عذابي !

- وهي يا ابنتي ! ألم تتعذب هي أيضاً ؟ حرمت منك ومن أخيك !

- أكان لي أخ يا سيدتي ؟

- نعم .. ولا يدري أحد مصيره الآن .. وقد هربت أمك من
السجن لا لتنعّم بالحرية وإنما لتبحث عنك وعنه ..

وظلت جان تتحدث إلى لوسي وتحاول أن تسري عنها حتى
سكن روعها فلاذت بسريرها واستغرقت في النوم ..

وفي تلك الليلة لم يغمض لجان فورتية جفن ..

ظلت طول الليل تبكي وتتعذب كما لم تتعذب أم من قبل !

- ١٢ -

في ذات يوم ذهب المصور إيتين كاستل يزور صديقه المهندس
لوسيان لابرو فألفاه نحيلاً بادي الحزن فقال له :

- ما لي أراك يا صديقي حزيناً مهموماً وقد كان ينبغي أن تكون

فرحاً ؟ لقد زارتني ماري هرمان وأنبأتني أن أباه ينوي أن يتخذك
شريكاً ..

فقال لوسيان بأسى :

- إنك لم تعلم يا صديقي بالنكبة التي حلت بي ولو أنك علمت

بها لما طرحت عليّ هذا السؤال !

- أية نكبة ؟

- لقد انقطع ما بيني وبين لوسي !

- كيف هذا؟ ما السبب؟ كنت أعرف أنك هائم بها !

فروى له لوسيان نبأ ما عرف من أنها ابنة قاتلة أبيه .

فقال المصور إيتين كاستل :

- ومن قدم إليك ورقة السجل؟

- السيد بول هرمان .

فبدت الدهشة على وجه المصور وقال :

- وكيف أتى بها؟ أعني كيف توقع أن تكون لوسي هي ابنة جان

فورتبيه فبحث عن السجل وأتاك به؟ أتراه كان يعرف جان في

شبابه قرأى ما بين لوسي وجان من تشابه؟

- لا أدري فالبحت في هذا ليس من شأني .

فقال إيتين :

- ولكنه من شأني . . خبرني . . ما هي الآلة التي كان أبوك

مشتغلاً في صنعها قبل أن يقتل؟

- آلة لصقل الأجسام المقعرة غير المستوية . .

- إنها إذاً شبيهة بالآلة التي اخترعها بول هرمان وكانت سبباً في

نراه !

- أظن ذلك .

وحين رجع المصور إلى داره أخرج من خزانته علاناً كبيراً قضه

وراح يقرأ ما فيه من مذكرات .

وكانت كلها تدور حول مأساة المصنع المحترق .

وإذ فرغ من تلاوتها قال وهو يهز رأسه :

- يخيل إلي أنني عرفت من هو جاك جارود . . ولكن لا بد من

الدليل أولاً . . نعم . . لا بد من الدليل !

والآن خطوة إلى الوراء . .

حين أفاقت أماندا من إغمائها عجبت لما كانت تحسه من الإعياء

والتراخي وتحولت إلى البارون أرنولد دي ريس (أي أوليفد) تسأله عن

الأمر فقال لها :

- إنك أصبت عقب العشاء بضرية تشنجية حادة كادت تقضي

عليك لولا أن بادرت إلى استدعاء الطبيب .

فقالت الفتاة :

- هذا عجيب . . فأنا لا أذكر شيئاً من هذا ! ولكن كيف أصابتنى

هذه النوبة بغتة دون مقدمات .

وقبل أن يجيبها على سؤالها قُرع الباب ودخل الطبيب .

أقبل على أماندا يفحصها ثم قال :

- إنك الآن أحسن حالاً يا سيدتي وقد زالت نوبة الخطر . .

- ولكن كيف يمكن أيها الطبيب أن أصاب فجأة بهذه النوبة؟

فسكت الطبيب هنيهة ثم قال :

- سلي البارون فهو أقدر مني على الإجابة عن هذا السؤال . .

وحين غلت أماندا إلى نفسها واستعادت كلمات الطبيب قالت :

- كأني بهذه الكلمات تطوي سرّاً غامضاً . . لا شك أن البارون

دس لي سمّاً في الشراب ! . .

وأسرعت إلى زجاجة الشراب لكي تفحصها ولكنها وجدتها

فارغة ليست بها قطرة واحدة . . فقالت في نفسها :

- الآن فهمت ! . . أنا لم أشرب من هذه الزجاجة إلا كأسين . .

ولكنه أفرغ ما فيها حتى لا ينكشف أمره ! . . لا شك أنه مزج بها

سماً ! فلم أراد أن يقتلني ؟ .

في ذلك المساء غادر أوليفيد الفندق وسار على شاطئ النهر
يتنزه . . على حين لزمت أماندا غرفتها إذ كانت لم ترتد ثيابها بعد .
وكان الهواء شديداً فأطار قبعة عجوز من المتزهين فأسرع أوليفيد
في أثر القبعة وحملها إلى صاحبها .

وقال الشيخ العجوز يشكره :
- أشكرك كثيراً يا سيدي ! . . إني . .

ولكنه أمسك بغتة عن الكلام . . .

حملق في وجه أوليفيد وصاح :

- أنت هنا ! . . إني أعرفك .

فقال أوليفيد باستغراب :

- يؤسفني يا سيدي أنني لا أذكر من أمر تعارفنا شيئاً !

- كيف هذا؟ أنسيت ربنه بوسك الذي سرقت أمواله على متن

الباحرة لورد مير ؟

فزح أوليفيد إذ سمع هذه الكلمات ولم ينتظر لحظة واحدة وإنما

انطلق راجعاً إلى الفندق وقد أخذه الخوف .

لزم أوليفيد غرفته في ذلك المساء وأخذ يتسلى بقراءة الصحف إذ

كانت أماندا قد هبطت إلى الحديقة تترقب .

وفيما هي جالسة انتهت إلى أذنيها أصوات قريبة .

سمعت رجلاً يقول : «التقط الرجل قبعتي وقدمها إلي . . فلما

تبين وجهه عرفت أنه من أكبر المجرمين» .

فقال صوت آخر تبينت فيه أماندا صوت الطبيب الذي تولى

علاجها :

- إنه مقيم في فندق «محلة الصيادين» وهو يدعى البارون أرنولد

دي ريس .

- البارون أرنولد دي ريس ! هذا اسم متحل ! إنه مجرم يدعى

أوليفيد سوليفر ! وهو الذي ذكرت لكم بالأمس أنه سرق مالي ولولا

شفاعة بول هرمان فيه لكان الآن في السجن .

فقال الطبيب :

- لقد كاد يصبح بالأمس قاتلاً . . فقد مزج بشراب صديقه قدراً

من ذلك السائل الهندي العجيب الذي يرغم المرء على الإباحة

بأسراره . . ولكن القدر كان أكثر مما ينبغي فكاد يقتلها !

وفيما كان هذا الحديث يدور بين الصديقين كانت أماندا جالسة

على كنب وقد حجبتها الأشجار تنصت إلى كل كلمة بانبيا .

وقالت لنفسها :

- الآن عرفت السرا ! إنه يدعى أوليفيد سوليفر . . والسيد بول

هرمان يرعاه ويسيطر عليه حمايته !

وقد حاول أن يقتل لوسي التي تخيط ثياب ابنة بول هرمان .

لا ريب إذاً أن هناك علاقة خفية بين هذا القاتل وبين هرمان . .

فما هي هذه العلاقة ؟

ذلك ما سوف أهتدي إليه قريباً !

حين رجعت أماندا إلى غرفتها في الفندق وجدت أوليفيد في

انتظارها . . فقال لها :

- إني مسافر إلى باريس لأمر خطير وسأعود بعد يومين .

- ومتى تسافر ؟

- الآن فوراً .

ثم قبلها وغادر الغرفة بعد أن حمل معه حقييته .

دقت أماندا الجرس وقالت للخادمة التي لبّت النداء :

- أحب أن أقابل المصاب الذي صدمته السيارة على أن تكون هذه المقابلة سراً لا يعلم بها أحد .

ونفحتها بمبلغ من المال فقالت الخادمة :

- سأندبر الأمر فاطمئني .

لم يكن ذلك المصاب الذي صدمته السيارة إلا راؤول دشمان الموظف في دار العمدية في بلدة جواني . . والذي نزع من السجلات الورقة الخاصة بابنة جان فورتية وباعها إلى أوليفر سوليفر لقاء وفاء ديونه .

وقد برت الخادمة بوعدها فدبرت أمر اللقاء السري بين أماندا ودشمان .

وحين دخلت عليه أماندا تولاه الذهول وهتف :

- أماندا ! أنت هنا ؟!

فأخذت بيده وراحت تتحدث إليه برفق وهو طريح الفراش لا يقوى على الحركة . . ثم قالت :

- لقد جئت بأبحاثك في أمر خطير يا راؤول .

- أي أمر يا ترى ؟

- أتعرف البارون أرنولد دي ريس . . أعني ذلك الرجل الذي كان في جواني منذ شهر وأخذ من بائعة الثياب الإقرار الذي اعترفت فيه بفعلتي ؟

فقال راؤول :

- نَبَأَ له . . أفعل هذا ؟! إنه أخذ أيضاً من تاجر الخمر السندين

اللذين زوّرتهما .

- إنه عدو لنا يا راؤول وفي نيته أن يوقع بنا .

وراحت تروي له ما عرفت من أمر أوليفر وجرائمه واسمه الحقيقي .

وقالت :

- والآن يجب أن نتكاتف يا راؤول ونعمل على الانتقام منه . .

فهل تشاطرنى هذه الرغبة ؟

- من كل قلبي !

- إذا لا بد أن نتصر . . ومتى شفيت من جرحك شرعنا في مناضلته . . إنه عدو رهيب ولكننا سنتصر .

- ١٣ -

في ذات يوم وصلت إلى لوسيان لابرو رسالة من المصور إتيين يدعوه فيها إلى تناول الشاي عنده . . فلما حضر جلس يتحدث إليه ويقول :

- قلت لي مرة إن السيد بول هرمان هو الذي أعطاك ورقة السجل المنزوعة الخاصة بلوسي ابنة جان فورتية .

- هو ذلك .

- ألا زالت لديك ؟

- نعم . .

- إذا أرجوك أن تأتيني بها غداً فأني بحاجة إليها .

- إنني أراك شديد الاهتمام بهذه المسألة !

- هذا لأنني بدأت أعتقد أنني عرفت قاتل أبيك .

- 255 -

- 254 -

وصاح لوسيان في دهش :

- حقاً! لو أنك فعلت لكنت مديناً لك مدى الحياة!

- اصبر حتى يتحقق الأمر . وبهذه المناسبة نسيت أن أنبئك بأنني دعوت بول هرمان وابنته إلى تناول الشاي معنا الآن أيضاً .

فأجفل لوسيان وقال :

- ولم جمعت بيننا وأنا أنعاشي لقاءها؟

- إن لي غاية من ذلك .

وقرع الباب إذ ذاك ودخل بول هرمان وابنته ماري .

وما إن رأت ماري لوسيان حتى تضرجت وجتأها احمراراً على رغم العلة التي تنخر في صدرها . . وبدا عليها أنها أسعد النساء .

بعد أن فرغ القوم من تناول الشاي قال المصور إيتين :

- والآن تعالوا أفرجكم على لوحاتي الأخيرة .

وانتهى بهم المطاف إلى لوحة كبيرة تشغل من الغرفة جداراً كاملاً . . وأزاح المصور الستار عن اللوحة وهو يقول :

- هذه اللوحة تمثل حادثة محزنة قديمة وقعت عقب مصرع أبيك يا لوسيان . ومن أشخاص هذه الصورة المرأة التي اتهمت بقتل أبيك .

كان المصور يلقي هذه الكلمات وهو ينظر إلى بول هرمان بانتباه شديد .

واضطرب جاك اضطراباً ظاهراً . . ولكنه ما لبث أن سيطر على أعصابه ببراعة .

وقال المصور مستطرداً :

- أما هذا الطفل الصغير فهو ابن السيدة داريه أخت كاهن

البلدة . . وقد أصبح الآن من مشاهير المهامين وأعني به جورج داريه .

وقال لوسيان :

- عجباً . . إن هذه المتهمة بقتل أبي تشبه امرأة أعرفها شبيهاً غريباً .

فقال المصور :

- أتعني الخياطة لوسي؟

- كلاً . . بل أعني امرأة في الخمسين من العمر هي السيدة ليزا بيرين بائعة الخبز . . وهي من أهالي الفورنفيل وأنبأتني أنها كانت تعرف أبي .

- وأين تقيم هذه المرأة؟

- في المنزل نفسه الذي تقيم فيه لوسي . . أعني رقم ٩ شارع بوربون .

وحين خلا المصور إيتين كاستل بنفسه قال :

- لقد اشتدت ريتي بهذا الرجل ! حين وقعت عيناه على اللوحة اضطرب اضطراباً عنيفاً . . وكانت نظراته تنبئ بخوفه . . فهل يكون هو جاك جارود؟ لقد تولد الشك في نفسي مذ عرفت أنه اخترع آلة صقل . . إذ كانت الرسوم التي سرفت من لابرو خاصة بآلة صقل ! وقد أظهر هذه الآلة في أميركا وعقب مصرع لابرو بشهر واحد ! إنه كان يعرف أن لوسي هي ابنة جان . . فكيف عرف هذا؟

نعم . . يغلب على ظني أنه هو جاك جارود !

ولكن أين الدليل ؟! هذا هو الشيء الذي ينقصني !

بينما كانت هذه الحوادث تتلاحق كانت لوسي فورتييه طريحة

الفراس نعاتي حمى شديدة نزلت بها إثر هذه النكبات التي ذهبت
صحبتها .

وقد لزمتم جان فورتييه ابتتها وسهرت على تمريرها حتى زال
عنها الخطر واطمأنت عليها فقالت في نفسها :

- والآن ينبغي أن أعيد هذه الأوراق إلى صاحبها .

أما هذه الأوراق فملف قضية خاص بالمحامي جورج داريه عشرت
عليه ملفى على قارعة الطريق منذ أيام . . ولكنها لم تستطع أن
تحضي به إلى صاحبه إذ اضطرت إلى ملازمة ابتتها .

حملت جان الملف إلى بيت المحامي وقدمته إليه فهم بأن يمنحها
عطاء ولكنها أبت .

وبدا التردد على وجهها ثم قالت :

- سيدي . . أتريد أن تسدي إليّ خدمة لا تنسى ؟!

- إني رهن إشارتك يا سيدي .

- إن لي صديقة مسكينة . . اضطهدت وطوردت . . دون أن تحجي
ذنباً . . كل جريرتها أنها ابنة امرأة حكم عليها بالسجن !

- وكيف اضطهدت ؟

- وشى بها أعداؤها إلى صاحبة مشغل الخياطة الذي تعمل فيه
وذكروا لها أن أمها مجرمة . . فما كان منها إلا أن طردتها من
المشغل . . أليس في القانون عقاب على هذا ؟

فقال جورج داريه :

- لا أنكر يا سيدي أن هذا الاضطهاد جريمة شائنة . . ولكن عما
يؤسف له أن القانون لا يرى أنها من الجرائم التي تستحق عقاباً . .

- إنه قانون أبر فاسد .

- هو ذاك يا سيدي !

وأحسن جورج داريه بالمعطف على هذه المرأة الكريمة الفؤاد التي
تنتصر بحرارة لفتاة تعرفها . . وبادلته جان ميله دون أن يخطر لها أنه
ابنها . . ودون أن يخطر له أنها أمه !

وفيما هما في هذا الحديث دخل الخادم يقول :

- السيد بول هرمان يا سيدي .

ما إن سمعت جان فورتييه هذا الاسم حتى هتفت :

- بول هرمان ! إنه يا سيدي سبب هذه النكبة التي حدثت عنها !

فقال جورج داريه :

- لعلك كنت تتحدثين عن لوسي خطيبة لوسيان لافرو ؟!

- تماماً يا سيدي !

- إذا تعالي نتحدث إلى السيد هرمان في الأمر ونرجوه أن يتوسط

لدى السيدة أوغستين لكي تعيدها إلى عملها .

وأخذ بيدها ودخل على بول هرمان وهو يقول :

- إن هذه السيدة الطيبة القلب قد جاءتك تحدث إليك في شأن

فتاة مسكينة هي لوسي فورتييه إنها تدعى مدام ليزا بيرين . . وقد

عرفت لوسي لأنها تبيعها الخبز .

كان جاك جارود قد سمع بأمر هذه المرأة وهو يتناول الشاي عند

المصور إيتين . . وقبل له إنها شديدة الشبه بصورة جان فورتييه .

أرسل إليها بصره فعرقها على الفور . . وحين سمع صوتها لم

يعد يخالجه في أنها جان فورتييه .

امتنع وجهه ولكنه غمالك أعصابه وقال :

- وماذا تريد مني يا سيدي ؟

- أتوسل إليك أن تنقذ لوسي .. إنها ستموت جوعاً ! . فكلما بحثت عن عمل اتصل أصحابه بالسيدة أوغستين للاستعلام عنها فتقول لهم إن أمها محكوم عليها بالسجن فيبوصدون الباب في وجهها .

فقال جاك جارود :

- وما شأني أنا إذا كانت أمها قاتلة سفاكة للدماء ؟
فصاحت جان فورتية :

- أليس لديك ما تقوله يا سيدي غير هذا؟ أسألك العون فلا أجد منك غير تجريح هذه المرأة المسكينة التي حكم عليها ظملاً !
وطافت بذهن جاك جارود فكرة طارئة .. قال في نفسه :
- إنها لم تعرفني .. ولكني قد عرفتها .. فلم لا أغتتم هذه الفرصة لكي أتخلص منها إلى الأبد ! ..
صاح بها :

- إنك تتحدثين يا سيدي بلهجة فيها من الانفعال والهيّاج ما يثير الشبهات حتى لكأنك لست صديقة لها ! . وبالأمر رأيت عند صديق لي من المصورين صورة لهذه المجرمة جان فورتية .. ويمكنك أن أقول إن الشبه بينكما شديد !

اضطربت جان عندما سمعت هذه الكلمات فصاح جاك جارود :
- إنك إذا لست ليزا بيرين ! . أنت جان فورتية الهاربة من السجن .. لا بد من القبض عليك يا سيدي .. وسأنادي رجال الشرطة بنفسي .

ولكن جورج داريه اعترضه بقوله :
- لا يمكن أن أسمح بهذا يا سيدي !

ثم تحوّل إلى جان فورتية وقال :

- سيدي .. يمكنك أن تنصرفي بسلام ! لن يجزؤ أحد على أن يمسك بسوء ما دمت تحت سقف بيتي .

انطلقت جان فورتية وهي تكاد تفقد الوعي .. وحاول بول هرمان أن يلحق بها ولكن جورج داريه حال دون خروجه وهو يقول :

- إن اهتمامك بالقبض عليها يا سيدي قد يثير ريتي فيك كما أثار ريتك فيها اهتمامها بالدفاع عن لوسي فورتية !

وأمام هذه الكلمات رأى بول هرمان من الحكمة أن يكظم هبّاجه وأن يرجع عن اللحاق بجان فورتية .

حين رجع بول هرمان إلى داره دعا إليه أوليفر سوليفر وروى له التطورات الأخيرة التي لم يكن يعلم بها حتى انتهى إلى حديث مقابله لجان فورتية .. وكيف حاول أن يقبض عليها لولا أن صده عنها جورج داريه .

وقال بول هرمان :

- ولقد خطر لي أن أبلغ الشرطة عنها ولكني أخشى أن يتشعب التحقيق فيكشف أمرى إذ لا بد أن جورج داريه سيدرك أنني أنا الذي وثيت بها .

- وبم تشير إذا؟

- بقتلها .. هذا هو سبيل الخلاص .

فقال أوليفر :

- إنني أرى القتل جديراً بأن يثير شبهات أشد وأقوى .. إذ ستجد الشرطة صلة وثيقة بين قتلها ومحاولة اغتيال لوسي ! وإذا اتكشفت هذه الصلة كنّا من الهالكين .

- إذا ما الذي ترى؟

- سأقتلها ولكن بوسيلة أخرى . . سأدير الأمر بحيث يبدو موتها كأنه حادث وقع قضاء وقدرًا .

- أصبت ! هذا هو عين الحكمة .

- وأنباء بعنوانها ووصفها له .

- وبعد نصف ساعة غادر أوليفد البيت وقد تفتق ذهنه عن خطة محكمة للقضاء على جان فورتيه .

- في تلك الليلة نفسها . . وقبل الفجر بساعة غادر أوليفد داره وقصد إلى شارع بوربون وانزوى في ركن قريب من دار جان فورتيه .

- وفي نحو الساعة الخامسة صباحاً رأى امرأة تمر به من الدار تنطبق عليها الأوصاف التي ذكرها جاك جارود . . فانطلق في أثرها . . حتى إذا بلغت الحيز وأخذت زميلاتها يتنادينها باسم ليزا أدرك أنها هي جان فورتيه التي يطلبها .

- وقد ظل طيلة النهار يتعقب خطواتها من بيت إلى بيت . . ومن شارع إلى شارع حتى عرف الطرقات التي تسلكها .

- وفي المساء رجع إلى داره وهو يقول في نفسه :

- لا ريب أن موتها أصبح محققاً ! فإذا ما قتلتها لم يعد هناك خطر يهددنا .

- ١٤ -

- كان المصور إيتين كاستل مجلداً في البحث عن قاتل جول لابرو . . فكان كلما وقع على أثر تتبعه حتى يميظ اللثام عنه .

- 262 -

- وقد أخذ من لوسيان الورقة المتزوجة من السجل وسافر إلى جواني وعرضها على العمدة فقال له هذا :

- هذه سرقة . . فمن الذي ارتكبها يا ترى ؟ لا ريب أنه راؤول دشمان فقد ظهرت عليه بغنة مظاهر الثراء بعد أن شوهد برفقة رجل غريب عن البلدة هبطها قادماً من باريس !

- وأين دشمان هذا؟

- لقد فصل من عمله وسافر إلى باريس . . وعلمنا أنه أصيب في حادث تصادم فنقل إلى فندق «محلة الصيادين» في فونتنبلا .

- ولم يتردد إيتين في السفر إلى هذه البلدة .

- قالت له صاحبة الفندق :

- هذا صحيح يا سيدي . . لقد نقل إلى هذا الفندق عقب إصابته . . ولكنه سافر اليوم إلى باريس غير أنه ذكر لنا أنه سيعود يوم الأحد مع الأكسة أماندا .

- ومن هي هذه الأكسة؟

- إنها صديقة كهل يدعى البارون أرنولد دي ريس .

- وكان المصور قد عرف من تحرياته في جواني أن البارون هذا هو الذي أغرى دشمان بسرقة السجل فقال :

- إذا فالبارون صديق دشمان !

- كلا . . فإن الأكسة أماندا لم تقابل دشمان إلا بعد رحيل

البارون .

- أتعرفين عنوان هذا البارون؟

- نعم . . إنه مدون عندنا في السجل .

- ولكن حين سافر إلى باريس ويبحث عن هذا البارون في العنوان

- 263 -

الذي ذكر له لم يجد أحداً بهذا الاسم . . فعرف أنه عنوان كاذب
دونه البارون في سجل الفندق تعمية وتضليلاً .
وقال المصور في نفسه :

- لا سبيل إلى جلاء هذا السر الغامض إلا إذا اجتمعت بدشمان
وأماندا والبارون دي ريس . . ومما يؤسف له أنني لا أعرف عنوان
أحد منهم .

ومضى إلى داره وقد اشتد به اليأس .
في اليوم التالي مضى المصور إلى زيارة ربيبه المحامي . . فقص
عليه ما كان من لقاء جان فورتييه بالسيد بول هرمان في مكتبه
وكيف حاول أن يقبض عليها لولا أن تصدى له جورج .
وقال المصور :

- هذا عجيب . . لا تعرض مسألة تتعلق بجان فورتييه إلا وجدنا
لبول هرمان أصعباً فيها ! فما شأنه؟ وما الذي يهيج فيه هذا الاهتمام
الشاذ؟

- أترتاب فيه؟
- نعم . . لقد بت أعتقد أنه هو جاك جارود كما أنبأتك . . ولا
ينقصني إلا الدليل الدامغ . . ولكنني موقن من أن انتظاري لن يطول .
أما أوليفد فكان في خلال ذلك منهمكاً في تدبير مكيدته للقضاء
على جان فورتييه .

وقد تعقبها كما ذكرنا وعرف الطرقات التي اعتادت أن تسلكها .
وفي اليوم التالي كوم فوق سور أحد المنازل الخالية كومة كبيرة
من الحجارة ووقف ينتظر مرور جان .
ورآها مقبلة على البعد فتهاى للعمل .

حين صارت تحت البيت دفع كومة الأحجار فانهارت وسقطت
فوقها وفوق غلام كان يسير أمامها .

وسقطت جان والغلام على الأرض وقد انبعثت الدماء من
جراحهما .
أما الغلام فمات لساعته . . وأما جان فأصيبت برضوض وجراح
خفيفة . .

ولكن أوليفد حين رآها طريحة على الأرض أبقن أنها ماتت وطار
إلى صاحبه جاك يزف إليه البشري .

في صباح يوم الأحد سافر المصور إثنين إلى فندق «محلة
الصيدان» ولبت في انتظار قدوم دشمان وأماندا إذ كانت صاحبة
الفندق قد أنبأته أنهما سيحضران في ذلك اليوم .

ولم يطل انتظاره إذ ما لبت الخادم أن جاءه يخطره بقدمهما .
وقدم إليهما المصور نفسه وقال :

- لقد جئت أباحثكما في شأن بول هرمان . . أأنت يا سيد
دشمان الذي سرقت ورقة السجل وأعطيتهما للبارون دي ريس؟
حاول دشمان أن ينكر في أول الأمر ولكن أماندا قالت له :
- وما الذي يدعوك إلى الإكثار؟ نعم . . هو الذي فعل ذلك . .
لقد أغراه هذا الرجل بالمال . . ولكننا سننتقم .

وروت له أماندا قصة الأوراق المزورة . . وكيف أن البارون يحتفظ
بها ليتخذها سلاحاً ضدهما . . وأنهما يسعيان الآن إلى استردادها .
وقالت مسترسلة :

- ومع ذلك فهو يتحل لقب البارونية !
وروت له ما علمت من جرائمه وأنه يدعى أوليفد سوليفر . . وأنه

يعمل لحساب بول هرمان .

فقال المصور :

- هذا كله يؤيد شكوكي . . . إنني أعتقد أن بول هرمان يتحل هذا الاسم وأنه يدعى جاك جارود ! وما دمتما تسعيان إلى الانتقام من أولفيد لم لا نتكاتف جميعاً على الانتقام وإظهار الحقيقة وتبرئة تلك المسكينة جان فورتييه ؟

وتم الاتفاق بين الثلاثة . . . وراحوا يتدبرون الخطة الحكيمة التي تتج .

وقال المصور :

- الرأي عندي أن تبعث ببرقية إلى بول هرمان مذبلة بتوقيع أولفيد سوليفر نقول فيها :

«قابلني هذا المساء في منزلي» .

وفي خلال ذلك يكون دشمان كامناً بالقرب من منزل هرمان . . . فإذا رآه خارجاً تعقبه . . . وبهذه الطريقة يسهل علينا أن نكتشف مخبأ أولفيد ما دمتما قد بحثتما عنه طويلاً بلا جدوى .

- ١٦ -

حين عرف أولفيد سوليفر أن جان فورتييه لم تمت . . . وأن الحجارة التي سقطت فوقها أصابتها بجراح خفيفة ما لبثت أن شفيت منها بعد أيام قليلة . . . بعث برسالة إلى إدارة الشرطة يقول فيها إن بائعة الخبز ليزا بيرين ما هي إلا جان فورتييه . . .

وحين كتب أولفيد الرسالة إلى رئيس الشرطة دخل إلى حانة وكتبها فيها ، وكانت تلك الحانة هي الحانة نفسها التي يجتمع فيها

- 266 -

الخبازون عادة وجان منهم . وكان جميع أولئك الخبازين يحبون جان ويحترمونها ، فلما علموا أنها سلمت من الخطر وشفيت من الجرح الذي أصابها أرادوا أن يحتفلوا بهذا الشفاء ويأدبوا مادبة قرروا أن يجمعوا نفقاتها منهم إكراماً لها .

وقد علم أولفيد ، وهو جالس بينهم يسمع حديثهم ، مقصدهم ، فاشترك معهم في إعداد هذه المأدبة ودفع خمسة فرنكات وهي القيمة المفروضة ، لأنه خطر له خاطر هائل يؤيد خطته الشائنة .

ذلك أنه خطر له أن يسقي جان من إكسبير الحقيقة الذي كان عنده ، حتى إذا فاجأها الشرطة ساعة الوليمة كان الشراب قد بلغ منها فاعترفت بحقيقة اسمها ولا يبقى سبيل لدفاع الخبازين عنها .

وكان موعد الوليمة في اليوم التالي ، فجاء أولفيد إلى تلك الحانة قبل الموعد بساعة ، وقد أحضر معه زجاجة الشراب ، وجلس في القاعة العمومية المشرفة على الشارع ولها باب من زجاج يرى منه المار في الشارع جميع الجالسين في تلك الحانة .

وقد اتفق في تلك الساعة أن السيدة أوغستين أرسلت أماندا بمهمة إلى إحدى زبائناتها ، وقد مرّت بذلك الشارع فرأت من خلال الزجاج وجه أولفيد ، فدخلت إلى تلك الحانة من باب غير باب القاعة العمومية ، وجلست في غرفة محاذية للمكان الذي كان فيه دون أن يراها ، على رجاء أن تغفو أثره حين خروجه .

وبينما هو جالس جاءت خادمة الحانة تسأله عما يشرب ، فلهش إليها ولاطفها وأطرب في مديح ليزا بيرين التي سيحتفلون بشفائها .

فسرّت الخادمة بهذا المديح ووثقت من أن هذا الرجل يحترم بائعة

- 267 -

الحيز كما كان يحترمها الجميع .

وعند ذلك أخرج أوليد من جيبه علبة تحتوي على قرطين من الفيروز وقال للخادمة :

- إني أعددت هذين القرطين هبة لليزا بيرين ، وسأقدمهما لها ساعة الاحتفال .

ثم أخرج علبة أخرى تحتوي على قرطين مماثلين أيضاً وقال :

- إن هذين القرطين لك إذا ساعدتني فيما أريد .

فدهشت الخادمة لقوله وقالت له :

- وماذا تريد مني؟

- إني أعلم عن ليزا ما لا تعلمون ، فإن لها صوتاً يفتن الجماد ، ولكنها امتنعت عن الغناء منذ عهد بعيد لنكبة أصابتها بمن تحب .

ولمّا كانت هذه الوليمة معدة لها وكان صوتها على ما وصفت لك فقد أردت أن أحتال على سماع صوتها الرخيم .

فذهلت الخادمة وقالت :

- كيف تكون هذه الحيلة؟

- إن لدي شراباً هندياً إذا شرب المرء منه بضع نقط نسي همومه واندفع في الغناء ، فإذا وافقتني على أن أسقيها جرعة من هذا الشراب بوضع نقط منه في كأسها أعطيتك هذين القرطين ، فإن شوقي إلى صوتها شديد .

فأجابته قائلة :

- ذلك سهل ميسور ، ولكنني أخاف أن يؤذيها ذلك الشراب .

- كيف يؤذيها وأنا أريد أن أسقيها إياه؟ وأي مآرب لي في إيذاء

هذه المسكينة؟ كل ما في الأمر أنني أريد المباشطة والحيلة على سماع صوتها .

- ولكن كيف أسقيها هذا الشراب دون الحاضرين؟

- أعطيك زجاجة صغيرة فيها سائل تضعين منه ثلاث نقط في

كأسها وهذا كل ما أطلبه إليك مقابل هذين القرطين .

فوافقت الخادمة على ذلك ، وأخذت منه القرطين والزجاجة ،

ودخلت إلى الغرفة التي كانت فيها أماندا ، فأخذتها أماندا بيدها

وسارت بها إلى غرفة أخرى بعيدة عن المكان الذي كان فيه أوليد

وقالت لها :

- لقد سمعت كل ما دار بينك وبين هذا الرجل الأثيم من

الحديث ، فإنه أغواك على أن تسقي تلك المرأة المسكينة من ذلك

الشراب ، وهو يريد لها الشر والأذى ، فإني أعرف هذا الشراب كما

أعرف مقاصد هذا الرجل .

ولا شك عندي بأنك لم توافقيه على مراده إلا وأنت واثقة من أنه

يريد المزاح وأنه لا ضرر من هذا الشراب ، ولكن الأمر على عكس

ما أوهمك .

فغضبت الخادمة لأنها كانت تحب جان كما كانت تحبها جميع

طائفة الخبازين وقالت لها :

- سأعود إلى ذاك الأثيم فأرمي القرطين في وجهه وأكلمه بما

يستحق .

- بل احتفظي بالقرطين عندك وتظاهري بموافقتك على ما أراد

وانتقمي منه بشرابه نفسه .

- كيف ذلك؟

- ذلك أن تضعي تلك النقط من الشراب في كأسه بدلاً من أن تضعيها في كأس ليزا .

- وماذا يفعل هذا الشراب؟

- إن من يشربه يسوح بكل أسرارهِ ، فإذا شربه هذا الأثيم باح بذنوبه وعرف الحاضرون جميع أثامهِ ، وكل ذنب من ذنوبهِ يُجازى عنه بالشنق ، فإذا سقيته من هذا الشراب عرف الناس كل نوابه فإنه ألدّ عدو لليزا .

- إذا فاعلمي يقيناً يا سيدتي أن ليزا لن تشرب من هذا الشراب . ولكن من يكون هذا الرجل؟ فإني أريد أن أخبر عنه صاحب الحانة . احذري أن تفعلي ، فإنه يطرده ولن نعلم شيئاً من نوابه .

- إذا سأضغ الشراب في كأسه وأكتم الأمر .

فأخرجت أماندا ورقتين قيمتهما مائتا فرنك ودفعتهما إليها ، ثم انصرفت عائدة إلى المشغل .

وعند ذلك جلس الجميع إلى المائدة ووضعوا جان في رأسها وأمامها طاقة الأزهار .

وفي هذه الأثناء دخل اثنان من رجال الشرطة ، وكان أوليفد جالساً بقرب جان ، فأيقن أن هذين الشرطيين قادمان للقبض عليها ، ولكنهما لن يفعلا ذلك إلى أن يتمّ الحفل .

كان الجميع فرحين مستبشرين ما خلا أماندا التي كانت قد عادت من المشغل وجلست في تلك الغرفة التي كانت تراقب منها ما سيجري ، وهي تنتظر بفارغ الصبر أن تنتهي تلك الوليمة وأن يعمل الشراب عمله بأوليفد .

وفي الساعة الثالثة فرغوا من الطعام ، وقدمت الخادمة القهوة

للجميع ، وقد وضعت نقط الشراب في فنجان أوليفد وهو يحسب أنها وضعتها في فنجان جان .

حتى إذا فرغوا من شربها وقف أوليفد فامتدح جان التي يحتفلون بها وقدم لها القرطين هدية ، فصقّ الجميع استحساناً .

ووضع أوليفد يده على جبينه ، لأن الشراب كان قد بدأ يؤثر فيه ، وبدأ الحاضرون يندهشون لما رأوه منه ، فإن عينيه قد احمرّتا وياتتا كعيون السكارى ، فقال له صاحب الفندق : ماذا أصابك يا سيد لوبرين؟

فضحك أوليفد ضحكاً عالياً وقال :

- إني لا أدعى لوبرين أيها البلهاء كما أوهمتكم ، بل إني أدعى أوليفد سوليفر ، وأنا أعيش من ذلك الإيراد الذي عبته لي ابن خالي بول هرمان الغني الشهير .

فارتعشت جان حين سمعت هذا الاسم ، ودهش الجميع لما سمعوه ولما رأوه من أوليفد . . ومضى في حديثه فقال :

- إنكم تعرفون بول هرمان ، فهو صاحب معمل كورينوا الشهير ، وقد قلت لكم إنه ابن خالي .

ولكنني كنت كاذباً ، فإن هذا الرجل ليس بقريبي وما هو من أهل الشرف ، بل إنه سارق حارق قاتل .

نعم فقد عرفته منذ واحد وعشرين عاماً ، إذ التقينا على باخرة مسافرة إلى نيويورك ، وكان هارباً من فرنسا لارتكابه تلك الجرائم الثلاث ، فتتكرّ باسم بول هرمان ابن خالي الذي كان قد توفي ، وقد كشفت سرّه فبات أطوع لي من البنان منذ ذلك العهد إلى الآن . أما اسم هذا الرجل الحقيقي فهو جاك جارود .

فوقفت جان مذعورة وقبضت على يد أولفيد وقالت : جاك جارود؟ .. أهو جاك جارود المتكرر باسم بول هرمان؟
- نعم ، لقد قلت وأنا أعيد ما قلته ، فإن بول هرمان الحقيقي مات من عهد بعيد ، وهذا الرجل المتكرر باسمه يدعى جاك جارود ، وهو الذي قتل رئيسه جول لابرو منذ واحد وعشرين عاماً في معمله في ألفورتفيل ، وقد سقيته من الشراب الهندي فباح لي بجميع سره ، كما سقيتك أنت يا ليزا بيرين وستبوحين بأسرارك .

فدهشت جان وقالت :

- ماذا يعني بما يقول؟

- فقالت لها الخادمة :

- إن هذا الشراب الذي أعدّه لك قد شربه هو دون أن يعلم .

- فلم يتبّه أولفيد لقول الخادمة وأتم حديثه مع جان فقال :

- إن هذا الشراب الذي سقيتك إياه سيطلق لسانك بأسرارك

فتبوحين أمام جميع الحاضريين أنك لا تدعين ليزا بيرين بل جان فورتيه .

- فارتعبت جان رعباً عظيماً وقالت :

- اسكت .

- نعم أنت جان فورتيه ، التي حاولت أن أقتل ابتها كما حاولت

أن أسحق رأسك بالحجارة .

نعم أنت هي جان الهاربة من سجن كارسون .

فحار الجميع في أمرهم ، وجعلوا ينظرون إلى جان وإلى أولفيد ،

أما جان فإنها وقفت وقالت :

- ويح لك أيها الشقي ، فأنت أنقذتني وها أنت تحاول ضياعي !

نعم أيها الأصحاب ، فإني أدعى جان فورتيه المحكوم عليها والهاربة من السجن ، ولكنني عوقبت بالجرائم التي ارتكبتها جاك جارود ، وقد سمعتم الحقيقة من فم هذا الشقي ، ولكنني ما هربت إلا لأبحث عن ولدي وابتي التي حاول هذا السفاك قتلها .

ويح لك أيها الشقي ، إنك اعترفت أمام شهود عدول ، وستبرئني المحكمة بإقرارك فلا يتلوث ولداي بهذا العار .

وأنتم أيها الرفاق ، فقد عرفتم الآن من أنا ، وما لقيته من

المصائب ، كما عرفتم حقيقة أمري ، فاحكموا عليّ بما ترون .

فقام الجميع إلى جان وصافحوها ، أما أولفيد فإنه سقط على

كرسي وقد أصيب بتشنجات عصبية شديدة .

وعند ذلك فرق الشرطيّان الناس عن جان ودنا أحدهما منها فقال

لها :

- يا جان فورتيه الهاربة من السجن إني أقبض عليك باسم القانون .

فقال صاحب الحانة :

- بل يجب القبض على هذا اللص السفاك لا على هذه المرأة

الفاضلة !

- واشتدّت حماسة الناس ، فحالوا بين الشرطيّين وبين جان ،

وهمس أحدهم في أذنها قائلاً :

- أسرع بالفرار فإنها خير فرصة تغتتم .

فهرت جان ولم يستطع الشرطيّان مقاومة الحاضرين ، ولبت أولفيد

على حاله .

فقال أحد الشرطيّين مخاطباً صاحب الحانة :

- لقد صدقت ، إذ يجب أن يعيد هذا الرجل أقواله أمام المحكمة .

وعند ذلك نغلا أوفيد إلى مركبة وسارا به إلى دائرة الشرطة .

ولمّا تفرّق الناس دخلت الخادمة إلى الغرفة التي كانت فيها أماندا فلم تجدها فيها إذ كانت قد أسرعّت إلى المصور لإخباره بما حدث .

ولكنها لم تجده في المنزل ، فعادت إلى منزلها وأقامت فيه تنتظر عودة راؤول . حتى إذا كانت الساعة الثامنة جاءت رسالة من راؤول يقول لها فيها إنه وقف على أثر أوفيد ، وأنه قد لا يعود الليلة . فاطمأنت واتجهت إلى السرير كي تنام ولكنها لم تستطع الرقاد .

نُقل أوفيد إلى دائرة الشرطة ووضعه في غرفة منعزلة ، فلمّا زال تأثير الشراب أعقبه النوم .

وعندما استيقظ في الصباح وجد نفسه نائماً على سرير من الخشب وبجانبه شرطي فدهش وقال :

- أين أنا؟

- إنك في السجن .

فدعر ذعراً عظيماً ووثب من السرير وقال :

- متى سجنّت؟

- منذ الساعة الخامسة من مساء أمس ، وقد كنت فاقد الرشد .

فلم يذكر أوفيد شيئاً من ذلك ، وكان جسمه منهكاً فعاد إلى سريره ووضع يده على جبينه فتذكّر ما جرى بالأمس لفوره وقال في نفسه :

- لا شك أن الخادمة قد أخطأت فوضعت الشراب في كأس بدلاً من أن تضعه في كأس جان .

- ويلاه لقد قضي عليّ قضاء مبرماً وجنيت على نفسي بيدي .

وبعد هنيهة دخل ثلاثة من رجال الشرطة وذهبوا به إلى قاضي التحقيق ، فبدأ القاضي سؤاله فقال له :

- ماذا تدعى؟

- بيار لوبرين؟

- فحذق القاضي به وقال :

- بل أنت كاذب .

فأجابه بلهجة وقحة قائلاً :

- إذا كنت تعرف اسمي أكثر مما أعرفه أنا فكيف تسألني عنه؟

- نعم أعرف اسمك فأنت تدعى أوفيد سوليفر .

- إذا كان هذا الاسم يرضيك فقد رضىته لنفسى .

- لا تحاول أن تضللنا بكلام لا يجديك ، فإنك إذا لم تحبني على أسلتي أجاهني عنها بول هرمان .

- فارتعش أوفيد وقال في نفسه :

- لا شك أنني أكثرت الكلام في تلك الحانة .

ثم قال مخاطباً القاضي :

- أرى يا سيدي أنه يوجد سوء تفاهم بيننا ، فإنك تسألني كما يسألون المتهمين فما هي هذه التهمة؟

- ستعرفها قريباً ، فأجب الآن هل بول هرمان ابن خالك؟

- نعم .

- إنك تكذب أيضاً ، فقد قلت في حانة الخبازين إن بول هرمان مات ، وإن هذا الرجل الذي تدعي قرابته متكرر باسم قريبك الميت .

فأيقن أوفيد أنه باح بكل مكثراته وقال :

- إني كنت سكران حين تكلمت في تلك الحانة فلا أدري ما قلت .

- إذا لقد كنت سكران أيضاً حين اتهمت ليزا بيرين بأنها تدعى
جان فورتية الهاربة من السجن؟
- من هي جان فاني لا أعرفها؟
- هي تلك المرأة التي حاولت قتلها بالحجارة كما حاولت قتل
ابنتها بالمديّة .

- من يجسر على اتهامي بهذه التهمة؟
- الذين اعترفت أمامهم ، فإن لسانك انطلق بذلك الشراب الذي
أغويت الخادمة على أن تسقيه لتلك المرأة ، فسقتك إياه فبحث بكل
أسرارك . والآن قل لنا أين تقيم؟
فضم أوفيد قبضتيه مغضباً وقال :
- لقد أسأت إلى نفسي في سبيل خدمة سواي وأخطأت خطأ لا
أغتفره لنفسي .

فاعلم الآن أنني أقيم في شارع كليشي غرة ١٧ ، ولا تسألني غير
ذلك فإني لن أجيب .
- إن بول هرمان الحقيقي قد مات وإن المتكرر باسمه الآن يدعى
جاك جارود أليس كذلك؟

فهز أوفيد كتفيه ولم يجب ، فأمر القاضي بإدخاله إلى السجن .
وفي المساء جاء رئيس الشرطة إلى قاضي التحقيق وقال له :
- هل تريد أن ندهم منزل أوفيد سوليفر؟
- ذلك لا بد منه ، وسنذهب عند منتصف الليل كي لا نلفت
الأنظار فاستعد .

كان بول هرمان قد ذهب في تلك الليلة بناء على البرقية إلى
منزل أوفيد سوليفر وراؤول في أثره ، فدهش إذ لم يجده في منزله ،

وصبر ساعة على يعود ثم انصرف .
وكان ذلك المنزل في جهة مقفورة ، فاغتنم راؤول هذه الفرصة
وكسر باب المنزل ثم دخل إليه فوجد الصناديق معدة لحملها إلى
بورنس أيرس ، ورأى هناك درجاً استلقت نظره فكسره ووجد فيه
كثيراً من الأوراق المالية فتركها فيه ، وبحث في محفظته فوجد فيها
السنتين اللذين زورهما واعترف أماندا بالسرقة وشهادة المستشفى
المنشئة وفاة بول هرمان .

فأسرع ووضع هذه المحفظة في جيبه ، وقد فرح بها فرحاً لا
يوصف ، وأركن إلى الفرار .
وبعد هنيةة أقبل قاضي التحقيق ورئيس الشرطة وبعض أعوانه
فوجدوا الباب مكسوراً .

وبعد البحث وجدوا الأوراق المالية لا تزال في موضعها فعلموا
أن كاسر الباب لا يريد السرقة ، وحسبوا أنه شريك لأوفيد في
جرائمه ، وأنه جاء لسلب ما عنده من الأوراق التي تؤيد التهمة ،
فحصروا شبهتهم بيول هرمان وضبطوا جميع ما كان موجوداً في
المنزل وانصرفوا .

وبينا كانت أماندا جالسة في سريرها وهي شديدة الاضطراب
دخل عليها راؤول وقال لها :
- هلمّي وأسرع لنذهب إلى إيتين المصور فقد عثرت بالأوراق .
- أوراقتنا؟

- نعم وأضيفي إليها الشهادة المؤيدة لوفاة بول هرمان فقد
سرقتهما من منزل أوفيد وهو لم يعد إليه إلى الآن .
- ذلك لأنهم قبضوا عليه . ثم حكّت له بإيجاز وهي تلبس

ملابسها ما اتفق لأولييد في تلك الحانة ، وسار الاثنان إلى منزل المصور .

كان المصور ينتظر عودة راؤول بفارغ الصبر وقد جلس إلى طاولة يكتب كتاباً إلى جورج دارييه .

وقد نادى حملاً كي يرسل إليه معه ذلك الرسم الكبير الذي صنعه لأجله ووضعه في صندوق كبير وقاية له من الطوارئ .

وجاء الحمّال وحاول وضع الجواد الخشبي فوق الصندوق فقال له :

- دع هذا الجواد على الأرض ، فسأحمله بيدي .

فرفع الحمّال الصندوق وقدر الاتفاق أن يقع ذلك الصندوق من يده على الجواد فانكسر وتبعثر ما في جوفه من الأوراق .

أسف المصور أسفاً شديداً ، لأن جورج كان يحتفظ بهذا الجواد منذ حدثته لاعتقاده أنه هدية من أمه .

لم يكتثر لتلك الأوراق ، فأرسل الصندوق مع الحمّال ، وعاد إلى ذلك الكتاب الذي كان يكتبه إلى جورج ، وهو يتضمن تهنتته ببلوغه الخامسة والعشرين من عمره ، وأنه سيزوره في الساعة التاسعة لإخباره بأمر خطير بمناسبة بلوغه هذا السن .

ويعد أن أتم الكتاب وأرسله ، نظر إلى الأوراق التي خرجت من بطن الجواد وقال :

- ترى ما هذه الأوراق؟

ثم جعل يبحث فيها فرأى قطعاً مختلفة من الجرائد ، إلى أن عثر بورقة ارتجف لها واصفر وجهه ، إذ رأى عليها توقيع جاك جارود ، فقال في نفسه :

- ربّاه . . . أمكن أن يكون هذا الكتاب هو نفسه الذي كتبه إلى

جان وحسبت أن النار التهمت؟

ثم أخذ تلك الورقة وقرأ فيها بصوت يتهدج ما يأتي :

«حييتي جان . . .

«لقد أخبرتك أمس بأنني أعد لك ولولديك وسائل المستقبل والآن أخبرك بأنني صنعت هذا المستقبل بطريقة سريعة ، فلنني غداً سأكون من الأغنياء وسأظفر باختراع يكون لي منه أرباح عظيمة وبمائتي ألف فرنك لتنفيذ هذا الاختراع .

«تشجّمي يا جان ولا تخشي عاراً ، فإن ولديك سيكونان ولديّ ، وأنا أنتظر في الساعة الحادية عشرة مساءً عند جسر شارنتون فتهرب إلى الخارج ونصبح من الأغنياء .

«ولا تأسفي لفراق هذا المعمل الذي طردوك منه ، واحضري لتعيشي مع من يحبك أفضل عيش ، فإذا لم تحضري دفعتني إلى اليأس ، ولكنك ستحضرين .

«أيلول سبتمبر سنة ١٨٦١

«جاك جارود»

فصاح المصور صيحة انتصار وقال :

- هذا هو البرهان الجلي الذي تبحث عنه ، وستثبت به براءة جان لا محالة .

وعند ذلك قرع الباب ودخل دشمان فأخبره بالقبض على سوليفر وسرقة الأوراق المثبتة وفاة بول هرمان ويأن والد ماري إنما يدعى جاك جارود .

كان اضطراب المصور عظيماً ، إذ لم يبق لديه مجال للشك ،

فنادى خادمه وقال له :

- اركب مركبة وأسرع بها إلى لوسيان لابرو في معمل كورينوا
وقل له أن يأتي إلي في الحال لشأن خطير .

وبعد ساعة أقبل لوسيان وهو مضطرب فقال له :

- ماذا حدث؟

- لقد ظفرت بقاتل أهلك بفضل هذا الفتى الذي فضح أمره ،
وأشار إلى راؤول .

- من هو؟

- سأخبرك قريباً ، والآن هلموا بنا جميعاً إلى منزل المحامي
جورج داربييه .

كانت لوسي قد تمائلت إلى العافية ، وقد انتظرت جان في
تلك الليلة التي كشف فيها أوليد أمرها فلم تحضر ، ولذا لم تعرف
الرقاد في تلك الليلة . وعند الفجر أرسلت من يسأل عنها في الخبز ،
فعاد إليها بأخبار مهمة ملخصها أن ليزا بيرين متتكرة باسم آخر ،
وأنها متهمة بأنها كانت في السجن وهربت منه ، وأنهم لا يعلمون
أين هي الآن ويخشون أن تكون في السجن .

فكادت المنكودة تحن يأساً وقالت في نفسها :

- رباه .. كيف السبيل إلى مساعدة هذه المرأة الحنونة التي
كانت لي بمثابة أم ، فلقد كان لي رجاء بلوسيان لأنه يحبها أيضاً فلم
يبق لي غير جورج داربييه ، فإن ليزا أخبرتني أنه أشفق عليها .

وعند ذلك أسرع إلى منزل جورج داربييه وأخبرته بما اتفق
للأرملة ليزا بيرين ، فاضطرب جورج وقال :

- أهي تلك المرأة التي جاءتني بالملف المفقود؟

- نعم .

- وأنت تدعين الآسة لوسي ، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدي .

فظهرت دلائل الاشتغال على جورج ، إذ أبقن بأن بول هرمان
قد وشى بليزا ، ثم نظر نظرة حنو إلى لوسي وقال لها :

- بقيت عليّ مسألة يا سيدتي ، فهل أخبرتك تلك المرأة
بحقيقة اسمها؟

- لقد أخبرتني بأنها تدعى ليزا بيرين .

- إنها كانت متتكرة بهذا الاسم ولا يمكن إيجادها الآن إلا في
السجن .

- لقد أزعجتني يا سيدي ، فهل كانت مجرمة حقاً؟

- لا أعلم ! ولكن ليزا بيرين حكم عليها منذ واحد وعشرين
عاماً بالسجن المؤبد ثم هربت من السجن ، أما اسمها الحقيقي فهو
جان فورتبييه .

فصاحت لوسي صيحة يأس وقالت :

- رباه إنها أُمي ، ولكن حكم عليها ظلماً وعدواناً ، وقد
أخبرني لوسيان نفسه أنها عوقبت بذنوب سواها .

ويلاه لقد عرفت الآن سبب حنوها عليّ ، فإنها أُمي ! وما
أصنع الآن بإثبات براءتها؟ رحماك يا سيدي ، إنك من مشاهير
المحامين وقد عرفت بالمقدرة والشفقة فرد إليّ أُمي .

وعند ذلك فتح الباب فجأة ودخل منه لوسيان وإيتين
ودثمان ، فدهش جورج لقدومهم معاً ، ودنا لوسيان من لوسي
وضمها إلى صدره وقال :

- لقد حقّ لنا أن نأمل .

فقال جورج :

- لقد جاءت إليّ لتخبرني باختفاء ليزا .

فقال المصور بسكينة :

- لا بأس فسنجدها .

- فحاولت لوسي عند ذلك أن تخرج ، ولكن المصور اعترضها

قائلاً :

- ابقِي يا آنستي لتكوني شاهدة على ما سيكون .

ثم التفت إلى جورج وقال له بملء الحنو :

- لقد بلغت اليوم يا بني الخامسة والعشرين من عمرك ، وهو

اليوم الذي يجب عليّ فيه تنفيذ وصية ذلك الكاهن الجليل الذي

ربّاك . فخذ هذا الكتاب واقراه بصوت عالٍ ، وأنتم يا لوسي ويا

لوسيان أصغيا .

ففضّ جورج الغلاف وقرأ ما يأتي :

- أيها الابن الحبيب :

«في شهر أيلول/ سبتمبر سنة ١٨٦١ جاءت إليّ امرأة تحمل

طفلاً لا يتجاوز الثالثة من العمر ، وكان الجنود يطاردون هذه المرأة

المنكودة لاثهامها بثلاثة جرائم وهي تدعى جان فورتيه» .

«على أن هذه المرأة أقسمت لي بريها ويولدها أنها بريئة ،

وكانت الحقيقة تمثل في عينيها وفي نبرات صوتها ، فوثقت من

صدقها ولا أزال واثقاً إلى الآن» .

«ولكن ما حيلتي ! فإن جميع الأدلة كانت تؤيد التهمة عليها

فحكّم عليها بالسجن المؤبد» .

«على أنني لا أزال معتقداً ببراءتها بالرغم من هذا الحكم ،

وعندي أنها لم تكن مجرمة بل كانت شهيدة خطأ القضاء . وما

ثمكنت من نفعها إلا بتربيتي ولدها وتبنيّه باسم جورج داريه» .

فصاح الجميع صيحة اندهاش لما سمعوه ، وقال جورج :

- أنا ابن جان فورتيه وأخو لوسي؟

فأسرعت لوسي إلى معانقته وهي تقول : يا أخي !

فسالت دموع الحاضرين حنواً لهذا المشهد ، وضّمت جورج أخته

إلى صدره وهو يقول :

- نعم إننا ولدا المحكوم عليها ، وهي بريئة في عيوننا ولكنها

متهمة في عيون الناس ولا سبيل إلى تبرئتها وأسفاه .

فأخذ إيتين بيده وقال له :

- كلاً . . فإن براهين براءتها لديّ ، فخذ واقرا .

ثم دفع إليه كتاب جاك جارود إلى جان ، فلمّا قرأه جورج

كاد يطير سروراً وقال :

- إنه خير برهان يثبت البراءة فأين وجدته؟

- وجدته في بطن جوادك الخشبي .

- نعم لقد ذكرت الآن أنني بينما كنت في عهد حدائتي لأعب

هذا الجواد ، وقد كان سقط مني وشق بطنه ، فجعلت أحشوه بأوراق

مختلفة ، ثم رأيت أُمّي قد كوّرت بيدها ورقة وألقته مغضبة إلى

الأرض فأسرعت إلى التقاطها ووضعتها في بطن الجواد .

ولكن ما حيلتنا الآن في جاك جارود وهو من الأموات؟

- بل هو حي يرزق وهو يدعى بول هرمان .

- ما الذي يثبت ذلك؟

- لا بدّ أن يكون لديك خط بول هرمان فقابل بينه وبين خط

الكتاب تظهر لك الحقيقة .

ففعل جورج ووجد الخططين متمائلين ، وكان ذعر لوسيان شديداً فقال :

- ويح لهذا السفاك ، إنه كان يعرف من أنا ويحاول أن يزوجني ابنته وهو قاتل أبي ، ثم إننا لا نستطيع إدانته لمضي المدة القانونية بعد ارتكاب الجريمة .

فقال إيتين :

- إنه إذا سلم من عقاب جرائم الفلورنزيل فهو لن ينجو من عقاب محاولته قتل لوسي وجان .

فقال جورج :

- لنبحث الآن عن أمي ، فماذا جرى لها؟

فقال لوسيان :

- إننا منجدها وستكون أمنا جميعاً .

- وماذا تصنع بيول هرمان؟

فقال إيتين :

- أنعمل بنصحي؟

- نعم .

- إذا هلموا معي . وخرج الخمسة من منزل جورج ، فركبوا مركبتين ، وأوقف إيتين مركبته عند بائع تبغ فاشتري منه ورقتين عليهما تمغة الحكومة .

- ١٧ -

كانت جان بعد أن قرأت من تلك الحانة قد ذهبت هائمة على وجهها ، وقد أضاع الذعر رشدها ، فلم تزل تسير حتى وصلت إلى

مكان مقفر ، وهناك جلست على حجر فحملت رأسها بين يديها وجعلت تقول :

- رباه ! لقد قضي الأمر وقدر لي أن أفارق ابنتي إلى الأبد .

ولكن جاك جارود لا يزال حياً كما قال أوليفد ، وهو متكرر باسم يول هرمان ، وهذا الرجل لا يمكن أن يكون كاذباً فإنه ما باح بمكنونات سره إلا بعد أن شرب ذلك الشراب . وهو قد قبض عليه دون شك وسيعلمون أنهم حكموا علي خطأ ويقضون ببراءتي فأرى ابنتي وأبحث عن ولدي .

نعم إن جاك قد يكون عرف بالأمر وأركن إلى الفرار . وعند ذلك جعلت تبكي بكاءً ألماً .

ثم أغمي عليها فلم تستفق من إغمائها إلا في الصباح ، وأخذت تسير هائمة كالحمامة تخشى سهم الصياد فلا تدري أين تستقر ، حتى وصلت إلى نهر السين ، وهناك خطر لها خاطر رهيب جعلت على أثره تتراوح بين حب الموت واستبقاء الحياة ، إلى أن تغلب عليها حب ابنتها فرجعت عن الانتحار ورغبت في الحياة رغبة القانطين ، ذلك أنه خطر لها أن تذهب إلى جاك جارود .

تمت شطر باريس ، وهناك سألت عن منزل يول هرمان فاهتدت إليه وطرقت بابه وطلبت مقابلة صاحبه باسم أوليفد سوليفر ، فلم يجد جاك بداً من مقابلتها وقد شغل باله من قدوم هذه المرأة باسم شريكه ، فأذن بإدخالها إليه ، حتى إذا رآها تراجع إلى الوراء مذعوراً وهو يقول :

- أجد يوم النشور والبعث من القبور .

أما جان فإنها مشت إليه متباطئة وقالت له بصوت أجش :

- لم يبقَ شك في أنك دبّرت قتلي بدليل ذعرك الآن حين رأيتني في قيد الحياة .

فراى جاك أنه لا بدّ له من الثبات في هذا الموقف فتمالك نفسه ، وقال :

- آنت هنا أيتها الشقية ، ماذا جاء بك وماذا تريدین؟

- ويح لك أيها السفاك ، أنجسر أن تسألني عما أريد بعد أن علمت من أنت؟

فهزّ جاك كتفيه وقال :

- لا شك أنك مجنونة !

- لقد جننت سنين طويلة بسببك ، وقد شفيت بعد ذلك وأتيت أناقشك الحساب يا جاك جارود .

فتكلّف جاك الانذهال وقال :

- ما هذا الاسم؟

- هو اسمك .

- بل إني أدعى بول هرمان ! فلا شك أنك مجنونة يا ليزا بيرين .

- وأنا لا أدعى بهذا الاسم فأنت تعلم يقيناً أنني أدعى جان فورتييه ، وكفّاك كذباً فقد عرفنتي عند المحامي جورج داربييه وعرفت أنني تلك الشهيدة التي عوقبت بذنبك .

- اسكتي .

- كلاً لن أسكت ، فإنهم يطاردونني لبعيدوني إلى السجن ، ولكنني أثبت إليك ولن أخرج من هنا إلا وأنت معي إلى ذلك السجن ، وهناك لا بدّ لك أن تعترف بأنك الجاني وأني البريء .

فحاول جاك أن يجيبها ، ولكن ابنته دخلت في تلك اللحظة لاهثة وقالت :

- ماذا حدث؟

فأجابها أبوها قائلاً :

- عودي يا ابنتي إلى غرفتك ، فإن هذه المرأة مجنونة وهي تنلر وتتوعد .

- إذا سأنادي الخدم فيطردوها . ثم دنت من جان فقالت لها :

- من أنت؟

- سلي أبأك .

- ماذا تريدین؟

- أريد العدل وأريد أن يقبض على هذا الرجل معي .

فقال لها أبوها :

- أترين يا ابنتي أنها مجنونة؟

وقالت جان :

- أرايت يا سيدتي أنه لا يجسر أن يستغيث من جنوني .

فذهلت ماري وقالت :

- لماذا لا تفرع الجرس يا أبي؟

فقال لها جان :

- ذلك لأنه خائف .

فحاولت ماري أن تفرع الجرس ولكن أبوها أسرع إلى اعتراضها وقال لها :

- كلاً لا تفعلني .

- لماذا؟

فأجابتها جان قائلة :

- ذلك لأنه لا يريد أن يعلم الناس أن بول هرمان هو جاك جارود اللص السفاك .

فجمد الدم في عروق جاك وقال لها :

- اسكتي أيتها الشقية رحمة بابتي على الأقل !

- أيها الشقي ! ألعنك رحمتني ورحمت ابنتي ! إنك سفكت دم جول لابرو وأحرقت معمله وسرقت ماله واختراعه ، ثم ألحقت بي تلك التهمة الهائلة ، فسجننت بها واحداً وعشرين عاماً بعيدة عن ولدي وابتي ؟

وقد تركتهما طفلين رضيعين ، ثم إنك تنكرت باسم رجل غريب ، وعدت إلى هذه العاصمة بعد أن أثريت بالجرائم وجعلت تستخدم أموالك للإضرار بابتي فسحقت قلبها وحاولت قتلها . ولم يكفك ذلك حتى قطعت رزقها ، ثم تريد مني بعد ذلك أن أسكت ؟

وكانت ماري تسمع هذه الأقوال وتنظر إلى أبيها قشري من اضطرابه ما يدل على صدقها ، حتى إذا أثمت جان حكايتها وأظهرت حقيقة أمر هذا السفاك غطت ماري وجهها يديها استحياء وقالت :

- رياه .. إن ذلك هائل فظيع .

وعند ذلك هاج جاك هياج المجانين وقال :

- أيتها الشقية ! إنك أثبتت لتهددني في منزلي وستلقين فيه الموت الذريع . ثم انقض عليها يحاول خنقها .

وعند ذلك قرع الباب فتراجع مذعوراً ، ودخل الخادم فأنبأه بقدم زائرين ، فدفع جان إلى غرفته وأقفل بابها ، ودخل إذذاك راؤول

دشمان وإيتين المصور ، فانحنى إيتين أمامه وقال له :

- أخشى يا سيدي أن نكون قد أزعجناك بهذه الزيارة على غير موعد ، فإني أرى وجهك مصفراً ويديك تضطربان ، فهل أنت مريض ؟

- نعم ، إني مصاب بصداع أليم ، فأهلاً بك وبهذا الزائر الجديد .

فقال إيتين :

- إنه السيد راؤول دشمان . وسأخبرك يا سيدي عن السبب في هذه الزيارة تفضل بالجلوس لتحدث .

فجلس جاك بإزائه وبدأ إيتين الحديث فقال :

- ألم تخرج يا سيدي في مدرسة الصنائع والفنون في شالون ؟

- نعم .

- ألم تسافر بعد ذلك إلى سويسرا ؟

- نعم .

- وقد أقمت فيها عامين ؟

- نعم .

- أريد أن أسألك عن رجل هو اليوم في عداد الأموات كان

يشتغل بصنعتكم وهو يدعى جاك جارود فهل عرفته ؟

- جاك جارود ؟

كلاً . إني لا أذكر أنني عرفت رجلاً بهذا الاسم ، ولكنني أذكر

أنني سمعت بهذا الاسم منذ عهد قريب ، إن هذا الرجل كما قرأت في الصحف كان يشتغل في معمل جول لابرو ، وقد اشتهر بشهامته يوم احتراق هذا المعمل .

- هو ذاك يا سيدي ، فهل عرفت هذا الرجل ؟

- كلاً .

- هل أنت واثق مما تقول؟

- كل الثقة .

- وعندما سافرت إلى أميركا ألم تسمع بهذا الرجل؟

فزاد الشك في قلب جاك وقال :

- كيف أسمع به وهو ميت؟

- ذلك لأن كثيرين من الناس يعتقدون اليوم أنه لا يزال حياً ، وأنه خرج من ذلك المعمل المحترق بعد أن سرق اختراع صاحبه وما كان فيه من المال ويعد أن قتل صاحب ذلك المعمل أيضاً .

فابتسم جاك وقال :

- إنها خرافة قديمة ، فإن الذي قتل لافرو امرأة حكم عليها بالسجن المؤبد .

- ولكن هذه المرأة تدعي أنها بريئة وأن لديها كتاباً من جاك جارود نفسه يثبت براءتها .

- إن ما يدلك على فساد هذا الزعم أن هذا الكتاب لو كان موجوداً لأظهرته يوم المقاضاة؟

- بل ما أقوله لك هو الحقيقة بعينها فإن الكتاب موجود .

فلم يسع جاك إلا الاضطراب بالرغم عن سيطرته على نفسه ، وقال :

- كيف وُجد هذا الكتاب وأين؟

- وُجد في بطن جواد خشبي .

- إن ما تقصّه عليّ يشبه الروايات الموضوعة ، فاسمح لي أن لا أصدقك .

- إذا ، فانظر هذا هو الكتاب .

ثم قال له :

- أسمح لي أن أقرأه أمامك؟

- وما يهمني من كل ذلك؟

- سوف تعلم .

ثم وضع على المائدة ورفعتن عليهما ثمغة الحكومة ، ونظر إليهما جاك فقال :

- ما هذا؟

- كما ترى .

- نعم ، ولكني لا أفهم؟

- سوف تفهم لأننا سنبحث في شؤون مالية ، وأنت من الماهرين في الحساب يا سيدي ، فكم تبلغ فائدة مائتي ألف فرنك في مدة واحد وعشرين عاماً؟

- إنها تبلغ ثلاثة أضعاف الأصل .

- إذا فأنت مدين بستمائة ألف فرنك للوسيان لافرو وهو المبلغ الذي سرقته من أبيه سنة ١٨٦١ .

- إنني أدعى بول هرمان ، وإنك تهينني؟

- بل إنك تدعى جاك جارود ، وإنك لص سفاك هذه هي شهادة المستشفى التي تثبت وفاة بول هرمان ، وستناقشك المحكمة الحساب عن ذلك .

أما الآن فيجب أن تدفع ستمائة ألف فرنك .

فهاج جاك كالمجانين وقال :

- لا مجال لديّ للدفاع عن نفسي ، ويلاه لقد سقطت إلى

الحضيض وسقطت معي ابنتي البرية .
- ذلك منوط بك ، فادفع المال في البدء وسوف نرى .
فدبّ الرجاء في قلب جاك وقال :
- ليس لي مال هنا .
- بل إنك قبضت اليوم أكثر من هذا المبلغ لتعطيه إلى ذلك الأثيم أوفيد سوليفر .
فلم يجد جاك سبيلاً للمقاومة ، وأخرج من درج مكتبه ورقاً مالياً بهذه القيمة ودفعها إلى إيتين .
فأخذها المصور وقال له :
- لقد بقي عليك أن تكتب على هذه الورقة ذات التمغة ما أمليه عليك .
فامتل جاك مكرهاً ، وأملى عليه المصور ما يأتي :
- أنا الموقع أدناه ، جاك جارود ، أعترف بحضور إيتين كاستل ، وراؤول دشمان .
ثم توقّف عن الكتابة قائلاً :
- ولكنتك تسألني أن أقرّ بجريمتي وأعترف بذنوبي ، وذلك يثلم شرف ابنتي فلن أفعل .
فمشت ماري إليه مشياً بطيئاً ، وقد أوهنتها هذه الحادثة فبانت شبه النائم نوماً مغنطيسياً وقالت :
- بل اكتب يا أبي ؟
فركع أبوها أمامها وسالت الدموع من عينيه وقال :
- إنهم يريدون ثلم شرفك يا ابنتي !
وعاد المصور إلى الإملاء فكتب جاك ما يأتي :
- أعترف أنني في أيلول / سبتمبر سنة ١٨٦١ كتبت إلى جان

فورتيه هذا الكتاب الموقع باسمي والموجود في طيه .
«وأعترف أيضاً أنني سرقت في تلك الليلة مائتي ألف فرنك من صندوق جول لابرو وسرقت اختراعه وقتلته وحرقت معمله .
«وأعترف أنني أغريت أوفيد سوليفر بقتل لوسي فورتيه وأنها جان فورتيه الشهيرة باسم ليزا بيرين بائعة الحبز .
وعند ذلك سقط القلم من يد جاك التي كانت ترعّج .
فُتح الباب فجأةً فدخلت جان فورتيه من الغرفة التي كان حبسها فيها ، وقد وضعت يدها على عنقها وقالت :
- ليعترف أيضاً أنه حاول خنفي منذ هنية أمام ابنته .
فذعر جاك ودهش إيتين ، ودنت ماري من أبيها وقالت له :
- اكتب يا أبي . فكتب ما أرادت جان ، وتم بذلك الاعتراف ، فأمره إيتين أن يوقع على اعترافه .
حتى إذا امثل أخذت ماري منه تلك الورقة فدفعتها إلى جان وقالت لها :
- هذا هو برهان براءتك يا سيدتي .
ثم التفتت إلى أبيها وقالت :
- ليغفر الله لك يا أبي ، أما أنا فلاني ساموت لحسن الحظ .
- ثم خرجت من تلك الغرفة التي ساد الصمت فيها ، ولم يُسمع غير تنفس جاك الذي كان يخرج من صدره كالزئير .

وإنهم في هذا الموقف إذ جاء لوسيان وخطيبته لوسي والحامي جورج داريه وقاضي التحقيق ورئيس الشرطة وبعض الجنود يقودون أوفيد سوليفر .

فانطرحت لوسي بين ذراعي أمها وهي لا تصدق أنها تراها ، ودنا
رئيس الشرطة فوضع يده على كتف جاك وقال له :
- إني أقبض عليك باسم القانون .

ثم التفت إلى جان وقال لها :
- أمّا أنت يا سيدتي فقد أذن لي بإطلاق سراحك وستظهر براءتك
الثامة في أقرب وقت بعد أن ظهرت لنا أدلتها .
ثم أخذ من إثنين ذلك الكتاب الذي كتبه جاك إلى جان .
وهنا عرفت جان أنّ جورج ولدها ، فكان موقفاً مؤثراً ، أسأل
الدموع من العيون .

وبعد هنيهة ساروا بأوليد وجاك إلى السجن ، وقد مروا بالقاعة
العمومية فوجدوا ماري مبيتة على مقعد وقد حملت بيدها ورقة
مفتوحة كتبت فيها ما يأتي :

«إلى لوسي فورتيه . . .
«لقد أسأت إليك كثيراً . ولكنني أحبته جداً وقد انتقم الله لك
خير انتقام فصلي لأجلي واغفري لي» .

«ماري»

بعد ذلك بثلاثة أشهر حكم على جاك وأوليد سوليفر بالأشغال
الشاقة .

غير أن جاك لم يتحمل هذا السجن فوجد وسيلة للالتحار
فانتحر .

ولما تمت براءة جان عقد زواج لوسيان على لوسي وعاشا هنا
عيش مع جورج أخيها وأمها جان ، ولقيت تلك الأم المتكودة من
الهناء مع ولديها ما أنساها مرارة تلك السنين الغابرة .